إرنست بلوخ

فلسفة عصر النهضة



دار الحقيقة - بيروت

فلسفة عصر النهضة

إرنست بلوخ

فلسفة عصر النهضة

ترجمة وتقديم وشروح
الياس مرقص

دار الحقيقة للطباعة والنشر

الطبعة الأولى

١٩٨٠م

دار الحقيقـــة للطباعــة والنشر

بيـروت

تعريف بـ ارنست بلوخ

ارنست بلوخ Ernst Bloch ولد في لودفيفشافن سنة ١٨٨٥ . درس الفلسفة والفيزياء ، نال الدكتوراه في الفلسفة ١٩٠٨ . عمل في الكتابة والصحافة، سافر الى سويسره ، واقام في برن (١٩١٥) حيث انخرط في حركة السلام . ثم عاد الى المانيا واقام في برلين (١٩١٨) حيث شارك في تحرير صحيفتين واصدر كتابه الاول : **« توماس منتسر ، لاهوتي الثورة »** (١٩٢١) ... في ١٩٣٣ ، هاجر من المانيا ، واستقر في براغ حيث شارك في تحرير مجلة المانية في المنفى ، واصدر كتابه **« ميراث هذا الزمن »** (١٩٣٥) ، ثم هاجر الى الولايات المتحدة (١٩٣٨) حيث اشترك في تأسيس دار النشر الالمانية « اوورورا ــ فرلاغ » وساهم في تحرير مجلة « المانيا الحرة » . عاد الى المانيا واصدر دراسة عن اليوتوبيات الاجتماعية تحت عنوان **« الحرية والنظام »** (١٩٤٦) . عين استاذا لتاريخ الفلسفة ومديرا للمعهد الفلسفي في جامعة لايبتسيغ (١٩٤٩ ــ ١٩٥٥). اصدر **«الذات ــ الموضوع»**، وهو تعليقات على هيغل (١٩٥١) ، **« ابن سينا واليسار الارسطوطيلي »** (١٩٥٢)، ... ثم اشهر واكبر مؤلفاته ، **المبدأ : الامل** الجزء ١ (١٩٥٤) ، والجزء ٢ (١٩٥٥)، ونال جائزة الدولة لجمهورية المانيا الديمقراطية ، اصدر كتابه **« فروق فـي مفهوم التقدم »** ، لكن اعفي من كل وظائفه الجامعية (١٩٥٥) ؛ صار استاذا في جامعة توبنجن في المانيا الاتحادية (١٩٦١) ، كان قد اصدر الجزء ٣ من كتابه الاشهر (١٩٥٩) ، ثم تبعه **« الحق الطبيعي والكرامة الانسانية »** (١٩٦١) . واعماله الكاملة في ١٦ مجلدا سنة ١٩٦٢ . **« اغتراب »** ١ و ٢ ، **« مداخل توبنجن الى الفلسفة »** ١ و ٢ (١٩٦٢ ــ ١٩٦٤) . نال جائزة السلام لاصحاب المكتبات الالمان (١٩٦٧) . **« الالحاد في المسيحية »** (١٩٦٨) واخيرا ، بعد مؤلفات اخرى ، **« فلسفة عصر النهضة »** (١٩٧٢) .

ترجمت بعض مؤلفاته الى الفرنسية : **توماس منتسر** (دار Julliard) ، **المبدأ : الامل** (Gallimard) ، **الحق الطبيعي والكرامة الانسانية** (Payot) **« فلسفة عصر النهضة »** (Payot , 1974)

ترجمنا « فلسفة عصر النهضة » عن هذه الطبعة الفرنسية

عنوان الاصل الالماني : « la Philosophie de la Renaissance » « قراءات في فلسفة النهضة » .

اضفنا – في بداية هذا المجلد – مقدمة تعرف القارىء العربي بحركة النهضة (الميلاد الجديد) وبعصرها الذي هو ايضـا عصر الاكتشافات الجغرافيـة الكبرى ونتائجها والاصلاح البروتستانتي والامم ، اي جوهريا بالقرن السادس عشر الذي هو زمن انقلاب شامل : ثقافة ودين وسياسة ، فنون وعلوم وفلسفة ولاهوت وامـم وحروب وراسمالية آخذة في الانطلاق .

وشروحا مسلسلة مرقمة – في نهاية المجلد – غرضها الرئيسي تعريف القارىء بالاعلام الذين تتعامل معهم « فلسفة عصر النهضة » ، لا سيما مـن فلاسفة العصر الوسيـط المسيحي وفلاسفة العصر القديم اليوناني واليوناني الرومـاني المسيحي وفلاسفة العصر الحديث ، وبالمسائل والخطوط الفلسفية والايديولوجية .

مقدمة المترجم

١ ــ النهضة

Renaissance تعني نهضة ، بعث أو احياء ، وحرفيا ميلاد جديد أو تكرار الميلاد . هكذا يجب ان تفهم . عربيا نقول : نهضة ، عصر النهضة ، حركة النهضة. لكن يجب ان تفهم ايضا كـ ميلاد ثان ، تكرار للولادة .

« فلسفة عصر النهضة » تندرج في حركة النهضة ، وهي جزؤها المجهول أو المهمل ، بلا وجه من حق . وحركة النهضة تندرج في عصر النهضة الذي هو عصر النهضة والاكتشافات الجغرافية والاصلاح البروتستانتي وأمور اخرى . وهذا العصر يندرج في مسيرة تاريخية أطول بكثير ، هي تاريخ أوروبا ، التاريخ الكوني . انه عصر انطلاق الراسمالية . لكن الراسمالية أكبر بكثير من الكلمة ، بل ومن « الاقتصاد » .

من الصعب ومن غير الضروري اعطاء عصر النهضة تحديدا زمنيا دقيقا . انه لا ريب انقطاع ولكنه أيضا اتصال وتواصل . انقطاع نسبة الى ما قبله ، لكنه انقطاع لا يتحدد بسنة ولا بعقد ولا حتى بنصف قرن ، وانقطاع لا يلغي ما قبله . وهو نسبة الى ما بعده شيء بارز ناتىء ، ومذهل . وما بعده يواصله ، أجل ، وينميه ، لكنه أيضا يضيع بعضه ، يقلص ، يخفض . غوته ، الفلسفة الكلاسيكية الالمانية ، هيغل ، الجدل ، هم ــ في حيثيات هامة ــ رد على هذا التقليص من جانب فكر القرنين السابع عشر والثامن عشر ورجعة الى عصر النهضة واهتماماته الكلية الكونية التي لها أصول في العصور الوسطى وفي اليونان القديمة .

يمكن القول اذا ان عصر النهضة يمتد من سنة ١٤٠٠ الى سنة ١٦٠٠ . الطليان يقولون : الـ Quattrocento أي السنوات الف واربعمئة أي القرن الخامس عشر والـ Cinquecento أي السنوات الف وخمسمئة أي القرن السادس عشر . لكن النهضة ــ الميلاد الجديد تبدأ ، في ايطاليا ، في القرن الرابع عشر . وهناك نهضة في القرن الثالث عشر ، مركزها فرنسا ، ودائرة نفوذها أوسع من فرنسا ، نهضة

ومتطوية ، نهضة في العصور الوسطى . و « فلسفة عصر النهضة » تواصل بعض جوانب او خطوط فكر العصر الوسيط التي يضيعها فكر القرنين السابع والثامن عشر ، اي « العقل » ــ Ratio البرجوازي الصاعد الفاتح والمقلص الخاصي . دانته Dante عاش حوالي سنة ١٣٠٠ ، بين النهضتين .

ان العصور الوسطى الغربية لم تكن زمنا فارغا . العكس أقرب الى الصواب ، من وجهة نظر التاريخ الكوني . لو اردنا تلخيص تاريخ العصور الوسطى الغربية بعبارة واحدة لقلنا : « من البربرية والفوضى والظلام الى المنظومة الاقطاعية ومعها المدن » . فالبرابرة اعادوا البسط التاريخي الى بدء جديد من الصفر او تقريبا ، الى بدء بالبربرية ونتف من معطيات حضارية . عمليتهم كانت دماراً لا مثيل له ، في حروب مستنفدة لا عدد لها ولا نهاية : المدن انقرضت او تقلصت الى ربع حجمها او الى أقل بكثير ، روما هبطت من مليون نسمة الى ٥٠،٠٠٠ ؛ وكانت نزوحا للتاريخ في اتجاه الشمال ، خلقا لاوروبا الجرمانية ــ الرومانية المغايرة ، كحيز تاريخي ، لروما وعالم البحر المتوسط . ثلاث موجات ــ أو مجموعات موجات ــ بربرية تعاقبت وغطت ، رغم الفواصل ، النصف الأول من العصور الوسطى (ق ٥ ــ ق ١٠) . الاولى موجات الفيزيغوت والاوستروغوت والبرغوند والالامان والفاندال واخيرا الفرانك (ق ٥) . الثانية ، بعد فاصل عابر هو محاولة امبراطور الشرق جوستينيان اعادة وحدة الامبراطورية الرومانية المسيحية (ق ٦) ، موجة الانجل والسكسون التي اخذت بريطانيا ــ انكلترة (ق ٦) وموجة اللومبارد التي دلفت على ايطاليا من الشمال . هذه الحقبة تسفر عن قيام دولة الكنيسة في وسط ايطاليا (ق ٨) التي ستعيش حتى القرن التاسع عشر ، وامبراطورية شارلمان (٨٠٠) العابرة أول نسخة عن حلم « الخلافة » الرومانية المسيحية الغربية . الثالثة موجات متعددة اهمها موجة النورماند « رجال الشمال » (ق ٩ ــ ١٠) وتسفر عن قيام النظام الاقطاعي في فرانكيا ــ فرنسا الذي لا يلبث ان يصير (ق ١٢ ــ ١٣) المنظومة الاقطاعية « التامة » مع المدن ــ « البرجوازية » الاولى ــ حركة الكومونات : النظام الاقطاعي يبلغ ذروته ويبدأ بالافول فورا (ق ١٣) ؛ المدن تنعتق ؛ القنانة ذاتها ، قاعدة النظام، تتراجع ، في الغرب الاقصى ؛ والمدن تشهد صراعات طبقات . النصف الثاني من العصور الوسطى وخصوصا القرون الوسطى الاخيرة (ق ١٢ ــ ١٥) تحقق اختراعات تقنية بالغة الاهمية ، تحسينات كبيرة في الشروط التقنية للشغل والتبادل : منفاخ الصهر ، المحرك المائي ، الطاحونة الهوائية ؛ طوق الجلد المغلي على كتفي الحصان (ق ١٠) ؛ طرقات وجسور وفنادق وملاجيء عند الممرات الجبلية ؛ قنوات ؛ منائر وخرائط بحرية وتعمم البوصلة ؛ المقود المحوري للسفينة ؛ صناعة ورق الخرق ؛ البارود والاسلحة النارية . ويبدأ الانطلاق الصناعي والتجاري من مركزين هما الفلاندر (بلجيكا) في الشمال حيث مرفأ بروج Bruges القنواتي ومدينة غاند Gand وصناعة الجوخ، وتوسكانا (شمالي ايطاليا) حيث مدينة فلورنسا وصناعة

الجوخ ، ومدينتا البندقية وجنوه البحريتان التجاريتان غير بعيدتين عن توسكانا . علما بأن قاعدة الانتاج تبقى هي الزراعة ، والقاعدة التقنيـة تبقى هي المحـراث الروماني المتفوق على اداة الفلح الشرقية البدائية والذي يسمح بفتح اوروبا الغابرة مناخيا وطبيعيا للشرق الادنى . الفن الوسطوي يتجلى فـي العمـارة الرومـان Roman (ق ١١ ــ ١٢) ثم في العمارة الاوجيفية او الغوتية Gothique (ق ١٢ ــ ١٣ الخ : الكاتيدرائيات ، ودور الكومونات) . الفلسفة تنتعش من جديد وتتقدم في صراعات متنوعة : انه عصر « مشاجرة الكليات » بين الاسمانيين و «الواقعيين»، و « الابن رشدية اللاتينية » ، ومدرسة بادوا ، والسكولاستيكـا الارسطويـة ، ومذهب توما الاكويني ، ثم افول السكولاستيك (ق ١٤) . وبينما الحلم الروماني الخلافي الكاثوليكي « يضيع » المانيا والكنيسة في شكل « الامبراطورية الرومانيـة الجرمانية المقدسة » ، الغرب الاقصى يتبلور في أمم ــ دول ، يتكون كمونارشيات قومية ، مع المبدأ السلالي على خط . وحرب المئة عام (ق ١٤ ــ ١٥) تسفر عـن انفصال وتبلور فرنسا وانكلتره بوصفهما دولتين ــ امتين ــ لغتـين . الهرطقـات الاخيرة تسدد ضربات مؤذية للكنيسة التي دخلت في عصر انحطاط بعد أن لعبت دورا كبيرا وقياديا في خروج الغرب من البربرية الى المنظومة الاقطاعية .

النهضـة ، الاكتشافات الكبرى ، الاصـلاح البروتستانتي وحـروب الديـن والسياسة ، تثبت ونمو الدول القومية في الغرب الاقصى ، انطـلاق الاقتصـاد الرأسمالي المالي التجاري والمانيفاكتوري ، عمليات تجري على هذه القاعدة التاريخية الاجتماعية التي ليست البربرية والتي لم تعد ، منذ برهة ، اقطاعية مغلقة . وهي عمليات مذهلة وبدء جديد . حركة النهضة حركة في الثقافة جبارة : فنون ، آداب ولغات ، فلسفة وعلوم وسحر وتقنية ، فتح . وهي بدء جديد ، عودة الى بـدء ، عودة تامة ، جدية ، اي نقدية فاحصة ومؤسسة للمستقبل . سنلقي نظرة سريعة على الوجهين معا وتباعا . اولا ماذا في القرن السادس عشر ؟ وماذا فـي القـرن الخامس عشر ؟ ومن ؟

حوالي سنة ١٥٠٠ ، عاش الثلاثي الاشهر **ليوناردو دافنشي** و **رافايل** و **ميكل انجلو** ، ومعهم بابوات عصر النهضة . وكذلك دورر Durer اكبر الرسامين الالمان ومعه **غرونفالد** و **كراناخ** ، اي مدرسة الرسم الالمانية العظيمة الوحيـدة والتي هي بمثابة شيء نائيء وشاذفي تاريخ العبقرية الالمانية . **واراسم** Erasme او اراسموس الهولندي ، صاحب « مدح الجنون » (١٥٠١) ــ وهو نقد لاذع لكنيسة زمنه ــ ، ربما اكبر « انسانويي » عصر النهضة والملقب أحيانا بـ فولتير اللاتيني . والانكليزي **توماس مور** Moore او موروس ، صاحب كتاب « اليوتوبيا » ورائـد الشيوعيـة اليوتوبية في العصر الحديث ، ومستشار انكلتره العظيم الذي يدفع حياته ثمنا لمبدا الوجدان (١٥٣٥) . وعالم الفلك **كوبرنيك** البولوني ، قالب النظـرة الى الكـون والعالم ، الرمز العلمي الاكبر للعصر كله . والاسقف الاسباني **بارتولوميو دو لاس كازاس** Las Casas أول مناهضي الاستعمار في التاريخ الحديث .

بعدهم عاش الاديب الفرنسي **مونتيني** Montaigne ، مؤلـف « المحــاولات » (١٥٧١ – ١٥٩٢) – وفيها « دفاع عن ريمون سابوند » الطبيب الاسباني الـذي عاش في فرنسا رافعا لواء ((**كتاب الطبيعة**)) – ، ومدشن الفكر الفرنسي الحديث بنفس جميل من ريبية وتسامح وخفـة روح . وفـي انكلتـره ، **مارلو** Marlowe مؤلف « حياة وموت الدكتور فاوست » ، ثم **شيكسبير** Shakespeare (حوالي سنة ١٦٠٠) أعظم مؤلفي المسرح في التاريخ الحديث (الدراما : تراجيديا وكوميديا) . – العصر هنا يعرف بعصر اليزابيت فهي أعظم ملوك تاريخ انكلتره (١٥٥٨ – ١٦٠٣)– وفي اسبانيا ، **سرفانتس** Cervantés مؤلف « دون كيخوت » (١٦٠٥) رائعة الادب الاسباني ، وقبله بقليل **كامويني** Camoens أكبر شعراء البرتغال . وفي ايطاليـا الرسام **كارافاجيو** ، الذي جعل المسيح – الانسان انسانا وأمه أما والألم ألما بالتمام وقبحا والموت موتا بالتمام وقبحا ، واضعا خاتمة جيـدة لمسيرة طويـلة جبـارة ، ايطالية ، بلجيكية ، المانية ، اسبانية الخ ، هي مسيرة تأسيس الرسم الحـديث . **وبالسترينا** Palestrina ، مصلح الموسيقا الدينية ، خاتم عهد وبادىء عهد في تاريخ الموسيقا الغربية : «الموسيقا الكلاسيكية » تلوح في الافق ؛ **مونتيفردي** Monteverdi يضع أول اوبرات « أورفيو » – في سنة ١٦٠٢ . الفلسفة تتمثل ب **جوردانو برونو** G. Bruno الذي يحرق حيا في روما سنة ١٦٠٠ ويخلفه **كامبانلا** Campanella الذي يقضي ٢٧ سنة من عمره في السجن : كلاهما خرجا من رهبنة الدومنيكان ؛ وفي المانيا بالطبيب– الفيلسوف – الساحر **باراسلس** Paracelse (١٤٩٣ – ١٥٤١)، ثم بالاسكافي والمتصوف **ياكوب بوهم** أو بـم Jakob Boehme (١٥٧٥ – ١٦٢٤) « الفيلسوف التتوني » ، أبو الفلاسفة الالمان . وفي انكلتره ، ب **فرانسيس بيكـن** F. Bacon (١٥٦١ – ١٦٢١) رائد « الفلسفة الحديثة » ، معاصر ل بوهـم ، ويقع بين طورين فلسفيين . الفلسفة السياسية والحقوقية تتمثل ب الايطالي **ماكيافل** صاحب « الامير » (١٥٣٢) ، والفرنسي **بودان** Bodin مخترع مفهوم السيادة (١٥٧١) ، وبالالماني **التوسيوس** Althusius (« السياسات » ، ١٦٠٣) والهولندي **غروتيوس** Grotius (« حقوق الحرب والسلم » ، ١٦٢٥) حاملي فكـرة **الحـق الطبيعي** . ماكيافل يفصل السياسة عن الاخلاق ، يؤسسها كعلم وضعي ، كمعرفة لواقع ، ويعطينا – بين أمور اخرى – صورة عن واقع عصر لم يكن فقط عصر عمالقة الفن والفكر والاختراع والاكتشاف بل كان أيضا عصر عمالقة الجريمة ، في ايطاليا وغيرهـا .

قبل هؤلاء جميعا ، قبل منعطف سنة ١٥٠٠ ، عاش عـدد مـن كبار الفنانين الطليان – عمارة ، نحت ، رسم – في **فلورنسا** العاصمة الاولى للنهضة **والبندقية** ومدن ايطالية اخرى ، والرسام الفلاماندي **فان ايك** Van Eyck (١٣٧٥ – ١٤٤٠) في مدينة **بروج** Bruges (= جسر) « بندقية الشمال » المطلة على العالم بالتجارة والعمل . الالماني **جان غوتنبرغ** J. Gutenberg اخترع الطباعة في منتصف القـرن الخامس عشر وطبع **الكتـاب المقدس** في سنة ١٤٥٦ ؛ وانشا الانكليـزي كاكستون

مطبعته في وستمنستر سنة ١٤٧٦ ؛ بسرعة البرق ، وكأن الناس على موعد ، ظهرت مطبعة في كل مدينة ذات شأن ، تكونت طبقة من القراء ، نشطت حركة الترجمة والتأليف ، صدرت كتب باللغات القومية ـ الشعبية ، مع استمرار اللاتينية في ميدان مقلص ، وبروز اليونانية في التعليم ، ومواصلة ومضاعفة بعث التراث القديم اليوناني واللاتيني . الاديب العلامة الايطالي **بترارك** Pétrarque أول كبار « انسانويي » حركة النهضة عاش في أواسط القرن الرابع عشر . **اما دانته** Dante ، صاحب « الكوميديا الالهية » ، شاعر ايطاليا واللغة الايطالية الاول والاعظم ، مؤسس اللغة الادبية القومية ، فقد عاش ، قبله ، في فلورنسا حوالي سنة ١٣٠٠ ومعه الرسام **جيوتو** Giotto ، الحلقة الوسيطة والحاسمة نحو فن حديث مخالف ومناهض للفن البيزنطي . « فلسفة عصر النهضة » تعيش بداياتها ، بعد سقوط القسطنطينية في سنة ١٤٥٣ ، بترجمة جديدة لاعمال او أفكار أفلوطين وافلاطون وبارمنيد وارسطو وابيقور وابن سينا وابن رشد وابن جبيرول وبعودة الى ارسطو « الحقيقي » من فوق الكنيسة ومن فوق ابن رشد ، على يد الفاتحين الاوائل رجال « الاصول » : **مارسيل فيسين ، بيك دو لا ميراندول ، تيليزيو ، باتريزي ، بومبونازي** (ق ١٥ و ق ١٦) . ـ مدرسة بادوا Padoue موجودة من القرن ١٤ ، « الابن رشدية اللاتينية » من القرن ١٣ ، الكنيسة تدين ابن رشد في القرن ١٣ ثم أيضا في أوائل القرن ١٦ ؛ ريمون لول ، سيد اكهارت ، غيوم أوكام ختموا عصر السكولاستيك الكبير . **نقولا دو كوزا** رجل ما بين ـ عصرين .

النهضة ـ الميلاد الجديد حركة شاملة . أشهر مظاهرها في معرفة الناس نهضة الفنون الجميلة (عمارة ، نحت ، رسم) لا سيما في ايطاليا . لكن ، كما لاحظ القارىء لتوه ، القضية اكبر بكثير .

جغرافيا ، النهضة تصيب ، بدرجة واخرى ، بشكل واخر ، كل بلاد اوروبا المسيحية الكاثوليكية والتي تنشق آنذاك بعصا لوثر (١٥١٧ ـ ١٥٢٠) : ايطاليا ، البلاد المنخفضة (بلجيكا وهولنده) ، فرنسا ، انكلتره ، المانيا ، اسبانيا ، بولونيا ، الخ .

وهي تشمل كل ميادين الفكر ، الروح ، المعرفة ، التملك : الفنون ، الآداب ، العلوم (رياضيات ، طبيعيات) ، الفلسفة ، الفكر السياسي والفلسفة الاجتماعية ، التقنية (بما في ذلك السحر) . وتلعب في كل هذه المجالات دور تأسيس أو حتى في معظمها دور التأسيس ، أو تقريبا .

اذا هذه الحركة الثقافية لا تقتصر على الفنون . والفنون نفسها هي تعبير عن روح عامة تشمل جميع الميادين ، هي ترجمة عن نظرة جديدة الى الانسان والكون . الرسم **الحديث** يتأسس في ايطاليا أولا ضد الفن البيزنطي وموجودات الفن الوسطوي الغربي . أولا ، على أساس الواقعية البصرية ، اي رسم الاشخاص والاشياء كما

ترى بالعين ، عينيا ، وهذا يتطلب عملية تجرد غير سهلة ؛ وكتابع لذلك اكتشاف او اختراع المنظور perespective . ثانيا ، كواقعية سيكولوجية تكشف ثروة النفس الانسانية والفردية الشخصية والعيانية على الوجوه ؛ وكواقعية انسانية روحية جسدية لموقف حي . ثالثا وبالتلازم ، كرسم لانسان او لبشر في اطار حقيقي هو منظر paysage وطبيعة حقيقية وودية ، وليس قاعا مذهبا كما في الفن البيزنطي او « طبيعة » من شياطين وابالسة كما في التصور الوسطوي الغربي . اخيرا : المواضيع الدينية ، والتي تبقى في معظم الحالات مواضيع دينية ، تصير ذات دلالة انسانية بشرية متعاظمة في ثروتها . مواضيع تتكرر ويتبارى فيها الرسامون والنحاتون : صلب وموت المسيح ، المسيح النازل عن الصليب في حضن أمه ، العشاء الاخير ، آدم وحواء ، العذراء وطفلها ، داود الخ . الدراما اللاهوتية تغدو دراما ، تعود دراما : مواقف ، عواطف ، هيجانات ، حب ، صدق ، خيانة ، ألم ، موت ، جمال ، قبح ، **اشخاص** . داود يستهوي النحاتين : انه يمثل ظفر العقل الذي له يد وله جسم بالتمام على القوة الخام . المرحلة التالية في البسط ـ الرسم الهولندي في القرن السابع عشر ـ تستغني في معظم الحالات عن وساطة المواضيع الدينية ؛ الهولنديون يرسمون الحياة البرجوازية البسيطة العظيمة ، الهادئة الواثقة ، لشعب فاتح .

الفكر يتجدد ، لا سيما **بالانسانوية** humanisme . هذه الكلمة تعني ، بطبيعة الحال ، الاهتمام بالانسان ، اتخاذه مركزا ومحورا ـ فهو جزء من الطبيعة والطبيعة جسده الخارجي ـ ، ضد الموقف السابق ، اللاهوتي ، حيث التركيز على الانسان ـ حين كان يحصل وبقدر ما كان يحصل ـ كان تابعا للمتعالي ، للخالق الذي خلقه على صورته وحكمه على الكون المادي (وقد بقي اثرا من هذه العقيدة الدينية الايجابية الجبارة حتى في العصور الوسطى رغم الانتكاس الجوهري الى مخلوطة الارواح والشياطين) ، وكان يجعل (وا أسفاه !) من ارضه ـ حسب الكنيسة والكتاب ومنظومة بطليموس الداعمة للكتاب والمدعومة به ـ مركز الكون ، المركز القار الذي تدور حوله الشمس والافلاك والسماء الزرقاء . انسانوية عصر النهضة تتضمن اذن او تفرض نزع هذه المركزية المثالية او الهاذية والتوجه نحو الموضوعية والموضوعوية ، في خط منظومة كوبرنيك كخط عام في طريقة النظر الى الامور وتملك الاشياء ، مع الشعور باتساع ولا محدودية الكون ، بضخامة وهول المسائل الانسانوية تغدو علماء

لكن هذه الكلمة ـ انسانوية ـ تعني بشكل خاص (في زمن النهضة ونسبة اليه) حركة البحث في العصر القديم اليوناني ـ الروماني ، العودة الى ادب وفلسفة وفن اليونان والرومان واهتماماتهم الكونية والانسانية ، من فوق رأس العصر الوسيط الذي كان ، بوجه الاجمال والى حد كبير جدا ، يرفض التراث العظيم بوصفه « وثنيا» ، مديرا ظهره لـ انسانية او انسانوية ذلك العصر القديم المتجسدة في الادب (الملحمة ، الدراما ، الشعر الغنائي) والفن (النحت) والفلسفة والفكر السياسي والتربية البدنية . الكنيسة كانت قد احتفظت من العصر القديم بما دخل في

العقيدة اللاهدتية ـ الفلسفية من معطيات فلسفية يونانية ويونانيـة ـ شرقيـة ـ رومانية (افلاطون ، نيو افلاطونية ، رواقية ، واخيرا وبقوة : أرسطو توما الاكويني والسكولاستيك) تحت سلطة الايمان والكتاب واللاهوت ، وبـ « روما » والتنظيم الروماني والحلم الروماني الكوني . حركة النهضة تثور الموقـف ، عصر النهضـة والطباعة والاصلاح البروتستانتي والدول القومية يعصف بهذه الحالة . **«الانسانويون»** humanistes هم الذين يقومون باحياء التراث القديم اليوناني ـ الروماني ، بقوة وتصميم وجدارة ، فهم علماء واسعو الاطلاع . هم علماء لا نظير لهم باللغات القديمة، وهم بنفس الوقت في معظم الاحيان الانسانويون الكبار) مكونون للغـات الادبية ـ الشعبيـة اي القوميـة فـي عمليـة جبـارة توسـع دائـرة الثقافـة ، تحقق الدمج بين الثقافة والشعب ـ الذات ـ الفاعل ، عملية مهد لها عمل قرون من تاريخ تكون الامم الاوروبية ، وها هي تخلق الآن للثقافة رقعة وعمقا في المجتمع لـم يعرفا من قبل ، أو لم يعرفهما « العصر القديم » أو « العالم القديم » . هذه الكلمة ـ **عصر قديم ، عالم قديم** Antiquité ـ تعني مبدئيا ـ في ترجمتنا لكتاب ارنست بلوخ ـ العصر القديم اليوناني ـ الروماني ، الذي يعقب الشرق ـ الادنى القديم في التاريخ الكوني . اليونان أخذت « المواد » من الشرق ـ الادنى القديم ، بنت **«شكلا»** جديدا وأعطته لـ « أوروبا » : الاساطير ، الانواع الادبية ، الفن التشكيلي ، مفاهيم سياسية ، المعرفة المجردة أو العلم المحض لا سيما الرياضة الفيتاغورية والهندسة الاقليدية الخ ، والفلسفة . اعطته لـ « أوروبا » عدة مرات : روما ثم المسيحية ، النهضة ، هيغل ، الخ ، ولعل اهم هذه المرات واشملها واعمقها لحظـة **النهضـة** . العصر القديم اليوناني ـ الروماني هو حقبة ما بين القرن السادس او السابع ق م والقرن الرابع م ، حوالي الف سنة من التاريخ الكوني ، أهمها القرون ٦ ـ ٥ ـ ٤ ق م اليونانية . في هذه القرون اليونانية الاولى ، عاش كبـار الفلاسفة الرواد ، اصحاب المدارس ، آباء الفلسفة . اليهم بالدرجة الاولى يعود فلاسفة عصر النهضة.

اليهم تعود حركة النهضة . اليهم والى غيرهم ، يونانيين وغير يونانيين ، فلاسفة وادباء وعلماء . تبعث الخطوط المدفونة ، تنمي ، تنقد ، في سجال لا ينقطع . هذا الميلاد الجديد للوعي يتجلى في الروح العلمية ، في الاهتمام بالعلوم ، وفي تدشين مسيرة تأسيس العلوم ، العلوم الحديثة ، الوضعية ، كما نعرفها اليـوم . عنـد الاقتضاء ، والاقتضاء نوعا ما قائم حكما وعلى طول الخط ، ضد الاقدمين ، ضـد سلطة بطليموس وجالينوس وارسطو ، ضد « حجة السلطة » التي ليست حجة . ذكرنا البولوني **كوبرنيك** Copernic الذي ، في كتابه الصادر سنة ١٥٤٢ (قبيـل وفاته) ، برهن حركة الكواكب حول نفسها وحول الشمس ، ببساطة ، ناسفـا ، بالبسـاطة ، منظومة بطليموس البالغة التعقيد . في هذه الاثنـاء كان **اندره فيزال** Vésale البلجيكي ، اكبر علماء التشريح في القرن السادس عشر ، يمارس منهجيا تشريح جسم الانسان ، يتجرأ ويهاجم بعنف آراء جالينوس والتقليـد الجالينوسي الطويل . **ميشيل سرفه** Servet الطبيب والفيلسوف الاسبـاني يدرس الـدورة

الدموية الصغيرة ، ويحرق حيا في جنيف (١٥٥٣) بتحريض من كالفن : كان قد عارض عقيدة الثالوث الاقدس والوهية المسيح . **تيشو براهه** Tycho - Brahé الفلكي الدانماركي ، الملاحظ الجبار للكواكب ، يمهد الطريق لقوانين كيبلر Kepler .
اما **فييت** Viéte (ق ١٦) الرياضي الفرنسي فيعتبر خالق علم الجبر الحديث ، الذي كان العرب قد دفعوا قضيته خطوة كبيرة الى الامام . العرب قدموا موادا عظيمة (من علوم وفلسفة وتقنيات) لعصر النهضة وللنهضة الاولى التي سبقت الميلاد الجديد ، وللعصور الوسطى الغربية بوجه عام ، ونقلوا الى الغربيين أرسطو والصين . الاوروبيون أخذوا ، تمثلوا ، هضموا ، ادخلوا في الجسم الآخذ في التكون . نحو سنة ١٥٩٠ ، يظهر الميكروسكوب .

هذه الحركة — حركة الاهتمام بالعلوم ، حركة المخاض الطويلة الشاقة للعلوم — بدأت من قبل ، قبل كوبرنيك وفيزال وفييت بقرنين او أكثر . **ألبير من ساكس** Albert de Saxe(ق ١٤) يضع نظرية عن الثقالة . **نقولا أورسم** Nicolas d'Oresme (ق ١٤) يشتغل في الرياضيات (يضع فكرة « التابع ») ، في الفيزياء، في التنجيم والفلك ، يضع نظرية عن العملات . قبلهما بقرن ، في سنة ١٢٥٢ ، وضعت ، بأمر من ألفونس العاشر ملك قشتالة ، **الجداول الالفونسية** ، التي تقسم السنة الى ٣٦٥ يوما و ٥ ساعات و ٤٩ دقيقة و ١٦ ثانية . **نقولا دو كوزا** Nicolas de Cusa(ق ١٥) يهتم ، بين أمور أخرى ، بعلم الهندسة والكوسموغرافيا (علم وصف السماء أو الكون) . **ريجيو مونتانوس** Regiomontanus (ق ١٥) ينكب على علم المثلثات وعلم رسم الخرائط. البوصلة تعمم استعمالها قبله بقرن أو اثنين. الرحلات البحريةالكبرى بدأت في سنة ١٤١٦ ، بقيادة ابن ملك البرتغال ، الامير هنري الملاح ، الذي لم يركب هو البحر : الفتح ليس محض شجاعة وبطولة وحركة خام .

شخصية **نقولا دو كوزا** جديرة بوقفة . نوعا ما ، معظم عمالقة العصر هم من هذا النوع ، وكلهم مع ذلك أو بذلك مختلفون! انه كاردينال الماني، عالم ، فيلسوف، متصوف ، رجل دولة وسياسة و « مشاريع » . ولد في كوز أو كوزا قرب ترير (تريف) في أقصى غربي المانيا ، قريبا من وادي الراين الذي كان بين جملة امور « شارع القديسين » أي المتصوفة . درس الحقوق في هايدلبرغ ، تعلم الرياضيات واللغة العربية واللغة العبرية ، تخرج دكتورا في بادوا (ايطاليا) . رسم كاهنا ، اصبح عميدا لمعهد كوبلنتس (المانيا الغربية) ، اشترك في المجمع الكنسي ببال (سويسره) سنة ١٤٣١ . كان مؤيدا لمبدأ غلبة المؤتمرات المسكونية على البابوات . رحل الى القسطنطينية سنة ١٤٣٧ في محاولة لاقناع الامبراطور والبطريرك في بيزنطية المحاصرة باللجوء الى ايطاليا تحت جناح روما والوحدة. عين رسولا بابويا في المانيا وكاردينالا ، لكن اصطدم بالاكليروس الالماني وبأرشيدوق النمسا ، الذي ابقاه سجينا سنوات عديدة . ثم أصبح حاكما للممالك البابوية الرومانية ، وكرس نفسه لمشروعه الكبير في التوفيق بين المسيحيين والمسلمين وتوحيدهم . هذا الكاردينال النهضوي والايزوتيري (الباطني) يؤمن بان « التنزيلات » متعددة والعقائد

والطقوس الدينية حقائق جزئية . وهو يدفع البابا الى كتابة رسالة للسلطان التركي « يعرض » له فيها وراثة اباطرة روما الشرقية . لكنه يدرك على نحو متزايد « اختلاف الشعوب التاريخي » ، ومشاريعه تفشل . فكره الجوهري : الطبيعة البشرية الهية حقا ، الانسان مركز العالم ، التقدم العلمي شيء عظيم . نقولا دو كوزا متأثر بأفلاطون ، ومدافع عن منظومة بطليموس التي كانت موضع سؤال تنوء تحت جبل من تناقضات واحاييل ومفارقات وافتراقات عن الملاحظة ... لكنه مع ذلك من رواد الفكر الحديث . يجد في الرياضيات والتجربة ، في الخبرة والحساب ، الطريقة الوحيدة التي تسمح بمعرفة العالم . مع انه كما ذكرنا في الايزوتيرية (الباطنية ـ التأويلية) . لكنه ليس في « السرية » . حسب رأيه ، المعرفة الحقة ايزوتيرية ، و « الحكمة تصرخ في الساحات العامة ، لكن ما تصرخه هو انها تسكن فوق القمم » . (هذا كان موقف كبار المتصوفة العرب السنيين الشعبيين والمنبوذين من الشعب والسنة) . ترك مؤلفات عديدة منها . في التوافق الكاثوليكي ، في الجهل العالم ، دفاع عن الجهل العالم ، في سلام الايمان ، في الفحص النقدي للقرآن ، في البحث عن الله ، في ملاحقة السعادة ، واخيراً : في تربيع الدائرة ! سوف نجد اسمه مرارا في « فلسفة عصر النهضة » .

الفنان الكبير ، المخترع الجبار للسلم والحرب ، العبقري الكوني ، **ليوناردو دافنشي** (١٤٥٢ ـ ١٥١٩) ، عملاق النهضة ورمزها الاشهر والاعظم ، اعلن بوضوح ان العلم لا يمكن ان يتقدم الا بالاستخدام المتراكب للملاحظة والتجربة والبرهنات الرياضية . هذه الفكرة كانت في الجو منذ امد وها هي الآن تبرز بقوة عند الطلائع ، وهي قوام الفكر العلمي كله .

على هؤلاء جميعا واقرانهم الاقل شهرة انبنت اوروبا الحديثة والعلوم . الاتجاه واضح ومبلور الى حد كاف منذ زمن كوبرنيك وفيزال وفييت : الفكر الحر ، الحر من كل سلطة خارجية ، الوجدان الذي لانه يحترم ذاته والحقيقة ليس مستعدا للركوع لغير الحقيقة ولغير ذاته كوجدان ، لانه يحترم الانسان والكون (كونه ، وكله) لا يسجد لانسان معين ، لجزء ، لـ « مادة » ، لوثن ، الخبرة ، الحواس ، التجربة ، التجريب كفتح للاقفال ، كانتاج ، كعمل على اساس السببية الكلية والموضوعية المطلقة ؛ العقل وسلاحه المفاهيم ، المقولات ، الاستنتاج و ؛ بناء الاداة الرياضية الجبارة : من اجل هذا البناء يستولون على فيثاغور ويعلمنونه . العصر التالي (ق ١٧ ، ق ١٨) تراجع وتقليص ، في الفلسفة ، من حيثيات عدة ، لكنه يحقق برنامج تأسيس وبناء العلوم : العلوم الرياضية ، و « العلم الطبيعي الرياضي » . بعد **غاليله** (١٥٦٤ ـ ١٦٤٢) و**كيبلر** (١٥٧١ ـ ١٦٣٠) ، **نيوتن** (١٦٤٢ ـ ١٧٢٧) يتوج العلم الجبار في بساطته . التقنية تنتصر على السحر والعلم على الاسطورة .

٢ ـ الاكتشافات الكبرى

عصر النهضة هو عصر النهضة ، والاكتشافات الجغرافية الكبرى ، والاصلاح البروتستانتي وحروبه ، واختراع وانتشار الطباعة ، وبروز الامم ـ الدول والدول ـ الامم على اساس القومية ـ اللغوية وبالمونارشية الصاعدة الى الحكم المطلق ، وبدايات الاقتصاد الراسمالي على هذه الاسس وعلى اساس التاريخ الاجتماعي السابق . هذا العصر ، في تحقيب علم التاريخ ، يدشن حقبة « **الازمنة الحديثة** » للتاريخ الاوروبي والكوني ، التي تعقب حقبة العصور الوسطى (ق ٥ ـ ١٥) ، وتصل حتى ايامنا هذه او حتى الثورة الفرنسية (١٧٨٩) او الثورة الانكليزية (ق ١٧) : اصطلاحات في التحقيب مختلفة ولها جميعا مبرراتها ... **سنة ١٤٥٣** تتخذ عادة سنة الفصل بين حقبتي العصور الوسطى والازمنةالحديثة . ففي هذه السنة**سقطت القسطنطينية**على يد الاتراك العثمانيين، انتهت «امبراطورية روما الشرقية » الموروثة عن العصر القديم ، والتجأ علماء بيزنطية الى ايطاليا حاملين معهم اللغة اليونانية والتراث اليوناني القديم او بعضه فاسهموا اسهاما ملحوظا في حركة النهضة ؛ وفي الشرق المسلم تنتهي سيادة العرب (١٥١٦ ، ١٥١٧) التي تنتمي الى حقبة العصور الوسطى ، ويقيم **العثمانيون** امبراطورية على قارات ثلاث ، ستبقى قوة كبيرة ، في مد ، طارقة مرتين ابواب فينا عاصمة امبراطورية النمسا ، ثم في جزر وازمة لا دواء لها ، طيلة الازمنة الحديثة حتى اوائل القرن العشرين . من جهة اخرى سنة ١٤٥٣ هي ايضا سنة انتهاء **حرب المئة عام** ونيف التي اسفرت عن انتصار الفرنسيين على ملك انكلترة وانفصال الامتين وتبلور الدولتين القوميتين الغربيتين الكبريين . وفي ربع القرن التالي ، تتوطد فرنسا بفشل ومصرع **شارل الجسور** سيد بورغونيا وبلجيكا واللورين وتبخر الحلم اللوثارنجي الوسطوي العريق . لقد انتصر **المبدا الدولتي ـ القومي ـ اللغوي** على فكرة الدولة ـ الوسط بين الفرنسيين والالمان والطليان ، الدولة ـ الخليط من الناحية اللغوية والقومية ، انتصارا هو بمعنى ما انتصار علىاعتبارات « اقتصادية » ، اقتصادية مجردة عما عداها ، ووهمية .. لكن ، احيانا ، تتخذ **سنة ١٤٩٢** فاصلا بين حقبتي التاريخ الكبيرتين : فهي سنة **اكتشاف اميركا** على يد كريستوف كولومب اولا ، وثانيا سنة **سقوط غرناطة** العربية وتمام الدولة القومية الاسبانية الكاثوليكية والفاتحة . موعد اختراع **الطباعة** يدفع الاصطلاح التحقيبي نحو سنة ١٤٥٣ . هذه الامور الهامشية قرينة على ان الزمن ـ المفصلة غني بالتطورات والوقائع الحدية . انه زمن ازمة هائلة في الواقع والوعي سواء بسواء . هي ازمة نمو . كل التطورات تصب ، في النهاية ، على تكوين صورة اوروبا الحديثة . هذه التطورات « جملة » ، كل تام . حيث لا تتوقعن هذه الجملة ، التاريخ يراوح مكانه وان تقدم ، ثم ينتكس .

سنتناول بادىء بدء الاكتشافات الكبرى وعواقبها . ثم ننتقل الى الاصلاح وما رافقه وتبعه من احداث ونتائج .

مرتكزة على الفتوحات التقنية والعلمية الكبيرة المحققة في العصور الوسطى (المقود المحوري للسفينة ، البوصلة ، الخرائط ، « حساب النقطة » ، الكارافيل)، ومدفوعة بالدرجة الاولى بالرغبة في العثور والسيطرة على طريق بحري محض الى التوابل والسلع الثمينة الآتية من آسيا (ذهب ، حرير ، احجار كريمة) * ، تبدأ الحملات البحرية العملاقة على يد البرتغاليين سنة ١٤١٦ . المرحلة الاولى طويلة وشاقة ... اخيرا في سنة ١٤٨٧ ، يصل **بارتولوميو دياز** الى رأس العواصف ويعود . بعد عشر سنوات ، يسلك **فاسكو دو غاما** نفس الطريق ، بمحاذاة شاطىء افريقيا الغربي ، ويجتاز الرأس المذكور ، «رأس الرجاء الصالح»؛ يصعد على طول الشاطىء الشرقي حتى شاطىء زنجبار ، ويتابع ، يرشده ملاح عربي وتدفعه الريح الموسمية الجنوبية ـ الغربية ، وصولا الى ميناء كاليكوت في الهند (١٤٩٨) . ويشن البرتغاليون حربا لا هوادة فيها على منافسيهم العرب واهل البندقية ، وتنتقل السيادة البحرية الى البرتغاليين . **البوكرك** يستولي على الموانىء الهامة : عدن ، أورموز ، ملقة . معاونوه يصلون الى جزر الصند ثم الى ماكاو في الصين (١٥١٧) . كان **كابرال** قد اصاب شاطىء البرازيل بالصدفة سنة ١٥٠٠ . هكذا تكونت امبراطورية البرتغال المؤلفة فيما عدا البرازيل من قواعد حربية وقواعد تجارية . جزر الصند منذ اواخر القرن ١٦ تسقط في ايدي الهولنديين .

بعد البرتغاليين ، يأتي الاسبان . **كريستوف كولومب** (وهو ايطالي جنوي) ارادة الوصول الى بلاد الهند عن طريق الغرب : أليست الارض كروية ؟ عرض مشروعه على ملك البرتغال الذي رفض ، فتعامل مع ملكة اسبانيا ، ايزابلا . انطلق بثلاث سفن (كارافيل) فوصل بعد شهرين واسبوع الى احدى جزر بحر الكارايب القريبة من اميركا الشمالية (١٤٩٢) . وظل ، بعد رحلاته التالية الثلاث وحتى وفاته ، مؤمنا بانه وصل الى منطقة ما في جوار الهند . **ماجلان** ، وهو برتغالي في خدمة اسبانيا ، اثبت خطأ اعتقاد سلفه العظيم ، وحقق دون ان ينجزها شخصيا اول رحلة دوران حول العالم (١٥١٩ ــ ١٥٢٢) : سار بمحاذاة شاطىء افريقيا الغربي ثم انعطف وتقدم في عرض المحيط الاطلسي فوصل الى شاطىء البرازيل وسار بمحاذاته نحو الجنوب ثم عبر المضيق المعروف باسمه الى المحيط الهادي وتابع في اتجاه الشمال الغربي حتى جزر الفيليبين حيث لقي مصرعه ؛ وتابعت الحملة سيرها بقيادة احد معاونيه عبر المحيط الهندي ، جنوبا، الى رأس الرجاء الصالح وعادت الى اسبانيا . الرحلة استغرقت ثلاث سنوات . في اميركا بعد جزر الانتيل ، هجم الاسبانيون على القارة . لقد علموا من السكان الاصليين ، « الهنود » ، ان المعادن الثمينة التي يبحثون عنها موجودة « وراء ». دهشوا حين رأوا امبراطوريتين وحضارتين رائعتين : دولة الأزتيك في المكسيك،

* ـ تضاف الى هذا الدافع الاول الرغبة في الالتفاف على مسلمي المغرب والاندلس والالتقاء مع امبراطورية الاخ يوحنا المسيحية الافريقية الواسعة حسب التصور (مملكة الحبشة حسب الواقع) .

ودولة يحكمها الانكا مركزها البيرو . دمروهما ، نهبوا الذهب والفضة . **كورتيز** يفتح المكسيك (١٥١٩ – ١٥٢٢) ، **بيزار** يفتح البيرو (١٥٣٢ – ١٥٣٥) . ويرتكب الفاتحون جرائم مروعة . الاهالي يزجون في عمل المناجم ، يموتون بالملايين . في المنطقة الحارة يحل محلهم الزنوج الذين يستقدمهم الاسبان من افريقيا . هكذا تبدأ تجارة الرقيق الغربية الحديثة التي ستستمر ثلاثة قرون وتبلغ اوجها في القرن ١٨ ؛ عليها سيقوم ازدهار ليفربول ، نانت ، بوردو ، افريقيا تنزف الى ما لا نهاية . رغم اصوات الاستنكار في الغرب .

كان اولها صوت الاسقف **بارتولوميو دو لاس كازاس** (١٤٧٤ – ١٥٦٦) ، ابن اشبيلية واسبانيا الأعظم ، معاصر توماس مور واراسم ولوثر واينياس دو لويولا وغيرهم ، الذي يكشف الوقائع الاميركية باصرار لا يلين (حسب بعض المؤرخين : بالغ ، سود الصفحة اكثر من حقيقتها ، « كلامه غير معقول » و : اساء لبلده !) ، وينتهي الى الطعن بكلّ مبدأ الاستعمار – التمدين – نشر الرسالة (انتشال الهنود وغيرهم من عبادة الأوثان وتعريفهم بالاله الحق ... العادل الرحيم !) . هذا الاسقف الكاثوليكي الذي لقب بـ « أبو الهنود » هو ايضا اب لسلالة فكرية مهمة في تاريخ اوروبا الحديث والمعاصر : سلالة مناهضي الاستعمار . كلهم يغرفون من معينه الذي لا ينضب .

الامبراطورية الاسبانية اكبر امبراطورية استعمارية في القرن السادس عشر، واغناها (ذهب ، فضة) . تضم * قارة اميركا بدون البرازيل البرتغالي ، وبدون اميركا الشمالية : هنا يأتي الفرنسيون والانكليز ويستوطنون في مناطق الساحل الاطلسي اعتبارا من حوالي سنة ١٦٠٠ (تأسيس كيبك ، مركز كندا الفرنسية ، ١٦٠٨) ، يستوطنون ، يعمرون ، يستعمرون . اسبانيا تنظم امبراطوريتها الاميركية على اساس مبدأ الخضوع الدقيق واحتكار المتروبول للتجارة مع المستعمرات ، وعن طريق مرفأ واحد هو اشبيلية . الاسبانيون لا يطبقون الاستعمار بالمعنى الحقيقي الاصلي : استعمار – سكن – زراعة الخ ، انهم يحكمون، يأخذون الذهب والفضة ، يثرون ، يعودون . الثروة ! والثروة هي **المعدن الثمين** . هذا هو الموقف **المركانتيلي** في صفائه الاول ، في شكله التاريخي الاول ، الاسباني ان صح الوصف . الفرنسيون في كندا ، الانجلو سكسون في اميركا الشمالية ، الهولنديون في جنوبي افريقيا ، مستعمرون . الاتراك ليسوا مستعمرين الروس (ق ١٨) يستعمرون جنوبي روسيا بعد اخراج المحتلين الاتراك ، وسيبيريا الغربية ، وقبلهما شمالي وشرقي روسيا الاوروبية . الصينيون (ق ١٧ – ١٨) مستعمرون ، يستعمرون مناطق التلال في الصين الجنوبية والاراضي الفقيرة في بعض مناطق منشوريا وغيرها . الجرمان ثم السلاف وغيرهم فعلوا ذلك من قبل – في العصور الوسطى – في اوروبا الوسطى والشرقية . العصور الوسطى

---

* – عدا عن البلاد المخفضة، وعدا كون الاسبانيين يتعدون آنذاك فوق شواطىء المغرب والجزائر.

الغربية كانت بالاساس استعمارا . كل العمل الاساسي الجوهري للانسان منذ الوف السنين كان استعمارا . فلننزع عن الكلمات ، عن جميع الكلمات ، عن هذه الكلمة أيضا ، صفات الالوهية والشيطانية ، الجمال والقبح ، خارج السياق ، خارج التحديد ، خارج هدف الضرب ! هذا شرط اول اولي ابتدائي وبدائي جدا لاية معرفة غير مصوفة وغير مضيعة للعمل .

والمسألة ـ مسألة اسبانيا والآخرين ـ ليست بالاساس في اميركا ، بل هنا في اوروبا . اسبانيا الغنية القوية المرعبة لا تلبث ان تنكشف عن كونها متأخرة فقيرة وضعيفة رغم الذهب والفضة ، والاسطول الذي لا يقهر ، والامبراطورية التي لا تغرب عنها الشمس ، بل ورغم كونها مونارشية قومية .

العواقب التي ترتبت على الاكتشافات الكبرى كانت عديدة وحاسمة وبعيدة المدى ، اقتصاديا واجتماعيا وفكريا .

كانت النتيجة المباشرة تحول خطوط التجارة العالمية عن البحر المتوسط والشرق الادنى ، انحدار موانىء البحر المتوسط ، اثراء موانىء الأطلسي . وفي هذه الجملة سقوط مصر واشتداد طور الانحدار الطويل في تاريخ الامة العربية. الامبراطورية العثمانية الفتية والشديدة البأس، التي ضمت سوريا ومصر وطرابلس والجزائر وتونس ، كرها أو طوعا ، والتي ستصعد كقوة سياسية وحربية في القرن السادس عشر قاعدة في وسط اوروبا * ، والتي تزن بثقلها في ميزان سياسة دول القارة الاوروبية ، هي فاقدة من البداية هذا الامتياز الذي كان للعرب : الموقع الوسط في التجارة بين الشرق والغرب ، بل والشمال والجنوب ، في ما كان ، لمعايير وشروط العصر الآفل ، الاقتصاد العالمي . الآن الطريق الى التوابل هو راس الرجاء الصالح ، الدورة البحرية حول افريقيا ، بالنسبة للغرب، والآن ، اكثر فأكثر ، تظهر تجارة كبيرة بين اوروبا واميركا ، والمحيط الاطلسي يحتل مكان الصدارة بين البحار والمحيطات . هذا يفيد وقتيا اسبانيا والبرتغال وعلى مدى اطول قليلا فرنسا وهولندة وانكلترة . مركز التاريخ الكوني ، الذي يصير اكثر بكثير من ذي قبل التاريخ الكوني ، اتساعا وعمقا ، ينتقل الى اوروبا الغربية ـ الشمالية . عصر النهضة والاكتشافات والاصلاح البروتستانتي والاقتصاد الراسمالي البادىء يحقق هذا الانتقال بشكل متوتر ومكثف. هذا **اولا**.

ثانيا . تدفق الذهب والفضة على اوروبا من ناتج المناجم وايضا من نهب القصور والمعابد والتماثيل ، ادى الى ارتفاع هائل للاسعار والى غلاء المعيشة وافقار ملايين من الناس ولا سيما الفلاحين . هذا المعدن الثمين جاء الى ايدي التجار والصناعيين ورجال المصارف ، مما دفع نمو البرجوازية وتكونها الراسمالي الحديث خطوة كبيرة الى الامام * . والتضخم النقدي لعب دوره « الطبيعي »

* ـ متسببة في تأخر المجر ومعيقة انزياح بؤرة التقدم الى الشرق ـ الى البلقان .

* ـ الراسمالية تنطلق . لها مقدمات وشروط سابقة ، لها مدن ونمو برجوازي حقيقي ودول قومية . لكن الاكتشافات انقلاب ، الاقتصاد الراسمالي ينطلق .

– لأول مرة وعلى نطاق لا مثيل له – كأداة لاعادة توزع الدخل القومي بين السكان : كل الناس ، طبقات وفئات وافراداً ، اثروا او افقروا ، سرقوا او سرقـوا . الغالبية افقرت ، خسرت . الناس لم يخسروا « شيئا » ، مادة ، ثقلا ، محسوسا ، مفرداً ، نقودا رنانة ، كما ماهويا ماديا معدنيا ؛ خسروا شكلا ، روحا ، علاقة ، واقعا ، قيمة ، ماهية حقيقية . حيث ليس ثمة « تعويض » من عمل وتقـدم ، البشر هبطوا ومعهم الوطن والدولة . العقال من الحكام المسؤولين والمفكـرين الحقيقيين ما لبثوا ان شعروا وادركوا ان مستقبل الامة يتوقف على امور اخرى ، على العمل ، على الانتاج ، ادركوا « ان فلح الارض وتربية الماشية هما الثديان اللذان يطعمان فرنسا ، هما مناجم ذهب البيرو الحقيقية » ، على حد قول مأثور لوزير فرنسي « شعبي » ، هو سولي Sully البروتستانتي وزير هنـري الرابع منهي حروب الدين (حوالي سنة ١٦٠٠) . غير ان **المركانتيلية** عاشت ، عاشت بعد زمنها الاول ، استمرت بعد تحولها من سياسة النهب الابسط للمعدن المعبود الى سياسة تجارة « صادرات – واردات » مونوبولية مع تشجيع الصناعة شبه الحكومية في نوع من اقتصاد دولتي – رأسمالي خاص ، او اذا شئتم في ضرب اول من « اشتراكية » . والانكليز كانوا الاسرع تكيفا مع متطلبات التقدم الحقيقي المتكامل ، في مسيرة مراحلية تلقائية وداعية . والانكليز سوف ينجبون آدم سميث ، بينمـا فرنسـا قبلهـم بقليـل انجبـت الفيزيوقراطية (ق ١٨) . **الفيزيوقراطية** (حكم الطبيعة او مذهب الطبيعة) ترد الاعتبار في المستوى النظري الاعلى للزراعة ، اذن للشغل الزراعي ؛ **آدم سميث** يجرد الشغل كمحض فاعليـة ذاتية للانسان ، وعلى هذا الاساس من تجريد كلي و « تذويت » يبني علم الاقتصاد السياسي البرجوازي العظيم – العثمانيون كانوا في حالة واقعية أسوأ من حالة الاسبان : ليست مناجم البيرو في حوزتهم ، لكن ناتجها يأتي اليهم ايضا ، ويفعـل فيهم وفينا مفاعيله الملائكية الشيطانية بلا شيء من تعويض : غلاء الاسعار ، تدهور احوال الشعب المنتج والانتاج ، وتدهور القيمة الحقيقية لمال الخزانة التـي لا تشبع ، ومضاعفة الاتاوة المفروضة على شعب المنتجين من قبل الخزينة ، الولاة – الجباة ، اي من قبل « فرع النهب في الداخل » في دولة « الاستبداد الشرقي » ، وتعطل او تلكؤ « فرع الاشغال العامة » ، مع ضعف او عدم جدوى نشاط الفرع الثالث والاخير : نهب الخارج اي وزارة الحرب . اخيرا يختلط الداخل والخارج ، الداخل يميل الى الخروج ، حفظه يقع على عاتق فرع نهب الخارج ! من حوالي سنة ١٥٠٠ الى حوالي سنة ١٨٠٠ ، تنحدر مصر وبلاد الشام انحدارا مخيفـا . بالطبع : المعدن الثمين والعثمانية التركية العربية وضياع الموقع الوسط ، هـذا كله كان ايضا ، اضافة الى اهميته بذاته ، كاشفا ومفجرا لعيوب ونقائص حالة عربية – شرقية – اسلامية سابقة .

ثالثا . في المجال الفكري والثقافي ، ادت الاكتشافات الكبرى الى توسع عظيم لكل المعرفة الانسانية . انكشف للناس عدد لا يحصى من اشياء جديدة ، اراض وبحار ، قارات ومحيطات ، نجوم واجواء ورياح ومناخات ، اجناس بشرية ،

حيوانات ، نباتات الخ ، مما حفز الاستطلاع والفضول العلمي وقلب النظريات والمعتقدات القديمة رأسا على عقب . الامر الذي التقى بالتمام وبشكل مباشر مع حركة النهضة ، مع النزوع الجوهري لهذه الحركة الثقافية العريقة ـ هذا الوجه للامور لم يصبنا ، وعلى الارجح لم يلامسنا ؛ ربما لم يعد عندنا آنذاك اناس يعتقدون ان الارض كروية ـ كما التقى ايضا مع تكون الامم والدول الحديثة : « الرحلات » حملات ، حملات تنظمها الدول : اسبانيا ، البرتغال ، فرنسا ، هولندة ، انكلترة ، الدانمارك الخ ؛ في وقت لاحق ، ستكون هناك حملات علمية، حملات استكشاف في البحار ووراء البحار ، في مجاهل القارات ، في اعماق سيبيريا ؛ في هذه الحيثية ، روسيا القرنين ١٧ و ١٨ ولا سيما روسيا كاترين الثانية ، اوروبية تماما ، وفي الطليعة . والتقى اخيرا مع التطور الاقتصادي البرجوازي الرأسمالي . لنقل باختصار انه جزء من روح الفتح التي تميز العصر كله الذي يدشن اوروبا الحديثة ، والتي تتجلى في اشكال وهيئات مختلفة . هؤلاء القادة الملاحون الذين توغلوا في محيطات المجهول وجابهوا الامواج العاتية وقوى الطبيعة المنفلتة كان بامكانهم ان ينشدوا مع لوثر وقبله « الله ونفسي » ، او « ربنا حصن امين » ، مارسييز القرن السادس عشر ، حسب تعبير انجلز .

هذا الاثر الثالث يمكن ان نميز فيه وجهين : اولهما ان مسيرة نشوء وتكون المعرفة العلمية الوضعية الايجابية غير الخيالية ، الحديثة ، بما فيها سيرورة تفرع شجرة العلم وتخصص العمل العلمي المعرفي ، دفعت خطوة حاسمة الى الامام . وهي تبدأ اساسا بعملية جرد الوقائع ، الكائن ، الدنيا ، الموجود ، تبدأ بالفهرسة، بالتصنيف ... وبينما الثورة الكوبرنيكية الفلكية ـ وهنا انتقل الى الوجه الثاني ـ تنسف التمركز الهاذي على الكرة الارضية وطن الانسان ، فان هذه الثورة الكوبرنيكية الاخرى ، الارضية ، تنسف ، في الوعي المتقدم ، التمركز الهاذي على الاقليم الصغير : اوروبا او اوروبا والعرب ـ الترك ـ المور Maures الكوبرنيكية منظومة ذهنية شاملة ، نمط فكري كلي . وضوحا ، العالم ليس عالم « المؤمنين» و « الكفار » وحدهم ؛ بل هو ايضا عالم « الوثنيين » ، ربما الصين اكبر من مجموع اوروبا بأممها المتطاحنة ؛ ربما الصينيون واليابانيون واهل الهند والسند وسود افريقيا وهنود الغرب اكثر عددا بكثير من مجموع الكاثوليك و « الهراطقة» و « المنشقين » وطوائف « الكفار » الذين رفضوا الايمان المسيحي اصلا وتوسعوا، من يوم ظهور دينهم قبل تسعة قرون حتى يوم ضياع القسطنطينية واستعادة غرناطة وبعده ، على حساب المسيحية، مضافا اليهم اولئك الذين «صلبوا المسيح» والاحياء في كنف هؤلاء وهؤلاء . مقولة « الوثنيين » والمقولات « الدينية » الاخرى تهتز في وعي المتقدمين ، ملوكا ، مفكرين ، اساقفة ، مبشرين ، مثقفين . القرن السادس عشر ليس سوى بداية . لكنه بداية ، البداية الجذرية ، القوية ، الضاربة في الارض والشامخة الى السماء. ـ ذكرنا نقولا دو كوزا ، التصوف، الايزوتيرية، الفلسفة ... اليسوعيون في الصين سوف يتكيفون مع الصين ويكيفون المسيحية مع العبادة الصينية ـ ان هذا النزع للتمركز « البطليموسي » على الاقليم والذات

شرط للكلية ، للكونية ، للموضوعية ، للتقدم اللامحدود ، وبالتالي وعلى اساس هذه الموضوعية ذاتها ، شرط لتفوق اوروبا وسيادتها على عالم العوالم الارضي ولصيرها الفعلي المتعاظم مركز التاريخ الكوني . العثمانيون ، في القرن السادس عشر وبعده ، مؤمنون بالتمام والكمال بتفوقهم على اوروبا الكفر والبربرية ؛ هذا بحد ذاته ، هذا وحده ، نقطة ضعف وسقوط وهلاك . الاوروبيون ، وهم من الآن في القرن ١٦ متفوقون ، يشعرون بنقص ، بحاجة ، بعوز ، بفقر ، بحاجة الى شيء آخر . هكذا كانت الحال في اليونان القديمة . بل وهكذا كانت الحال في اوروبا المسيحية الغربية، على الاقل لان الغرب كان يرى تفوق العرب الحضاري والثقافي ويبهر بالشرق المتمدن . وهكذا الحال خصوصا في زمن النهضة ، وهكذا ستكون في القرن الثامن عشر ، عند عتبة الثورة الفرنسية والثورة الصناعية . بالمقابل ، الشرقيون بوجه عام — فيما عدا بعض الفواصل او الفصول من اهمها طور الصعود العربي * — مكتفون جوهريا ، لا يشعرون بفقر ، بعوز ، بحاجة الى شخص آخر ، الى شيء آخر ، الى غير وتغير. انهم اغنياء ، مستغنون. انهم في الهوية ، اللافرقية واللاتناقضية ، وفي السرمدية . أوروبيو القرن الثامن عشر سيخترعون نظرية « المتوحش الطيب » . وهم من الآن يسلطون النقد على الذات . الشرقيون غارقون في الذات ، يرون تفوق الغرب ولا يرون ، يصدقون ولا يصدقون . ترجمة لفويرباخ، تعريبا للغة فويرباخ **شعبيا** وترجمة لها الى وجهة نظر التاريخ ومصائر الانسان اضيف : من ليس عنده حاجة ليس عنده « حاجة»، من ليس عنده آخر وغير ليس عنده ذات ، وحده الكائن المعوز والمعتل هو الكائن الحق ؛ وهيغليا : وحده الصائر كائن ! النهضة والاكتشافات الكبرى تطرح مسائل الانسان كبشرية ، الاكتشافات الجغرافية وتوابعها الاستعمارية والبربرية تطرح مسائل العالم كمسكونة ومسائل المسكونة كعالم مليء : **بارتولوميو دو لاس كازاس** مثال كبير جدا في بساطته الدينية والعقلية ، في بساطته كوجدان ووعي . الانسان مسكونة مبسوطة ، تقول الاكتشافات الجغرافية . **لوثر** يضرب ضربة اخرى ، **في العمق** .

٣ — الاصلاح والامم

القرون الوسطى الاخيرة (ق ١٢ — ١٥) عرفت حركات دينية اخرى ، « هرطقات » هي ، من بعض الحيثيات ، او لنقل في حيثية اليسار والسياسة والكدحاء ، أكثر ثورية من لوثر والبروتستانتية كلها . لوثر يقف مع الاراء ، على راس الامراء ضد الفلاحين الثائرين في حرب مكشوفة ، مستمطرا عليهم لعنات السماء وسكاكين الارض . والبروتستانتية ، في زمن لاحق وحاسم ، في عدد من البلدان او ربما في معظم بلدانها ، تتخذ شكلا برجوازيا صارما وتافها او حقيرا

* — مضافا اليه ابن خلدون (ق ١٤) كاشف المأساة ، واكبر ناقد للذات من بدو واهل مدن ، ومؤسس علم التاريخ ، ومتلمس سوسيولوجية الدين — الواقع .

من بعض النواحي المهمة ؛ لسانها : فقر الفقراء ، عدم نجاحهم في الدنيا – دنيا الاعمال business – دليل على انهم من غير المختارين المصطفين ، وغنى الاغنياء بالعكس ! لا رحمة ولا شفقة ولا مسيحية أنجيلية ولا مسيحية بدء واصل وسلف صالح ولا من يحزنون ؛ – ولا صدقة ومحبة احسان ... ان هرطقات القرون الوسطى جميعا بعيدة عن هذا الموقف البرجوازي الذميم . وهي هرطقات متنوعة في طابعها وتكوينها الاجتماعي واتجاهاتها . كلها تحمل طابع تمرد على الواقع الكائن ، بلباس ديني هو ايديولوجيتها الوحيدة الشاملة وحافزها الجبار . بعضها « رجعي » مبدئيا ، يعبر عن ميول رعوان وفلاحي جبال الآلب وعن تصميمهم على المحافظة على العلاقات الابوية البطريكية ضد الاقطاعية الآتية الصاعدة وكنيستها . بعضها « شاذ » في خط التطور الغربي الاوروبي ، هذا ما يمكن قوله ؛ لكن يجب القول ايضا : خط التطور الاوروبي – الغربي ليس معطى مطلقا ، مجردا ومعزولا ، انه ابن التاريخ العام الكوني – العياني وطبيعة الاشياء ، وهو محاط بالعالم ، يأخذ من هذا العالم « الخارجي » موادا ضخمة وعناصر مهمة ، لا سيما من « الشرق » القريب ، وبشكل خاص عند منعطفات التاريخ الكوني ومفصلات « خط التطور الغربي » . بعضها ، بل معظمها لعب على نحو ما دورا تقدميا ، من وجهة نظر التاريخ ، صب في خط التطور المذكور ، المتنوع الروافد ، المتناقض والمتكامل الاتجاهات ، والمنتهي الى مجتمع مدني – برجوازي . وبعضها الاخير والكبير (جان هوس Huss وانصاره التالون) لعب دور سلف مباشر للاصلاح اللوثري والبروتستانتي . وبالطبع ، جميعها لها طابع ما من تصوف ، طابع سوف يكون كل مصلحي القرن السادس عشر تحت تأثيره . معظمها مسيحي ، وجميعها ذات صلة بالمسيحية ، وان كان معظمها يبتعد عن العقيدة المسيحية القائمة والتاريخية. وجميعها لها طابع هجوم قوي على الكنيسة – المؤسسة والايديولوجيا ، الكنيسة السيدة والسيادية ، حاملة مفاتيح السماء وعلى الاقل بعض مفاتيح الارض ، في المجتمع الاقطاعي الفيدرالي الغربي – حيث لا يوجد خليفة امير للمؤمنين بل يوجد بابا وامبراطور – ، وهو المجتمع الذي تعترض عليه الهرطقات وترفضه .

ثمة خطآن يجب تفاديهما في تقييم تلك الثورات الوسطوية . الخطأ الاول : بما انها ثورات ، بما انها موجهة ضد الاقطاعية والكنيسة ، ان نضفي عليها طابع الثورة والتقدمية ، وكأن الاقطاعية والكنيسة هما الشر المطلق القاعد خارج التاريخ . ذلك موقف ينفي ، من العتبة ، التاريخية والجدلية والمادية ، او المادية الجدلية والتاريخية ، معا على حد سواء . الخطأ الثاني : ان نعتبر كل فكرة عودة او رجوع رجعية . هذا خصي للجدل الذي يفترض ويتضمن ويقتضي فكرة العودة والرجوع الى بدء ، خصي للجدل يحوله الى تطورية غير جدلية (موقف عدا ذلك يمكن ان يلتقي مع الخطأ السابق في تصور طيراني) . حين تطرح بعض هرطقات العصور الوسطى الغربية شعارا من نوع « حين كان آدم يركش وكانت حواء تغزل أين كان النبيل ؟ » ، فان هذا الشعار ليس ، بالضرورة ، وفي حكم الموضوعية والتاريخ ، رجعيا . يمكن ان يكون كذلك ، ويمكن ان يكون بالعكس ،

ويمكن ان يكون الاثنين معا ، بحسب السياق والجملة ومرحلة البسط . فهو يرفع فكرة الشغل ضد النبالة والفروسية والشاعرية وما شابه من قيم العصور الوسطى ، يرفع فكرة الشغل التي هي انسانية برجوازية * .

ان هرطقات العصور الوسطى ، في حيثية اليسار والسياسة والفقراء ، بمزدوجين أو بدونهما، أكثر ثورية، واحيانابكثير من لوثر واللوثرية والبروتستاتنتية. ولكنها بوجه الاجمال ليست اكثر تقدمية. بتعبير آخر: «تقدمية» حاكمة على «ثورية» و « ثورة » ، في منظور العقل . لسوء الحظ ، لا يبدو اليسار عندنا آخذا قياس هذا الحكم ! وآخذا وعي حقيقة ان تاريخنا مليء بـ « الثورات » ، ليس بالتقدم . البروتستانتية عموما ، بل اللوثرية اولا ، هي التقدمية وهي الثورية من وجهة نظر الجدوى التاريخية . وهي تختلف جوهريا عن كل ما سبقها .

لنقل مباشرة ان اللوثرية ـ البروتستانتية ـ الكالفينية ، بعكس كل « البروتستاتنيات » (= الاحتجاجات) التي سبقتها ، انتصرت . امتدت في مد كاسح ، شملت شعوبا وامما ، طبعت شعوبها وطوائفها وأفرادها ، عاشت حياة مديدة ، هي حياة أي حركة وتغير وتنوع منقطع النظير ، تنوع معلوم ومنظور، علاني. صارت حاكمة . انتصارها الكاسح تحقق من البداية ، وكأن الناس والتاريخ على موعد . ملابسات ؟ ملابسات متنوعة ، سياسية ، أميرية ، دولتية ، قومية ، ظروف ، أسباب ، عوامل مختلفة غير دينية وغير شعبية ، ساعدت هذا النصر ، وقعنت هذا النصر ؟ لا ريب . لكن بالضبط : وكأن التاريخ على موعد ! التاريخ بمعطياته ومضامينه . هذا أولا . وثانيا ، رغم جميع الملابسات ، فان دعوة لوثر ثم كالفن « سرت بين الناس سريان النار في الهشيم » ، على الاقل في أوروبا الغربية ـ الشمالية ، شمال الآلب وشمال البيرينه . اكتسبت ، من اللحظة الاولى ، طابعا أوروبيا غربيا عاما ، وقوميا متعدد الطبقات ـ في المانيا وفرنسا وانكلتره وبلجيكا وهولنده وسويسره والمجر والنمسا وسكوتلنده وسكاندينافيا ، في بلدان متقدمة وبلدان متأخرة ... أجل ، هذا الطابع المزدوج نجده ، من قبل ، في هرطقات القرون الوسطى ، بدرجة واخرى ، بشكل واخر ، لكن على نحو محدود ، أو محدود جدا اذا ما قورن بواقع « الهرطقة » الجديدة . وهذا النمو يعبر عن نمو اوروبا كوحدة ، وعن نمو أممها وطبقاتهن ، سواء بسواء . والبروتستاتنتية في هذا تلتقي مع حركة النهضة بحصر المعنى ومع العصر كله . جملة هذا العصر نمو ثوري لجملة العصر السابق . ولنقل ، بصدد حركة النهضة وحركة الاصلاح ، ان الثانية أضخم بكثير من الاولى ، أضخم شعبيا ، ان الاولى تصيب بشكل مباشر الثقافة والمثقفين والمتعلمين (وهم قلة وان قفزت في الحجم والفعل) بينما الثانية تصيب الشعب ، الجمهور ، تخض أعماق المجتمع ، كل المجتمع ، بدءا من المثقفين فرسان النهضة

* والتاريخ صراعي وتناقضي ومتناقض ، حامل احتمالات وامكان انتكاسات كبيرة ، وهو دراما ومأساة . الوجه المأساوي للتقدم لفت نظر ماركس وانجلز ...

والانسانوية : انها دين . الاولى فنون وآداب وعلوم وفلسفة ، الثانية دين ؛ دين في زمن ما زال تحت هيمنة الدين : نيف و ٩٥٪ من الناس يؤمنون بهذا الدين بالمعنى التقليدي تماما ، يؤمنون بأن هناك جنة تنتظرهم فوق أو جهنما في مكان آخر ؛ ونيف و ٩٥٪ من فكر المفكرين والفلاسفة الاحرار يجري على قاعدة مسألية دينية ؛ كل الميادين مربوطة بالدين . البروتستانتية دين ، ودين يطبع الثقافة ويحررها ؛ بصمت ، بهدوء ، ببطء ، بفعل طويل ، لكن يحررها . يحررها أولا وأخيرا بضربه السلطة في الدين ، السلطة الخارجية ، الانسانية ــ العليا ، بتأكيده الجوانية ، مبدأ الوجدان . الفلسفة الالمانية ، الفلسفة الكلاسيكية الالمانية ، بنت لوثر ، بنت لوثر ــ و ــ المسيحية ، بين امور اخرى ، ونوعا ما على راس أمور أخرى بنت موسيقا باخ بنت لوثر ، لوثر والمسيحية ، « النشيد » اللوثري (Choral) والفوتية Gothique والكاثوليكية ، بنت الوجدان والنظام والعمارة . وآدم سميث السكوتلندي « لوثر الاقتصادي السياسي » (انجلز الشاب) . ولنقل اخيرا ، بصدد هذه اللوثرية ــ البروتستانتية والاحتجاجات ــ الثورات ــ الهرطقات التي سبقتها، ان هذا الاحتجاج الاخير في المسيحية ، والأشد قوة وعمقا وعنفا في المسيحية كايمان وعقيدة ، هو في المسيحية ، داخل المسيحية كايمان وعقيدة ، كدين ولاهوت وسيكولوجية . ولهذا السبب ، يبدو اشد قوة وعمقا وعنفا ، لهذا السبب هو أكثر انتشارا وأكثر شعبية . انه أكثر انتماء للمسيحية ، وأكثر انتماء لاوروبا وتطورها، وأكثر فعلا في خط تطورها الغربي ، مركز التاريخ الكوني .

كانت الكنيسة في طور انحطاطها . بعد أن لعبت دورا ايجابيا كبيرا في خروج اوروبا الطويل الشاق من البربرية الى المنظومة الاقطاعية ومعها المدن ، دور تنظيم و « تثقيف » ــ حسب هيغل : بكرباج القناة وكرباج الكنيسة تعلم الاوروبيون الشغل ؛ وتعلموه جيدا * ــ ، كانت الكنيسة قد دخلت في ازمة مديدة وفقدت قسما كبيرا من هيبتها وسلطتها . الجامعة الكاثوليكية الرومانية ذات الراسين ــ بابا وامبراطور ــ تتداعى بنشوء الامم وصعود الممالك القومية في الغرب ــ الأقصى : انكلتره لا تخلق مشاكل ، انها مطيعة وبعيدة ، مبدئيا ؛ قشتالة ــ اسبانيا غارقة في حرب « الاستعادة » والكنيسة معها ؛ فرنسا « البنت البكر للكنيسة » وجلالة « ملكها المسيحي ــ جدا » مصدر مشاكل مؤذية . الملك فيليب الجميل (حوالي سنة ١٣٠٠) ، وهو بعد فيليب ــ أوغست أهم بناة المملكة القومية ، ملك قومي برجوازي الاتجاه في الحقوق والتشريع وفاقد لأية روادع خلقية ، يطعن الكرسي الرسولي ، يعتدي رجاله على شخص البابا العجوز متسببين في وفاة هذا الشيخ العنيد والآمر المتكبر (١٣٠٣) ؛ ثم ينصب بابا جديد ، فرنسي وعميل لملك فرنسا ، ينتخب في سنة ١٣٠٥ ، « يغطي » بعض أعمال ولي نعمته لا سيما ابادة

* ــ الرهبنات شيء كبير جدا . كلمة « رهبنات » لا تفي بالمعنى : ordres religieux انظمة ، نظامات ، أجسام مُبَنْيَنة . انها جزء هام وحيوي في اوروبا العصور الوسطى .

رهبنة فرسان الهيكل (اعدام حرقا بعد محاكمة طويلة) والسطو على اموالها الطائلة، بعد أن جاء ليقيم في مدينة آفينيون Avignon التي صارت مقرا رسميا للكرسي البطرسي بدلا من روما مدة سبعين سنة (١٣٠٩ - ١٣٧٦) . ومن ١٣٧٨ الى ١٤٢٩ ، أي مدة خمسين سنة ، يقع ما يدعىٰ ب « انشقاق الغرب » أو « الانشقاق الكبير » : بابوان - وأحيانا ثلاثة - في آن واحد ، أحدهما في آفينيون ... هذا **اولا . ثانيا** ، الهرطقات وحمامات الدم التي انهتها ، محاطب العصور الوسطى الاخيرة ، تركت وتترك اثرها في النفوس في مناطق عديدة * ... **ثالثا** ، الكنيسة تراجعت أمام الفلسفة ، بل « عمدت » ارسطو ، أدخلته في العقيدة الفلسفية الرسمية : هكذا التومائية ، مذهب القديس توما الأكويني (ق ١٣) . ومع أن هذا الموقف كان تقدما أكيدا يسوغ العقل - العقل والخبرة والواقع الخارجي الموجود والمحسوس والمدرك - وان تحت جناح الايمان والكتاب واللاهوت ، فان الفلسفة - لهذا السبب الأخير - لم ترض به ؛ ولم ترض به كل النفوس المؤمنة (أفلاطون اقرب منالا من ارسطو ، للاهوت ، ظاهرا على الاقل) : سيجر دو برابان ، مدرسة بادوا ، ريمون لول ، أوكام ، سيد اكهارت ، نقولا دو كوزا ، هم على أحد هذين الخطين ، أو ، على كليهما معا (فلسفة - و - ايمان في وحدة توفيقية أو غير توفيقية) . لوثر سيكون تحت تأثير **غيوم أوكام** الاسماني (ق ١٤) « الدكتور الذي لا يقهر » ، « الدكتور الوحيد » ، الانكليزي تلميذ دنس سكوت في باريس ، والمقاتل الضاري ضد البابا وسلطة البابوات ، وتحت تأثير **سيد اكهارت** والتصوف المسيحي الواسع الانتشار في المانيا وادي الراين ...

أخيرا ، جاء زمن النهضة والانسانوية والطباعة : اراسم من روتردام يصدر **النص اليوناني** للاناجيل ، وكتابه **مدح الجنون** وهو هجاء لاذع لكنيسة زمنه . « قصص الخوارنة » كانت معروفة جيدا عند قراء « ديكامرون » بوكاسيو Boccace (وهو خليفة بترارك في تاريخ نهضة الادب الايطالية) ، وعند الذين لا يقرؤون . الانسانويون يقلبون التعليم (الجامعي) في اتجاه حرية البحث . طبعات الكتاب المقدس تتواتر ، خصوصا في المانيا . ومطابقة النص اليوناني والنص اللاتيني تذهب ضد « السلطة » ، وضد عملية سحب الروح - القدس من فوق رؤوس الانجيليين الاربعة الى فوق رأس المترجم اللاتيني القديس جيروم الذي عاش حوالي سنة ٤٠٠ ، وضد كل عملية الرفع الى فوق (الاناجيل كتبها اربعة آدميين وان كانوا مسلحين بالوحي) التي درجت عليها الكنيسة بشكل طبيعي في أزمنة الظلام والبربرية وما زالت عليها في زمن النهضة ... بابوات زمن النهضة (اسكندر السادس بورجيا ، جيوليو الثاني ، ليون العاشر : ١٤٩٢ - ١٥٢١) أمراء طليان نهضويون غارقون في الفن والادب أو في السياسة والحرب ، أو في الاثنين وفي حياة اللهو والبذخ ؛ الاول مشهور باسمه وكنيته ، بحياته الخاصة وحروبه ومكره وعطاءاته السخية لافراد عائلته ؛ الثالث مهتم بتشييد كنيسة القديس بطرس ، تمثال

---

* - هيئة التفتيش بدأت عملها في اوائل ق ١٣ ضد هرطقة الألبيجوا والاطهار المانوية ، وظلت تعمل ضد اعداء متنوعين حتى بعد سنة ١٦٠٠ .

السلطة والهيبة . والكنيسة من فوق الى تحت في حالة ارتخاء خلقي عام ؛ المناصب تباع للذي يدفع أكثر ؛ الاكليروس يسترسل في الممارسات الخارجية للعبادة ، من حج الى إماكن مقدسة لم تعد تحصى، وغفرانات، واحتفالات ومواكب دينية متنوعة، تتحول الى عمليات مالية مثمرة . قراء الاناجيل يتساءلون : اهذه كنيسة المسيح ؟ (مسألة فقر المسيح وفقر اتباع القديس فرانسيس شغلت أوكام وزمنه) . ولسان بعض اللاهوتيين (و ٩٠٪ من المفكرين والفلاسفة لاهوتيون) : هذه « الكنيسة الظاهرة » ابتعدت كثيرا عن « الكنيسة الحقيقية أو الواقعية réelle » ، جامعة الايمان الحق ، روح الله وجسد المسيح الحي ، حسب بولس الرسول . حسب لوثر ، منتسر ، هوتن ، ميلانكتون ، كالفن ، وعشرات الآخرين ، انها الفسق بعينه، انها روما الفاسقة ، سودوما الرومية . فكرة الاصلاح في الجو ، انها مطلب عام ، في أوروبا زمن النهضة ، مطلب عام وان كان هناك اختلاف وخلاف على السبل والاشكال . الكنيسة لم تستجب لمطلب التاريخ . الانشقاق يقع . بشكل حاد ، مفاجيء ، جذري وعارم . هذا الشكل يختلف كثيرا عن « انشقاق الشرق » الذي كان مسيرة طويلة (ق ٩ – ١١) بين عالمين مختلفين متباعدين ، وكان بنسبة تسعة اعشاره قضية « سياسية » بين بيزنطية – الشرق – الامبراطور وروما – البابا – الغرب ، في زمن وسطوي تماما ؛ كان ان صح التعبير امضاء على واقع تلقائي .

مارتين لوثر Luther (١٤٨٣ – ١٥٤٦) ، راهب اوغسطيني ، أستاذ لاهوت ، في عمر النضج والثورة والهداية . تقواه الحامية والقلقة تثور أمام مشهد بيع لصكوك غفران : الكنيسة حاملة مفاتيح السماء فتحت بنكا هنا – تحت ؛ خليفة بطرس الرسول يريد أن يبني له كنيسة في الدنيا الفانية تليق بدار البقاء ... لوثر يعلن على الملأ ان الغفرانات معاكسة للكتاب (١٥١٧) ، يلقى عليه الحزم ، يطرد خارج الكنيسة ، سفينة نوح التي لا نجاة خارجها (١٥٢٠) . لوثر يضع مذهبه : الانجيل هو القانون الوحيد ؛ الخلاص يأتي بالايمان ، لا بالاعمال – الممارسات الخارجية ؛ ثلاثة اسرار – مقدسات عمادة ، مناولة أو مشاركة ، توبة) بدلا من سبعة في

الكاثوليكية (عمادة ، تثبيت ، مناولة ، توبة ، مسحة ما قبل الوفاة ، رهبنة ، زواج) ؛ الطقس العبادي يبسط ، الصلوات تتلى بلغة أهل البلد (لا باللاتينية) ، الصور تحذف من الكنائس ؛ وزراء العبادة (أي خادمو العبادة ، الكهنة) يمكن أن يتزوجوا . – لوثر يترجم الكتاب – المقدس الى الالمانية ، « يطهر اسطبلات اللغة الالمانية عدا عن تطهيره اسطبلات الكنيسة » (انجلز) ، يؤسس اللغة الشعبية – الادبية القومية لجميع الالمان – وهذا عمل من صميم عصر النهضة في مختلف البلدان – ؛ يطور الموسيقا الدينية ، يضع « النشيد » المعروف باسمه ، الكورال (le choral) اللوثري ولا سيما أناشيد : ربنا حصن أمين ، الله ونفسي ، الله مات (الله نفسه مات : المسيح) . على هذا الخط ، سوف يكون باخ ، و هيغل ،

الموسيقى الكلاسيكية الالمانية في اساسها (ولا بيتهوفن بلا باخ) ،. والفلسفة الكلاسيكية الالمانية في ذروتها وخاتمتها . الرسم يموت في المانيا ، لكن يبلغ ذروته في هولنده (ق ١٧) .

لوثر قام بعملية تذويت قطعية . هذا جوهره . الغى الكاهن الخارجي ، « دخل » الكاهن جوانيا ، جعل كل انسان كاهنا أو راهبا (وهذا أمر مرعب) رقيبا على نفسه . وكل موقفه ضد الاعمال ـ الممارسات الخارجية وحساب الاعمال الكاثوليكي في الميزان وضد الصور في الكنائس مرتبط بهذا الموقف الجوهري : الجوانية ، بهذه البذرة ـ النواة الذاهبة ضد جماعية وجمعية وقطيعية «الجماعة»، البذرة التي هي أيضا موقف المسيحية الاولى : روما الاخيرة ، أفول الرق ، عالم الامبراطورية وأفوله ، انبساط الاقتصاد السلعي « البرجوازي » ، الرواقية ، أوغسطين ، البذرة التي لا غنى عنها لاقامة مجتمع مدني هو مرحلة ضرورية في التاريخ الكوني ـ بسط الانسان . ولوثر أجرى تطويرا مهما على مفهوم « الدعوة » ، « النداء » ، Vocation , Beruf . حسب رأيه : ليس الكهنوت ـ الرهبنة ـ خدمة العبادة هي أو هي وحدها « دعوة » ، بل العمل ، المهنة ، الحرفة . اذن الشغل مأخوذا بوصفه **حياة فرد** في مجتمع أعمال ـ مهن .

رغم كون لوثر أيد الامراء وقادهم ضد الفلاحين (والامراء قمة الاقطاعية) ، انجلز لا يفتأ يسميه مصلحا **برجوازيا** . في اختزاله لسيرة « حرب الفلاحين في المانيا » يقول انجلز : الجناح الاصلاحي البرجوازي (لوثر) في الثورة البرجوازية الالمانية الاولى تغلب على الجناح الثوري العوامي (منتسر) ، وانتصرت بالنتيجة الاميرية والاقطاعية والقنانة والتجزؤ القومي على الثورة البرجوازية برمتها وعلى الحرية كلها وعلى الوحدة القومية (انجلز يشدد كثيرا على التجزؤ والوحدة . هذا اللحن القومي يسيطر على بداية وخاتمة بحثه) . بالطبع هذا كله ـ بثرائه الكبير ـ لا يستنفد القضية والمسائل . في كتابات أخرى ، ماركس وانجلز أعطيانا أضواء كاشفة للطريق ، فلسفية وتاريخية وسياسية : تجريد ، انسان ، فرد ، أمة .

عملية **لوثر** (١٥٢٠) خضت على الفور المانيا واوروبا . ايراسم لا يؤيد لوثر ، يخشاه ، يجد فيه ـ بحق ـ جانبا مناهضا للثقافة ، وجها فلاحيا جرمانيا غليظا . توماس مور لن يؤيد بدعة ملكه وانشقاق انكلتره . اما في المانيا ، فالانسانوي **أولريش فون هوتن** Hutten (١٤٨٨ ـ ١٥٢٣) يؤيد الحركة ، يدعو الى الحزم ، يشن حملة على الامراء والاساقفة وايضا على برجوازية وشعب المانيا : انه منظر **« ثورة النبلاء »** ضد الامراء وامراء الكنيسة . ـ كل طبقات المانيا دخلت حلبة الدين والسياسة ، وعددها ليس طبقتين أو ثلاثة ، بل ست أو سبع ـ . والانسانوي الآخر **ميلانكتون** Melanchton صار ملازم لوثر وسيكون محرر **«بيان ايمان أوغسبورغ»**.
الامراء وجدوا في الاصلاح وسيلة للاغتناء بتجريد الكنيسة من أملاكها ؛ استولوا على هذه الاملاك ، « علمنوها » حسب مصطلح الزمن . **الفلاحون** ثاروا في منطقة التورنج Thuringe بقيادة **توماس منتسر** Munzer ، ومعهم **شيعة العمدانيين**

(انصار مذهب العمادة الثانية) ، وبعض عوام المدن ورجال من اصول متنوعة : ثورة فلاحية عوامية شيوعية ـ مساواتية دينية نبوية ، في « جيش تحرير شعبي » ، سحق على يد جيش الامراء في يوم فرانكينهاوزن (١٥٢٥) : لوثر تراجع عن بعض مواقفه الاولى ، لكنه بالاصل ليس توماس منتسر . الحرب بين الامبراطور شارل الخامس (وهو امبراطور النمسا ـ المانيا وملك اسبانيا وسيد البلاد المنخفضة والمستعمرات الاسبانية) والامراء البروتستانت الالمان المتحالفين مع ملك فرنسا الكاثوليكي تنتهي في **صلح اوغسبورغ** (١٥٥٥) بتراجع الامبراطور الذي يعترف للامراء اللوثريين بحق تسوية شؤون الدين في دولهم كما يشاؤون : « كما دين الامير كذلك دين الرعية » . تجزؤ المانيا يتعمق في شكل تجزؤ مذهبي ـ اقليمي : دول ـ ولايات بروتستانتية ودول ـ ولايات كاثوليكية . اللوثرية تصير كنيسة رسمية لدول ـ ولايات المانيا الشمالية والشرقية ، ولمملكة بروسيا التي ستنشأ بصعوبة في القرن ١٧ وتتحول فجأة الى دولة عظمى في القرن ١٨ . **حرب الثلاثين عاما** (١٦١٨ ـ ١٦٤٨) تثبت التجزئة وتلحق الخراب بالمانيا مسرح تطاحن الدول العظمى وعملائها من دول ـ ولايات . المانيا بعد لوثر ومنتسر وحروب القرن ١٦ وحرب الثلاثين عاما جسم مشلول تقريبا ، بلد متأخر ويتأخر اكثر فأكثر عن جيرانه في الغرب ، عن هولنده وانكلتره وفرنسا ؛ واللوثرية مدجنة ، متخلفة ، رسمية ، محافظة ، ضيقة الأفق .

من المانيا ، اللوثرية انتشرت على الفور في **الدول السكاندينافية** . ملك السويد ثم ملك الدانمارك والنرويج تبنيا البروتستانتية اللوثرية وحرما العبادة الكاثوليكية . اللوثرية صارت اذا كنيسة قومية رسمية حكومية . السويد تحررت من ملك الدانمارك (١٥٢٣) ... ثم صارت دولة عظمى ، مع جيش **قومي** نظامي حديث متقدم في التسليح والتدريب والتاكتيك القتالي ، على يد ملكها غستاف أدولف (١٦١١ ـ ١٦٣٢) .

في فرنسا ، كان هناك حزب اصلاح منذ اوائل القرن . في ١٥٢٣ ، ترجم أحد الانسانويين الكتاب المقدس الى الفرنسية ، ولكنه كان يأمل أن يتحقق الاصلاح بدون قطيعة مع روما . الكنيسة الرسمية اضطهدت انصار الافكار الجديدة ، ثم وقف الملك فرانسوا الاول (وهو من ملوك النهضة ، أي ناقل النهضة الايطالية الى فرنسا : « قصور نهر اللوار ») ضد البروتستانت * . عندئذ فر **جان كالفن** Calvin الى سويسره . صاغ عقيدته في كتاب مهدى الى الملك المذكور وعنوانه « تأسيس الدين المسيحي » (١٥٣٦) وهو من روائع آداب اللغة الفرنسية . كالفن يدفع أموره ، كعقيدة وتنظيم ، في خط لوثر ، لكن ابعد من لوثر : الايمان وحده ينقذ الانسان ،

* ـ هذا الملك الكاثوليكي نفسه يتحالف مع الدولة العثمانية ضد النمسا الكاثوليكية . « الدين » كان على اشده ، لكن ايضا السياسة (الدول ، الامم ، الملوك ، الاطماع ، الاقتصاد ...) .

والله اختار من الأزل مصطفيه ، الذين اعطاهم الايمان الذي ينقذ (مذهب التقرير المسبق) ؛ كالفن يحذف سر التوبة ، يبقي على سرين فقط ، يرفض كل الممارسات الخارجية ، وكل تسلسل اكليركي ، وكل زينة في الكنائس ؛ وزراء العبادة ـ القساوسة ـ يتجندون تحت رقابة جمعية المؤمنين . هكذا ، شكلت الكنائس الكالفينية من البداية جماعات حرة وديمقراطية الطابع ؛ الامر الذي جعل الملوك والامراء يناصبونها العداء .

كالفن، الذي كان في مدينة بال، يدعى الى **جنيف** (سويسره الفرنسية اللغة)، يحكمها من ١٥٤١ حتى وفاته في سنة ١٥٦٤ ، حكم سيد مطلق ، يفرض حياة صارمة على المجتمع ، ولا يرحم من يجرؤ على العقيدة : هكذا يعتقل ميشيل سرفه ويحرق حيا (١٥٥٣) . تحت قيادة كالفن ، تصبح جنيف نوعا ما عاصمة البروتستانتية في أوروبا . الكالفينية تنتشر انتشارا واسعا في فرنسا ، سكوتلنده (وهي قطر مستقل ومتأخر) ، البلاد المنخفضة ، المانيا ، المجر . . . الكالفينية تبدو من حيث طريقة انتشارها مختلفة عن اللوثرية ، وقريبة من المسيحية الاولى المضطهدة والتي لم تصبح بعد دين الدولة على يد قسطنطين (ق ٤) : الاعتناق الفردي الذي يكتسح الوجدانات (وفي بعض الاقاليم أكثرية الوجدانات ، مشكلا عندئذ جماعات حية حاكمة في اقليمها) ، الايمان الصامد في وجه جبال الاضطهاد . مذهب **التقرير ـ المسبق** ـ وهو بالاصل مذهب أوغسطيني ـ يساح المؤمنين ـ في السياق التاريخي الواقعي ـ بطاقة هائلة في الكفاح ثم في العمل والاعمال . من جهة أخرى ، ان عصرية كالفن تظهر في قبوله **فائدة** اقصاها ٥٪ **على المال** . كانت الفائدة محرمة بموجب النص والشرع الديني في العصور الوسطى (محرمة مبدئيا ، رغم وجود آراء بالعكس). كالفن تحت ضغط الحاجة والضرورة والعقل، غيَّر الموقف السائد. غيره كارها ان صح التعبير ، فهو مدرك أن المؤمنين سيتخطون هنا وهناك نسبة الخمسة بالمئة . لكنه فعل ، وبذلك أسقط الهالة ، انهى هذا الموقف الذي يعزل جزءا عن الكل ، وقضية المال وفائدة المال عن مسألة العمل والانتاج والتبادل ، ويفتح الابواب أمام أكبر استغلال : فلان لا يقرض مالا بفائدة لمزارع (فالمال غير منتج) ، ولكنه يشتري له بالمبلغ مئة كيس من القمح ويسترجعها ثلاثمئة كيس عند الموسم ، بل ولعله على الطريق « اشتغل » وساعد المزارع قليلا وأزعجه واربكه اكثر . . . الكنيسة الكاثوليكية تصلبت رسميا ، الى حين ، لكن في اسبانيا كان اقراض المال بفائدة ثلاثين أو خمسين بالمئة شيئا مألوفا يمارسه الجميع بما فيهم رجال الكنيسة! في التصور الاقتصادي الصحيح لا المال منتج لقيمة ولا القمح والآلة ، لكن الشغل المنتج للقيمة هو شغل ـ انتاج اجتماعي مبسوط ـ علاقات ـ حدود ـ تساوي . هذا التصور يقيم « الكل » حدودا وتكاملا وتساويا ، يلغي المخلوطة والابليسية والتميمية في اتجاهيها ، يلغي عبادة الجزء أيا كان وأية كانت ، باعتبار ان عبادة الجزء هي الوثنية .

في **الاتحاد السويسري** ، الذي كان قد نشأ في سنة ١٢٩١ ضد الامبراطور ،

ونما ضد الامبراطور واخيرا ضد شارل الجسور ، كاتحاد حر لكانتونات حرة ، وكان مؤلفا من ١٣ كانتونا الماني ـ اللغة، نشر البروتستانتية المصلح السويسري **زفينغلي**، Zuvingli وقد انضم اتباعه بعد وفاته (سنة ١٥٣١) الى اتباع كالفن ولوثر . غالبية كانتونات الاتحاد السويسري الراهن بروتستانتية .

البلاد المنخفضة التي كانت من قبل تحت حكم شارل الجسور ، انتقلت بعد مصرعه ، بموجب الزواج والوراثة ، الى الامبراطور شارل الخامس ، ثم حين اعتزل هذا الاخير في دير * عقب صلح اوغسبورغ مباشرة (١٥٥٥) ، الى ابنه فيليب الثاني ملك اسبانيا . **دوق آلبا** Albe الجنرال الاسباني هو الذي حكمها في العهدين ، بالحديد والنار . القسم الشمالي خرج منتصرا في شكل جمهورية **«الايالات المتحدة»** (١٥٧٧) التي نالت الاعتراف الدولي ، وصارت البلد الاكثر تقدما في أوروبا القرن السابع عشر ، البلد الذي صمد في وجه لويس الرابع عشر « الملك ـ الشمس » ، فاتحا على جيش الغزاة مياه اراضيه الواطئة المكسوبة على البحر . انه **هولنده** الحرة ، البروتستانتية الكالفينية البرلمانية البرجوازية ، حيث امستردام وروتردام وليدن ، وملجأ للاحرار . القسم الجنوبي ، **بلجيكا** ، ظل تحت حكم الاسبان ، عاد أو أعيد الى الكاثوليكية ، فقد صناع الجوخ الفلاماند الذين هاجروا الى انكلتره ، صار مسرحا لحروب ملك فرنسا ، وتأخر عن هولنده حتى زمن الثورة الفرنسية والثورة الصناعية وقيام الدولة المستقلة (١٨٣٠) ، حين قفز الى موقع في الطليعة بحزب احرار مناوىء للكنيسة وللحزب الكاثوليكي البالغ القوة .

في **انكلتره** ، الملك المزواج والنزوي الديني الوسواسي**هنري الثامن تيودور** (من ١٥٠٩ ـ ١٥٤٧) ، حين رفض البابا ـ في هذه المرة ـ مسايرة نزوته ومنحه اذنا بالطلاق ، أعلن نفسه رئيسا أعلى لكنيسة انكلترا (١٥٣٤) وقطع الصلة مع « أسقف روما » . أمر باحراق البروتستانت كهراطقة وبشنق الكاثوليك كخونة ، وبقطع راس مستشار انكلتره توماس مور الذي رفض الاعتراف به رئيسا لكنيسة انكلتره وآمرا للايمان فيها (١٥٣٥) . ـ في الذكرى الاربعمئة لهذه الشهادة ، الكنيسة الكاثوليكية اعلنت قديسا هذا المستشار لملكة انكلتره الذي كان مؤلف « يوتوبيا » وصاحب اول شيوعية يوتوبية في التاريخ الحديث . ـ خلفه ابنه الشاب ادوار (١٥٤٧ ـ ١٥٥٣) ، وهو لوثري مثل امه الالمانية وحاشيتها ، تقي متعصب ، ومريض . ثم اخت هذا الاخير من أم اسبانية، وهي **ميري تيودور** (١٥٥٣ ـ ١٥٥٨) ، كاثوليكية حامية تريد اعادة شعب انكلتره الى الايمان الحق وتجنيبه نيران جهنم في الآخرة وغضب الرب في الدنيا : تتزوج ملك اسبانيا فيليب الثاني لكي ترزق منه طفلا يخلفها على العرش بموجب العرف السلالي لملكة انكلتره وبتابع رسالتها ، لكنها في سن متقدمة ، وزوجها يدرك ان لا

* ـ كان تنازله واعتزاله تسليما باستحالة الحكم الكوني الوتسطوي ، الديني اللاقومي .

مكان له في انكلتره ، فيودعها ، ويرحل . وتقضي نحبها تاركة العرش لاختها الاصغر (من أبيها ومن أم انكليزية غير نبيلة ذهبت ضحية زوجها الوسواسي المزواج) ، **اليزابيت** (من ١٥٥٨ الى ١٦٠٣) ، بانية مجد انكلتره . اليزابيت أمرت باختراع **الكنيسة الانجليكانية** ، كنيسة انكلتره القومية : عقيدة كالفينية ولغة انكليزية ، مع طقس عبادي وتسلسل كهنوتي كاثوليكيين . الى جانب الانجليكانية ، التي باتت دين الغالبية ، بقي في انكلتره كاثوليك ، وبروتستانت كالفينيون أحرار . هذه البروتستانتية الحرة ستنتقل مع المهاجرين الى الولايات المتحدة، ومعها الانجليكانية، و (الكاثوليكية) ، الامر الذي سيعطي البروتستانتية الاميركية لونها الخاص من تعددية ومرونة وسيولة وانفتاح متبادل وروح عملية وتجارية . **كرومويل** (ق ١٧) زعيم الثورة الانكليزية البرجوازية ودكتاتور انكلتره سيكون من فرقة **الطاهرين ــ المتزمتين** وهي كالفينية حرة . سكوتلنده خارج الانليكانية ، في كالفينية حرة .

في **فرنسا** ، اشتد الاضطهاد ضد البروتستانت (ويسمون هوغنوت Huguenots) بعد فرانسوا الاول ؛ الامر لم يمنع عددهم من التزايد . انه مد يصيب طبقات مختلفة وان كان لا ينال الاكثرية : نبلاء ، برجوازيون ، حرفيون ، فلاحون، مثقفون. بين المعتنقين الجدد عدد لا بأس به من النبلاء gentils hommes وهم « رجال سيف » مستعدون للقتال . تقع ثلاثة حروب قصيرة مهددة لسلامة الوطن (فالاسبان والانكليز داخلون في الموضوع) ، تنتهي بصلح وتسوية مرضية ، ثم تأتي مجزرة السان بارتيلمي الشهيرة (١٥٧٢) التي تقضي على حياة ألوف البروتستانت في العاصمة والاقاليم وعلى رئيسهم ومعظم قادتهم . يتراجع الملك مقرا بمبدأ حرية الضمير . لكن الموقف يزداد بلبلة . الملك هنري الثالث الكاثوليكي (١٥٧٤ ــ ١٥٨٩) ، وهو المخنث المشهور بغلمانه وتبذيره الخيالي لكنه ذكي ماكر، يستطيع حماية العرش والسلالة والوطن من تآمر آل غيز **والعصبة المقدسة** والرهبان والاسبان ، على النحو التالي : يخرج من باريس (حيث الجمهور مع العصبة)، ثم يستدرج خصمه هنري غيز الى بلوا حيث يغتاله رجال الملك بالخناجر، ويتحالف مع الوريث الشرعي للعرش وهو هنري دو نافار زعيم البروتستانت (١٥٨٨) . بعد مصرع الملك (١٥٨٩) على يد راهب ينتقم لـ غيز ، يتولى الوريث الشرعي العرش تحت اسم **هنري الرابع** ، ثم يعتنق الكاثوليكية (ويقول قوله المأثور: « باريس تساوي قداسا ونيف ! ») ، ويدخل العاصمة على ظهر حصانه الابيض (١٥٩٣) ، ينهي حروب الدين ، يصدر **مرسوم نانت** (١٥٩٨) : بموجبه ينال البروتستانت الحريات والمساواة وامتيازات تجعلهم نوعا من حزب ودولة داخل الدولة، امتيازات سياسية عسكرية (مئة موقع أمن بيدهم لا سيما مرفأ لاروشيل). هذا الاجراء الغريب كان اجراء حكيما في الشروط التاريخية العيانية ، هنري الرابع ، الذي يبدأ آل بوربون وهم فرع من سلالة كابيت (البادئة في القرن العاشر والقوية بملكها منذ أوائل القرن ١٣) ، يثبت السياسة القومية ضد اسبانيا وروما

وزوجته وبعض شلل البلاط ، ويبقى « الملك الشعبي » المحبوب في تاريخ فرنسا . بعد وفاته ، الكاردينال ريشوليو وزير لويس ١٣ ، ثم الملك لويس الرابع عشر ، يتابعان السياسة القومية ضد النمسا واسبانيا وخط المونارشية المطلقة التي تبلغ ذروتها (ق ١٧) . ريشوليو يضرب الحزب البروتستانتي ، لويس الرابع عشر يتخطى ذلك الى اضطهاد لا مثيل له ضد البروتستانت : الغاء مرسوم نانت (١٦٨٥) يلحق أضرارا كبيرة بفرنسا : هجرة البروتستانت الفرنسيين مع خبراتهم ونشاطهم الطليعي الى براندبورغ - بروسيا وهولنده وانكلتره ، غضب الدول البروتستانتية على فرنسا كدافع كبير الى الاحلاف والحروب الاخيرة التي استنزفت فرنسا الملك - الشمس ، حرب الفلاحين البروتستانت في منطقة السيفين Cévennes - في انكلتره ، رغم وجود التمييز ضد الكاثوليك والكالفينيين الاحرار ، الامور لم تصل الى هذا الحد : سياسة الاضطهاد الانجليكانية الملكية كانت احد الاسباب التي قادت الى الثورة الاولى وحكم كروموبل واعدام الملك (١٦٤٩) ، ومشروع ملك آخر الرامي الى اعادة انكلتره الى الكاثوليكية كان من أهم اسباب الثورة الثانية ، السلمية (١٦٨٩) واستبداله بابنته البروتستانتية وزوجها الهولندي البروتستانتي : جاءا من هولنده .

ان حوادث القرن السادس عشر في انكلتره وفي فرنسا ، حيث الدين والسياسة والاطماع ، انتهت الى تثبيت فكرة الامة والدولة والعرش ، وهي في كل من البلدين غنية بالدروس ولا سيما بدرس غريب عن تجربتنا ، من أول يوم في الشورى والمبايعة أو لنقل في « القيادة الجماعية » و « الانتخاب والديمقراطية » حتى الخليفة السلطان عبد الحميد الثاني (بوجه الاجمال لم نتجاوز الرقم ٢ في العد) ، درس يتعلق بمسألة الخلافة على العرش . ان **المبدأ السلالي الخطي** - على خط محدد معلوم ومنزل - في شكليه الانكليزي والفرنسي ، انتصر مرة اخرى ، في كل من البلدين ، انتصر انتصارا مذهلا في ظروف عصيبة ، هزم الاعتبار الديني و « الاطماع البشرية » و « الوسواس الخناس » ، كان موجودا على طول الخط وفاعلا في وعي الفاعلين ، في روح « أولي الامر » منهم . هذا المبدأ السلالي الخطي - الغربي ، الاوروبي - بدأ نشوؤه قبل قرون . التاريخ مال في اتجاهه ثم برز فجأة ، ثم تثبت مرة ومرة . البرابرة الجرمان مثل كل الجماعات البشرية في بداية البسط التاريخي يطبقون الديمقراطية والانتخاب والتشاور . والمسألة هي المرحلة التالية ، الامتحان ، ثم الوصول الى استقرار من أجل تقدم يتراكم . الاوروبيون وصلوا ، اكتشفوا وطبقوا المبدأ السلالي على خط ، سواء في شكله الفرنسي

(اسقاط حق الاناث) أو في شكله الانكليزي (عدم اسقاط حق الاناث ، لكن انزاله تحت حق الذكور) . لا شورى ولا مبايعة ... ولا استخلاف . لا مجلس عائلة أو قبيلة يقرر . ولا خلع ، حتى اذا كان الملك مخلوعا اي مجنونا . في القرن السادس عشر ، هذا المبدأ السلالي ينتصر على الدين أيضا . فهو منزل في **المونارشية**

المطلقة « الملك يصنع القوانين ولا تقيده القوانين » ، لكن هناك قانون واحد على الاقل لا يصنعه الملك ويقيد الملك : قانون الخلافة على العرش ! انه فوقه . في المونارشية المطلقة الالهية الحق ، الملك ظل الله على الارض ، لكنه ليس الله. في دولة الاستبداد الشرقي ، الله عال جدا والملك قاعد على يمينه . هذه المونارشية المطلقة في تاريخ اوروبا مرحلة تقدم كبير نحو ما بعدها ، نحو سيادة البرلمان أو سيادة الشعب ، الليبرالية والديمقراطية ، المونارشية البرلمانية الليبرالية أو الجمهورية الديمقراطية البرلمانية . في انكلتره ، المونارشية المطلقة تبلغ ذروتها في زمن سلالة تيودور (١٤٨٥ ـ ١٦٠٣) ، ذروتها التقدمية المجدية . آل ستوارت يعيشونها بعد زمنها ويهزمون مرتين (ق ١٧) . في فرنسا ، المونارشية المطلقة تصل الى ذروتها الايجابية في زمن هنري الرابع وريشوليو وبداية الملك ـ الشمس صاحب العمر الطويل والحروب المديدة العديدة ، فتدفع الامة ثمن استمرارها !

الكنيسة الكاثوليكية ردت على الاصلاح وانتشار البروتستانتية ب **« الاصلاح المضاد »** الذي اضطلع به مجمع ترانت (١٥٤٥ ـ ١٥٦٣) ورهبنة **اليسوعيين** التي تأسست سنة ١٥٣٤ . هذا الاصلاح المضاد طهر الكنيسة من الشوائب ، ساعد على استرجاع الارض المفقودة في بلجيكا وبافاريا والنمسا ، وكان بمثابة سد على تقدم الشعوب الكاثوليكية . الكنيسة الكاثوليكية استمرت في حلم « الخلافة » الرومانية الوسطوي الى حين ، مع شارل الخامس، وفيليب الثاني ، و « المونارشية الكونية » . ثم ، في فرنسا ، تكيفت تماما مع الامة والملكة : **الغاليكانية** نوع من « أنجليكانية » فرنسية كاثوليكية ، والاسقف بوسويه Bossuet مفتي المونارشية المطلقة الالهية الحق في زمن الغاء مرسوم نانت . وظلت الكنيسة حليفة القوى الاقطاعية والمونارشية في القرن ١٨ ، وقوى الردة في القرن ١٩ . رغم استثناءات جديرة بالانتباه : ان عددا من مفكري الانوار المهمين هم من رجال الكنيسة (ق ١٨) . في القرن ١٩ ، « اليسار » في الكنيسة يدعو بآن معا الى قلب الاتجاه التقليدي والتحالف مع قوى الليبرالية والتقدم ضد الردة الاقطاعية والوسطوية والى فصل كنيسة فرنسا عن دولة فرنسا والحاقها تماما بالكنيسة في روما . لكن الكنيسة تدين هذا اليسار . ثم يصدر البابا الـ Syllabus أو « مختصر أغلاط هذا الزمن » ونصه ـ « ملعون من ... ملعون من ... ملعون من ... » ـ يدين فكرة فصل الدين والدولة ، بل وحرية المعتقد . لكن عصر محاكم التفتيش والمحاطب انتهى . ويقرر مجمع الفاتيكان في روما المحاصرة مبدأ العصمة البابوية (١٨٧٠) . ففي ايطاليا ، بقيت دولة الكنيسة في وسط شبه الجزيرة (بعد ١١ قرنا من تكونها في زمن رد خطر اللومبارد ودمارهم) حاجزا أمام الوحدة القومية وجب اقتلاعه بالقوة العسكرية لحرب التحرير والوحدة ... وظلت الكنيسة الكاثوليكية قوة رجعية كبيرة : تتابع وضع لائحة الكتب المحرمة قراءتها وتسهر بسلطتها الروحية على تطبيق هذا التحريم ؛ «الاحزاب الكاثوليكية» أو « الديمقراطية ـ المسيحية » أو «الاجتماعية ـ المسيحية» هي احزاب يمينية ، رغم صبغة « عمالية » جزئية الخ ... ثم ، بدءا من منتصف القرن العشرين ، دخلت الكنيسة في خض كبير . الربع الثالث من القرن العشرين

يطوي صفحة طويلة جدا : رومانية ، استبدادية ، تقليدوية ، عقيدوية . الكنيسة ، ككل شيء اليوم ، في المغطس : مصائر الانسان ! أجل ، انها لم تنتقل من الرجعية الى التقدمية ، و « الرجعية » و « التقدميـــة » ليستـــا اتنومين أو كائنين ماهويين ميتافيزيين . لكن التغير الحاصل (والثورة) في الكنيسة واللاهوت شيء مفاجيء ، و ـ يجب الاعتراف أولا بهذه الحقيقة ـ مفاجيء لجميع الماركسيين . مـع أن لـه مقدمات سابقة غير صغيرة ، في الواقع والفكر . الماركسي ارنست بلوخ «على صلة» باللاهوت المسيحي، واللاهوت المسيحي الجديد (مثلا اليسوعي رانر Karl Rahner) في مناظرة مع كتابه « المبدأ : الامل » . من المؤسف اننا كقراء عـرب ما زلنـــا محرومين من أعمال صاحب « فلسفة عصر النهضة » .

مصائر الإنسان ! لا بأس أخيرا من ذكر أن عصر النهضة هو أيضا زمن الشيوعية الطوباوية . لأمر ملفت للانتباه أن توماس مور وتوماس منتسر وتوماسو كامبانيـــلا عاشوا في بداية انطلاق الرأسمالية (وأن الشيوعية الطوباوية اختفت في الحقبــة التالية ، لتعود الى الظهور في الفترة الممهدة للثورة الفرنسية : مبلي ، موريلي) . ارنست بلوخ وضع كتابا عن « توماس منتسر ، لاهوتي الثورة » . كارل ماركس ، في « المسألة اليهودية » ، ينقل عن توماس منتسر قوله : انه لامر لا يطــاق « أن يحول كل مخلوق الى مملوك ، الاسماك في الماء ، الطيور في الهواء ، النباتات عـلى الارض » . انه لامر لا يطاق أن يستملكوا الاحراج والجبال والشاطىء ورماله وأمواج البحر والاسماك فيه ، أن يمتهنوا الطبيعة والانسان الى ما لا نهاية . ان عصر الوثنية الاكبر يضع شعبنا والبشرية امام خيار كامل . هنا « الاوروبية » ، فائدتها، قيمتها ؛ هنا كونيتها وجذريتها . هنا هيغل وماركس وآدم سميث وزمنهم . وهنـــا الميلاد الجديد و « فلسفة الميلاد الجديد » .

فلسفة عصر النهضة

مدخل

أ

منعطف

موضوع دراستنا تجدد كما لم تكن البشرية قد عرفت مثله من قبل : الصعود المفعم بالنضارة والطراوة ، صعود طبقة جديدة ، بعث أو ميلاد جديد . لكن هـذا الميلاد الثاني لم يكن انبعاث شيء ماض ، انبعاث العصر القديم ، كما يقول تأويل واسع الانتشار ؛ كان ولادة شيء ما لم يحدث أن تصوره أو صممه الانسان في زمن من أزمنة الماضي ، كان ظهور وجوه لم تر ذات يوم على الارض . ظهـرت وانجزت عملها ؛ فكان ربيع ، انطلاق جديد . فريدريك انجلز وصف بحق حركة النهضة بأنها « أهم انقلاب متدرج عرفه العالم حتى ذلـك الحين » . المعماري ألبرتي Alberti يترجم شعور زمنه بصيغة تنوع لكنها ذات دلالة : « الانسان خلق ليعمل ، النفـع مآله » . هوتن Hutten يعي شباب عصره حين يهتف : « العلم يزدهر ، الاذهـان تتصادم وجها لوجه ، انه لمتعة ان نحيا !» (١) .

ازهار بدايات الراسمالية :
الانسان الصانع ، الحمية ، الشعور بالاتساع اللامحدود

الفاعلية هي الشعار الجديد . الانسان الجديد يعمل ، لم يعد يخجل مـن العمل . الحرم الذي كانت طبقة النبلاء قد القته على الشغل ، المعتبر مـنذ ومشينا ، يرفع ؛ نشهد ميلاد « الانسان الصانع » homo faber الذي ، بدون ان يعي تماما التغير الحاصل ، يحول العالم بنشاطـه (٢) ان اقتصـاد بدايات الراسمالية يفرض نفسه بحزم ، وبرجوازية المدن المتحالفة مع الملكية السائرة نحو الحكم المطلق تضع حدا للاقطاعية الفروسية . انه انتصار جهود كانت ترجمتها ، في ايطاليا في القرن الثالث عشر وبخاصة في القرن الرابع عشر، ثورات الحرفيين. الراسمال التجاري يتبنى موقفا مقداما اكثر ، آل ميديشي ينشئون في فلورنسا اول بنك . المشروعات المانيفاكتورية تفرض نفسها الى جانب وضد المشروعات الحرفية ؛ يباشر في حساب التكاليف ، اذ ان القضية لـم تعـد هي تموين السوق المحلية فقط بل اصبحت ارسال المنتجات الى بعيد . اقتصاد السوق لبدايات

الرأسمالية يظهر في ايطاليا ؛ ففي ايطاليا نحيت جانبا لاول مرة القيود الاقتصادية للعصر الاقطاعي ؛ ومن ايطاليا انطلقت حركة النهضة . لقد حملت واقعتين جديدتين : وعي الفرد كما نما وتطور ذهابا من الاقتصاد الرأسمالي الفردي في مواجهة السوق المغلقة لطوائف الحرف ، انطباع الاتساع واللامحدودية الذي حل محل صورة العالم المصطنع والمغلق للمجتمع الاقطاعي واللاهوتي .

لننظر اولا الى الفرد ، « الانسان الصانع » . يبدأ الناس يهتمون باسم مؤلف عمل فني (٣) يخمنون ويكتشفون في الفرد قوى مجهولة الى ذلك الحين ، قوى تعادل تلك التي كان للتقنية ان تحررها في الميدان الاجتماعي ؛ النهضة عصر اكتشاف وسائل انتاج جديدة. ربة الهام ليوناردو دافنشي Leonard de Vinci لا تهمل هذه التقنيات . لكن بين القوى المنتجة ، الانسان الذي يخترع ويجرؤ هو نفسه ظاهرة جديدة . البنى تحمل الينا انعكاس ذلك : اليس ذا فائدة خاصة ان هذا الاتجاه الجديد يظهر في بنى فن أثيري وايزوتيري (باطني) كالموسيقى ؟ الكورس الوسطوي « a capella » لم يختف ولكنه يمحي بعض الشيء ، نشهد اختفاء الطباق (contrepoint) المتسم نوعا ما بطابع طوائف الحرف المغلقة الذي كان يراكب الاصوات عموديا ، الذي كان يقترح على المستمع سماعا أفقيا ، الذي كان يخالط اصوات « cantus firmus » « الغناء الحازم » فيما بينها . كانت الاصوات تجتمع على نحو بوليفوني ، حول الـ « cantus firmus » كان نفس الموضوع ينوع من قبل جميع الطبقات . اما في « الاسلوب الجديد » (stilo nuovo) للموسيقى « العصرية » ، فالـ « cantus firmus » يحتل السلم الاعلى ، يصبح لحنا mélodie ؛ الاصوات الاخرى تفقر ، لا تلعب سوى دور مرافق ، لكنها تتمتع بحركية اكبر . اللحن الغنائي ، الذي كان محفوظا الى ذلك الحين للموسيقى الشعبية ولابتكارات التروبادور troubadours قد ولد : تؤديه الـ « prima donna » (« السيدة الاولى » ، المغنية الاولى) او الـ « primo uomo » (« الرجل الاول ») او الـ virtuose (الماهر ، الفنان) . اختراع الكمان ، وسلمه حاد ، يسم انتصار الفرد ، انتصارا ترجمه في الصعيد الاقتصادي صورة صاحب المشروعات . . . انه يفضي في القرن الثامن عشر الى الموضوعات العملاقة لـ بيتهوفن Beethoven مثلا (٤) الموسيقى تشكل هنا بناء فوقيا يرتكز ، بلا وسطاء تقريبا ، على الاساس . في المسرح ايضا ، يأتي الفرد الى الظهور : مسرحية الخلق تطرد تدريجيا المسرحية التادبية ذات الاشخاص ـ الانماط الجامدة . في الذروة تنتصب دراما شكسبير Shakespeare حيث الفرد الفريد ، الذي ليس له بديل ممكن ، حيث تنوع البشر ، يعارضان التأدب الرتيب ، المنضج ، الارستقراطي ، الصارم ، لاعضاء الشريحة العليا ولنماذج الفلاحين والبرجوازيين الجامدة في مسرح العصور الوسطى .

المظهر الثاني لهذا العصر هو الشعور بالاتساع واللامحدودية الذي يستولي على البشر : وراء الوجود الاجتماعي للربح يرتسم عصر الاكتشافات ، عصر كريستوف كولومب وماجلان ، ورحلة الدوران الاولى حول الكرة الارضية . في

سياق المسلمة الاجتماعية ، يجري التخلي عن وجهة نظر مركزية الارض لصالح مذهب مركزية الشمس : ذلك انتصار كوبرنيك (Copernic) . الاطروحة القائلة ان الارض تدور حول الشمس كان قد صاغها ، في العصر القديم، ارشيتاس دو تارنت Archytas de Tarente (٥) . وفي القرن الرابع عشر ، كان رياضي فرنسي عظيم ، هو نقولا اوريسم Nicolas d'Oresme وهو الوحيد الذي يستحق هذا اللقب في العصور الوسطى ، كان قد دافع عن اطروحة مركزية الشمس بل واسسها ، حسب رأي المختصين ، على حسابات أمتن من حسابات كوبرنيك ؛ غير ان الضرورة الاجتماعية لنظرية كهذه لم تكن بعد قد أحست . فجأة ، ارادة التوسع تظهر ويقبل كحقيقة بدهية ما كان في امس قريب يعتبر حماقة ولا معنى ؛ وبالامس كانت ضرورة اجتماعية اخرى ، هي سلطة الكنيسة، قد انتصبت ضد نظرية كانت تبدو مناقضة لتعليم الكتاب المقدس ، الذي بموجب مفرداته الشمس والقمر اضواء تدور حول الارض . لكن منظومة مركزية الشمس انتهت الى الغلبة رغم متاعب كثيرة ، يشهد بها موت جوردانو برونو Giordano Bruno حرقا والتهديدات المرعبة التي اطلقت ضد غاليليو . الطبيعة تنفتح للنظر : في العصر الوسيط كانت شيطانية ، تسكنها ابالسة خسيسة ؛ في الرسم البيزنطي ، انها تغوص في العدم . ليس هناك سوى المصائر البشرية وقاع ذهبي لا يسعنا ان نقول ما اذا كان قريبا او بعيدا ، ما اذا كان الاشخاص جزءا منه او لا . العالم الخارجي يغرق في هذا القاع المذهب ، في هذه المنطقة ــ الحدود بين العالم الحاضر والما ــ وراء . هذا التصور يجد نفسه مخففا للمرة الاولى في الرسم الايطالي عند شيمابوه Cimabue ، وبشكل اوضح عند جيوتو Giotto ؛ لكن بعد عند جيوتو ، ليس المنظر سوى « مرافق » ، سوى اطار لعمل الاشخاص . ما زال الرسم يستلهم رؤية ارضمركزية ؛ عند جيوتو ، الانسان ، وان كان بعد يلتحف سموه ، الا انه يحرر القاع الذي بات اكثر من قاع وحسب والذي ستستولي عليه حركة النهضة لتجعله منظرا . يكتشف المنظور ، الامر الذي يستجيب لتوسع المبادلات التجارية على النطاق العالمي ولصورة العالم الكوبرنيكية. النوافذ تنفتح على مناظر لا نهاية لها ؛ هكذا الحال في مدينة جان فان ايك Jan Van Eyk (٦) . فتح العالم ، الطبيعة ، يخطو خطوات سريعة ، الحياة الحاضرة تستهوي البشر ، الما ــ وراء يشحب ، يبادر الى عملية عكس القيم . خبرة الطبيعة والعالم تدفع حتى مذهب الحياة العامة (pan - vitalisme) كما يظهر عند ليوناردو دافنشي ، الذي يرى في الكوسموس (الكون) « انسانا كبيرا » (macranthropos) واحدا . جيوردانو برونو ينتهي ، بعد سلسلة من محاولات اجريت في الاتجاه نفسه في اواخر العصر الوسيط ، الى مذهب الحلول panthéisme (وحدة الله والكون في الجوهر والهوية) . في برونو ، وجدت الفلسفة منشدا للامتنهي الكوسمي ، تشخيص الانتصار العام للعالم المنتهي ، تشخيص نهوض الانسان الذي يتعالى بنشاطه ، تشخيص الغاء التعالي (transcendance) بالميلاد الجديد .

فلسفة النهضة :

انها بداية الفلسفة البرجوازية ، البداية التي كثيرا ما تهمل

على الرغم من هذه الوقائع ، او ربما بسببها ، اصاب الاهمال فلسفة عصر النهضة على يد الفلسفة البرجوازية هـذه الاخيرة لـم تول عصر الدكتور فاوست Faust سوى انتباه شارد . كثيرا ما خدمت فلسفة النهضة كمدخل وحسب للفصل الرئيسي ، المكرس لديكارت Descartes الذي قدم مبدؤه « انا افكر اذن انا كائن » بوصفه الحجر الاول لفلسفة جديدة . غير ان هذه الرؤية خاطئة بالتمام ! لديكارت اسلاف هم اكثر من اسلاف . مونولوج فاوست نفسه لا يمكن تصوره بدون حركة النهضة ؛ انها تعيش في العنصر البروميثيئي الذي استدعاه غوته Goethe ؛ لقد سمحت للانسانوي سكاليجر Scaliger ان يرى في بروميثيوس Prométhée « الاله الآخر » « alter deus » الذي ينقض على السماء ليأتينا بالنار وليؤسس بشرية جديدة ، وهو تصور يعارض التصور المؤيد عموما في العصر القديم والذي لم يكن يرى في بروميثيوس سوى سارق (٧) . فاوست وبروميثيوس هما وجها الصدارة في سفينة النهضة ولا يمكن ان يفصلا عـن صورتها . أن عصر ما قبل ديكارت هو عصر الـ تليزيو Telesio ، باتريشـي Patricci ، بومبونازي Pomponazzi ، **جوردانو برونو** الذروة ؛ ثـم عصر **كامبانيلا** Campanella . انه ، في المانيا ، عصر **باراسلس** Paracelse **وياكوب بوهـم** Jacob Boehme في انكلترة عصر **فرانسيس بيكن** ، انجب **العلوم الطبيعية الرياضية** المشتقة من الفلسفة، من تصور جديد لفيثاغور Pythagore ؛ وها هم **غاليله** Galilée ، **كيبلر** Kepler ، **نيوتن** Newton ؛ وها هو **الحق الطبيعي البرجوازي** ، ايديولوجيا التحرير البرجوازي العظيمة ، في حين ان مذهب العقد الاجتماعي لـ **التوسيوس** Althusius و **غروتيوس** Grotius سيكون اداة فاعلة في أيدي رجال الثورة الفرنسية ؛ التيار ــ المضاد المفيد والدال يبرز مع **ماكيافل** Machiavel و **بودان** Bodin ؛ **هوبز** Hobbes اخيرا يجمع مذهـب العقـد الاجتماعي المستوحى من الحق الطبيعي مع نزعة واقعية عفيفة زاهدة .

٢ الاصول

لاسباب اقتصادية ، تقع بدايات هذا التطور في ايطاليا . في هذا البلد ، كان العالم القديم الوثني الذي كبته المجتمع الوسطوي لا يزال يحتفظ بما يكفي من الحضور ولا يزال يشغل حيزا من الذاكرة بحيث امكن عقد الصلة مع تقليد العالم الوثني ، وهو عالم أرضي جوهريا وان لم يكن « هنـا ـ تحت » (« دنيـا ») العصر القديم . ولكن عصر النهضة يتماثل تماما مع « هنا ـ تحت » (« دنيا ») في الحالتين المقصود هو فعلا عالمنا. هذه العودة الى العصر القديـم ساعدها هرب العلماء البيزنطيين الى ايطاليا ، بعد سقوط القسطنطينية على يد الاتراك سنـة ١٤٥٣ ، وبين هؤلاء العلماء نجد بليتـــون Pléthon وبساريون Bessarion هذان العالمان ادخلا اللغة اليونانية الى بلاط كوسم دو ميديشي Cosme de Médicis الذي فتح في فلورنسا « اكاديمية افلاطونية » بعد تسعمئة عام من اغلاق الاكاديمية الافلاطونية على يد الامبراطور جوستينيان Justinien سنة ٥٢٩ . سوف نرى ان هذه الاكاديمية كانت ذات اتجاه نيو افلاطوني . الا انها مع ذلك كانت موضوعة تحت رسم افلاطون ومندورة لروح الفيلسوف (١) في ميدان فن النحت ، لم يكن العصر القديم قد نسي في يوم من الايام . اندريا بيزانـــو Andrea Pisano يبقى ، في اعماله المنضجة في القرن الثالث عشر ، عنـد الاشكال القديمـة ، فالعمودي القوتي (gothique) لم يستطع في يوم من الايام ان يطـرد فـي ايطاليا الافقي القديم (٢) . ان استثناءات كاتيدرائية ميلانو لنادرة جـدا ولا تصادف الا في شمالي البلاد . لم يكن الصراع قد توقف في يوم من الايام : حين كان يجري اكتشاف اله ما او الهة ما عاريين ، من بقايا العالم القديم ، كانت تقام حتى في القرن السادس عشر في كل كنائس روما صلاة غفران من اجل تهدئـة غضب الرب بعد كشف صنم وثني جديد . يجب أن لا ننسى ان ايطاليا القـرن السادس عشر كانت ايطاليا الحجاج لا الايطاليا التي كان يذهب اليها غوته Gœthe ودورر Durer، كانت ايطاليا المتنصبة ، رغم انف بابوات عصر النهضة ، ضد العصر القديم (الاغريقي ـ الروماني) . لكن العالم الجديد فتح المعركة ضد هذه الذهنية الى الوقت الذي فقدت فيه ايطاليا لعدة قرون كل صلة بالعصر القديم ، اثر تقدم الأسبنة والاصلاح ـ المضاد (٣) .

مارسيل فيسين Marsile Ficin (١٤٣٣ – ١٤٩٩) لعب دورا هاما بشكل خاص اذ انه ترجم لاول مرة افلاطون وبخاصة الفيلسوف النيو افلاطوني أفلوطين Plotin (٤) . بالقدر الذي كان فيه هذان المؤلفان معروفين ، كان الاعتماد على ترجمات عربية . لكن ها قد ظهرت اخيرا ترجمة لاتينية لهذين الفيلسوفين المثاليين العظيمين ؛ بل أن العديد من نصوصهما ترجم الى الايطالية. فيسين ينفخ حياة جديدة في المفاهيم النيو افلاطونية ، لا سيما مفهوم « النور الأصلي » الذي انجب العالم والذي ما زال يضيء الكون ؛ لكن قيم أفلوطين تقلب ، الامر الذي يجعل الحياة الحاضرة ثمينة ، هذه الحياة تضاء بنور داخلي على غرار مصباح من الرخام الابيض الشفاف ؛ غير اننا لا نتوق بتاتا الى هذا النور ، لسنا بحاجة اليه على الاطلاق ، فانعكاسه اجمل من الضوء نفسه . هكذا ، ان انعكاس « النور الاصلي » يرتدي اهمية اكبر من النور الاصلي نفسه ، فالانعكاس هو **الجمال** . القدسي ، السامي ، السري ، المجهول الذي لا يمكن ان يعرف ، الغيب، الما وراء ، ينكشفن لنا في جمال هذا العالم ، ان الجمال هو الذي يحمل الينا شهادة النور ، هو الذي يبين لنا ان العالم تحكمه قوى رائعة .

هذه الفكرة تتوضح عند فيلسوف آخر ، **بيك دو لاميراندول** Pic de la Mirandole (١٤٦٣ – ١٤٩٤) ، يعلم هو ايضا في الاكاديمية الجديدة الافلاطونية في فلورانس . هذه المرة الانسان هو نقطة التصويب ، الانسان الذي ياخذ وعي استقلاله ؛ الانسان الصانع يحرك اطرافه المتيبسة ، يشعر نفسه يعيش . الانسان ، يصرح بيك دو لاميراندول ، وضع في وسط العالم كي يرى على نحو افضل ما يجري فيه . ليس عالما متمركزا على الشمس بل على الانسان ؛ العالم بمثابة لوحة قاع البشرية كي تشعر نفسها فيه في يسر . العالم لم يخلق من اجل الانسان ، لكنه مصنوع من لحمه ودمه : على هذا النحو ، لكل بيته ، لا يبقى ثمة ضياع ، لا يبقى ثمة قلق . الشياطين التي كان يخافها انسان العصور الوسطى القت بنفسها في الجحيم ومعها الصليب الذي كان يبدو مكرسا لحمايتها. العالم أضحى من جديد عالما وثنيا ، الانسان استعاد كرامته الاغريقية ، ترك وضعية التائب المستغفر ، لم يعد يعيش جاثيا على ركبتيه ، انه يطرح الخطوط القوطية المحنية والمكسورة . وها هو الفتى البالغ ، الشاب الحر ، يرفع يديه نحو النور ، يقف على قدميه ، يسير قدما الى الامام . بيك دو لا ميراندول يعلن في خطابه عن « كرامة الانسان » : « الحيوانات تستمد من بطن امها ما يلزمها ، والارواح العليا هي من البداية ما ستكونه الى الابد . اما انت ، ايها الانسان ، فلك تطور ، انك تنمو وتنبسط حسب ارادتك الحرة ، انك تحمل في ذاتك بذور الحياة التي لا حصر لها ! » . ان الانسان لا يولد ناجزا ، ان وجوده يتطور ، وتلك كرامته ! ان ايروس (Eros ، حب) الانسان يقف بين الحيوانات والله ، الانسان يملك ولا يملك، حيازته لا ـ حيازة ، لذا فهو يرغب الحيازة ، لكن لا ـ حيازته هي أيضا حيازة ، لذا يمتلكه الحنين الى النور . هذه الفكرة لافلاطون تنقلب هنا ضده في سياق مساجلة فخورة ، انها تندرج في عالم غير ـ افلاطوني . الخليقة اكثر من الخالق ، مفهوم

الخلق والخليقة أكثر اثارة من مفهوم الخالق . مرة أخرى . يظهر الخلق بوصفه ارسالا من نور أصلي ؛ المؤلف يلجأ الى كمية كبيرة من مفاهيم غنوسطية وقبالية (٥): فالنهضة هي أيضا عصر السحر ، عصر السيطرة السحرية على الطبيعة ، الشكل الخيالي للتقنية التي لا توجد بعد . ان قوى سحرية لنا قبض عليها تجتاز الكون ، تتجلى في جمال القوى السماوية ، التي تصعد وتنزل كما في فاتحة فاوست . الانسان الواقف على قدميه الذي هو بهذا القرب من الخليقة يستطيع ان يدخل في هذه الحلبة . ان مونولوج فاوست يعيد الينا تماما جو ذلك العصر كما أعيد خلقه في القرن الثامن عشر على يد الروح الثورية البرجوازية . فاوست أمام طاولته رجل من عصر النهضة ؛ غوته أعاد اليه أبعاد عصر النهضة. القوى السماوية تصعد وتنزل، العالم ممتلىء قوة باذرة ، في كل درجات السلم . يقدم التكريم والتبجيل للسيدة الجميلة الكون لا لصاحبة القصر ، للمرأة النبيلة . والرجل ، اذ يجعل نفسه هكذا الفارس خادم العالم ، يشعر ذاته مثبتا في توازن جميل مبكر بين الذات والموضوع.

المفكر الثالث ، تليزيو Telesio (١٥٠٨ – ١٥٨٨) ، الذي أسس أول جمعية للعلوم الطبيعية ، يصوغ القاعدة القائلة ان كل بحث يجب أن يستند الى خبرة الحواس. ذلك موقف أغريقي غير – أفلاطوني منذار بالتمام نحو العالم : موقف يرجع صعودا الى المفكرين السابقين لسقراط ، الى أمبدوكل Empédocle (الذي ينشل من النسيان هو أيضا) . تليزيو يعلن أن القوتين المحركتين الاصليتين للطبيعة هما الحرارة والضوء ، أي بتعبير آخر قوتان ماديتان . لا ريب متذكرا لوكريس Lucréce ، ومع قصد سجالي ، يدعو مؤلفه الرئيسي « طبيعة الاشياء » (de natura rerum) . تليزيو يحاول اكتشاف الاسباب الطبيعية للظاهرات : ان قتالا يجري في العالم ، بين العنصر الجاف والساخن والعنصر الرطب والبارد ؛ ميدان الحرارة هو في الوقت نفسه حقل معركة تتجابه فيه قوتان ، قوة انتشارية تنتسب الى الشمس وقوة باردة منقبضة تنتسب الى الارض . ثمة بين العنصر الارضي الترابي والعنصر الشمسي تفاعل جدلي ، ومن انتصار العنصر الشمسي على العنصر الترابي يولد الضوء . ذلك التصاق بالضوء يشبه التوالد الذي كان غوته يتحدث عنه والذي يصعد من الظلمات نحو النور . النور سيعود الى الظهور كمفهوم – قيمة في مصطلح « aufklaerung » (« تنوير ، اضاءة » ، الذي يطلق في اللغة الالمانية على عصر العقلانية ، « الانوار ») : فلتتبدد الغيوم ، ولتنكشف السماء الزرقاء والمشعة ! منذ قرون لم تعرف عبادة للنور كتلك التي تعبر عن نفسها في فلسفة تليزيو الطبيعانية .

لننتقل الى فيلسوف رابع ، باتريتي Patrizzi (١٥٢٩ – ١٥٩٧) . مؤلفه الرئيسي يحمل عنوان : « Nova de universis philosophia » « فلسفة الكون الجديدة » ؛ nomen est omen (الاسم سمة) ، العنوان اشارة ! لم تعد المسألة الكون الحي ، امحاء الخالق وراء خليقته ، منبعا ، حرارة ، نورا أصليا ، وهي مفاهيم كان قد صاغها فلاسفة قبل باتريتي ؛ باتريزي يعطي « مبداه الاسمى » اسما لم يتقدم به أحد منذ بارمنيد Parménide (٧) ، هو Hen kai Pan (الواحد –

و ــ الكل ، الاحد ــ و ــ العام) . هكذا ، يجد تلاحم العالم تفسيرا حلوليا ، لا يوجد أي شيء خارج « الواحد ــ و ــ الكل » . باتريتسي يترجم المصطلح الاغريقي بالمصطلح اللاتيني « unomnia » (الواحد الشامل للكون) . الـ unomnia هو النور الاصلي الوحيد الذي يملأ الفضاء الفلكي اللامتناهي . لا شيء ميت ، يشرح باتريتسي ، لا مادة ميتة ، ان نفحة حياة حلولية تحرك كل شيء ، نفحة حياة هي الروح الالهي للكون . في هذا المتصل المتجانس الذي يجهل انقطاع التعالي ، لا مكان للمعجزات ، وليس من لا انتهائية سوى لا انتهائية نفحة الحياة . نرى أن المقولات اللاهوتية التي كانت تنتسب الى الله ، مثلا اللانهاية ، تنقل ، بدون أن تفقد عظمتها القدسية ، الى الكون . كوبرنيك لم يدرس الا منظومتنا الكوكبية ، انه لم يلامس ميدان النجوم .

هكذا ــ اذا أغفلنا نشاط المترجمين ــ كانت تمثل الحياة الفكرية في بلاط كوسم دو ميديشي وفي « الاكاديمية الافلاطونية » الجديدة . صحيح أن أفلاطونيي فلورنسا انتهوا الى الانزلاق نحو النيو ــ أفلاطونية ؛ ألغوا أو حتى تجاهلوا ما يميز أفلوطين عن أفلاطون . ان غزوة المتعالي ، أن هجمة العنصر الروحي للنور الاصلي عند أفلوطين كانت تنسب الى أفلاطون ، رغم أن أفلاطون لا يوردها في أي مكان تحت هذا الشكل . هكذا ، لم يتوصلوا الى الانعتاق من فكرة « الماوراء » ، سلكوها مرة أخرى في اثر النيو أفلاطونية ؛ النيو أفلاطونيون كانوا بمثابة جنيات فاتنات يسلمن ضحاياهن للعدو ، أو على الاقل للذين كانوا يريدون التخلص منهم . كي تتغير هذه الحالة ، وجب انتظار العودة الى فيلسوف آخر لم يكن له أي شأن مع آباء الكنيسة ، الى الفيلسوف العظيم الوثني حقا الذي هو أرسطو . كان ارسطو يعتبر أيضا أحد فلاسفة الكنيسة ، كان تأثيره على الكنيسة أقوى بكثير من تأثير أفلاطون وأفلوطين ؛ لكنهم اكتشفوا أو اعتقدوا انهم اكتشفوا أرسطو الحقيقي وكلفوه ، حسب صيغة لـ فندلباند Windelband بالنضال ضد اللباس التنكري الذي ابتلي به في العصر الوسيط (٨) . كان ذلك ضربة قاسية جدا للكنيسة . يمكن ان نشبهها ، مع تعديل ما يجب تعديله ، بالنضال الذي وجه في روسيا القيصرية ضد السينودس المقدس ، وهو النضال الذي كان يستوحي كتاب « ألغاز الكون » لـ هيكل Haeckel (٩) ونظريات تولستوي والمسيحية الاولى . ان تولستوي هو الذي أصاب المراكز العصبية . يمكن أن نؤكد على نفس المنوال أن النضال ضد السكولاستيك الارسطوطيلي كان فعالا وفعالا أكثر بالقدر الذي كانت فيه نقطة انطلاقة أرسطو الحقيقي الاصيل وليس النيو أفلاطونية وأفلاطون أو العلم الطبيعي الرياضي .

ولقد أعطانا عصر النهضة فيلسوفا سعى الى تجديد الفكر الارسطوطيلي في اتجاه التأويل الذي كان قد أعطاه عنه ألكسندر أفروديزياس Alexandre d'Aphrodisias : لقد تحدث البعض عن « بعث للنسخة الاصلية » حقيقي . هذا الفيلسوف ، **بيار بومبونازي** Pomponazzi ، المعروف أكثر تحت اسم بومبوناسه Pomponace (١٤٦٢ ــ ١٥٢٥) ، يحتل ، اذا أغفلنا بيك دو لا ميراندول ، مكانا أهم من سائر فلاسفة زمنه في وجدان المطلعين ، بسبب نضاله ضد مفهوم خلود

النفس . الحجة الجوهرية في نضاله ضد الكنيسة ، مع اعتماد أرسطو وشارحه ألكسندر أفروديزياس كنقطة انطلاق ، كانت انكاره لاستمرار الفرد ، وبالتالي للآل الانسان الازلي ، لجهنم والمطهر والسماء . ذلك كان ضربة مضادة ــ للايديولوجيا ، ضربة حاسمة تسدد الى سلطة مفاتيح الكنيسة ؛ فسلطان الكنيسة كان يرتكز بالضبط على أغتصاب الما ــ وراء ، الجحيم والنعيم : المفتاح مرسوم على شعار نائب المسيح على الارض. سلطانها كان يرتكز جوهريا على الخوف من تعال بعيد عن المعقول كان يعذب البشر حتى القرن الثامن عشر ويلقي ظله الاسود على حياتهم الارضية . لم يكن الناس يخشون الموت الاول بقدر ما كانوا يخشون الموت الثاني ، الجحيم . حسب أرسطو، النفس هي كمال entéléchie الجسد ، وبزواله يزول أيضا هــذا الكمال . صحيح ، بالنسبة لإرسطو ، أن الروح البشري الكلي باق ، لكن ليس فـي شكل فردي ؛ انه باق ربما بوصفه افضل جزء فينا . لكـن الذكريات الشخصية ، المصائر الشخصية تنتهي ؛ لن نجازى، على طريقة محكمة أرضية ، تبعا لاستحقاقاتنا الفرديــة .

لنوضح ان الطابع الاشكالي للخلود الفردي كان موضع اعتراف قبل ذلك الحين بكثير . ريبيو وماديو العصر القديم لم يكونوا يؤمنون بهذا الخلود . ليس بتصرفنا الا قليل من الوثائق عن المسألة . أبيقور مثلا كان يقول : « لا حاجة لك في الخوف من الموت ؛ حيث انت ليس الموت ؛ حيث الموت لست ؛ لا يمكـن ان تلتقيا » حيثما كانت الشروط الاجتماعية لا تعير نفسها (كما في زمن بومبونازي) لتحرير ، كان رد فعل البشر ازاء هذه المسائل مختلفا . لعلكم تعرفــون سفر الجامعة الذي ترجمه لوثر Luther معطيا اياه عنوانا هو « Prediger Salomo » (سليمان مبشرا) . هذا السفر الذي نسب الى الملك سليمان هو بالواقع نص هلينستي حديث العهد الى حد كاف ، ربما القرن الثالث قبل الميلاد . في هذا الكتاب توجد الجملة الشهيرة : « كل شيء باطل » ، الصيغة التي تحمل وسم الريبيين والماديين الاغريق (١٠) . نقرأ في الفصل الثالث ، ١٩ ــ ٢١ ؛ ما يلي : « بالحقيقة ، قدر الانسان وقدر الحيوان واحد ؛ هذا يموت والآخر كذلك ؛ لهما نفس النفحة ؛ تفوق الانسان على البهجة عدم : فكل شيء باطل . كلاهما يذهبان الى نفس المكان ؛ كلاهما يأتيان من التراب والى التراب يعودان . من يعلم ما اذا كان نفح البشر يصعد الى فوق ونفح البهائم ينزل الى تحت ؟ » ذلك تعبير تشاؤم عميق ، بل من الممكن القول : نيهيلستية (عدمية) . ان فكرة الطابع الزائل لكل شيء لم يكن لها دوما كأثر التحرر غير المشروط ؛ من جهة اخرى ، الدين اليهودي القديم كان يجهل هو ايضا البقاء بعد الموت . الشيول schéol اليهودي كان ان صح القول حالة لاوعي كامل . الايمان بديمومة الفرد يظهر متأخرا في العــالم التوراتي : نجدها عند النبي دانيال (١١) حيث تندرج في منظور عدالة : الاشرار سيعيشون لكي يعاقبوا والاخيار لكي يكافؤوا والمصطفون لكي يشهــدوا ظفــر العدالة . في وقت لاحق ، هذا البقاء من اجل العدالة حولته الكنيسة البابوية الى وسيلة سلطان فعالة بشكل خارق . ان معرفة شبهنا مع « البهيمة » ، هذه

المعرفة العلمية نوعا ما ، ما كان يمكن أن تؤدي الى التهليل ؛ لم يصبح الامر ممكنا الا بالغاء الحياة بعد الموت والخوف من جهنم الذي لم ينقطع الاكليروس عن نشرها بين الناس .

ان نفي الخلود الفردي هو محتوى نص لبومبوناسه يحمل عنوان : « في خلود النفس » ، نشر سنة ١٥١٦ . العنوان بحد ذاته كان استفزازا ما دام صادرا عن بومبوناسه ومدينة بادوا Padoue . بالامر مفهوم ! النص كان ينفي الخلود الفردي كما وينفي ايضا الخلود المقلص نوعا ما الى الجزء الفاعل والكلي من النفس، الذي كان قد لعب دورا هاما عند ابن سينا وابن رشد ، في خط ارسطو . بالنسبة لهؤلاء المؤلفين ، البشرية تشبه شجرة عليها ازهار : مثلما تعود الاوراق وتدخل في الشجرة حين يأتي الخريف ، كذلك البشر يرجعون في لحظة الموت الى حالة البشرية . لكن بومبوناسه يرفض هذه الصيغة التي هي في نظره اسطورة : الانسان لا يعود الى البشرية الكونية ، بل ينحل في المادة الكونية . صحيح ان شجرة البشرية الدائمة كما كان يتصورها خلفاء ارسطو ، في المقام الاول ابن سينا وابن رشد ، كانت تتضمن ايضا المادة الدائمة بوصفها كلا شاملا. في نظرهم ، المادة ليست فقط شمعا يأخذ طابع الشكل ، بل الشكل مندمج في المادة تكامليا ، انه يغدو الاصل الاخير لكل الاشياء ، رحم كل الولادات . المادة توصف بأنها « dator formarum » ، اصل الاشكال ، انها تنجب بدون اي تدخل متعال جميع ظاهرات العالم ، واليها يرجعن . لقد اعطي بومبوناس ومدرسته ، نسبة الى الكسندر افروديزياس ، اسم « الكسندريين » . مدرسة الابن رشديين كانت تتبنى في مضمار الخلود موقفا اقل جذرية ؛ فالابن رشديون كانوا يرون بقاء بعد الموت للبشرية في مجموعها . بادوا ، حيث كانت تدور الصراعات بين الابن رشديين والكسندريين ، حيث كان يعلم باتريتسي وبومبوناسه ، كانت في زمن النهضة مركز « الانوار » . في بادوا ، كان يمارس لاول مرة التشريح في « المسرح التشريحي » الرائع المصنوع كله من خشب الجوز ، على طراز بداية عصر النهضة . كانوا قد وضعوا فوق طاولة التشريح كرسيا لراهب يتلو صلوات من اجل راحة نفس الشخص الذي كان الاستاذ يشرحه . هذا بموجب نظام « المسرح التشريحي » . تلك هي الصعوبات التي كانت تصطدم بها الفتوحات الاولى في العلوم الطبيعية . بالتالي فقد كان بومبوناسه مضطرا الى حماية نفسه بمذهبه المدعو مذهب الحقيقة المزدوجة : كما ان سمكة القرش والاسد لا يمكن ان يلتقيا ، على حد شرحه ، لان الاولى تعيش في المحيط والثاني في الصحراء ، كذلك الفلاسفة واللاهوتيون لا يمكن ان يتلاقوا . هؤلاء واولئك ينكبون على ميادين مختلفة ، ميدان الطبيعة وميدان النعمة ، العالم الحاضر والما ـ وراء . لذا كان ممكنا ان يكون شيء ما صحيحا في الفلسفة وخاطئا في اللاهوت ، والعكس بالعكس . كانت هذه النظرية تخول كل فيلسوف ، كل باحث ، ان ينقض كلامه بدون عتاب ضمير امام اية محكمة كنسية . صحيح ان الكنيسة لم تدع نفسها تخدع طويلا جدا بهذه الحيلة ، لانها كانت تكون سمحت لجميع المتهمين بالافلات

من محاكم التفتيش. لكننا هنا امام شكل مثير لمبدأ الـ « credo quia absurdum »
الـ « credo quia ineptum » (« أنا أؤمن لانها حماقة » ، « ... تفاهة » ـ
اي العالم ، الدنيا ، الاشياء = حماقة) ، مبدأ ترتوليان Tertullien ، الذي
بموجبه ليس ميدان اللاهوت يتجاوز الطبيعة فقط بل هو يعارضها ، ليس يتجاوز
الفهم فقط بل يناقضه . ان الكنيسة لم تشأ في يوم من الايام قبول هذا المذهب،
الذي نحاه جانبا بالتمام توما الاكويني Thomas d'Aquin . حسب رأي هذا
الاخير ، الاسرار لا تناقض العقل بل هي تتجاوزه ؛ العقل لا يستطيع بلوغ هذا
الجزء العميق من العقل الالهي . هذا المذهب ، مذهب الازمنة الاولى للكنيسة
الصاعدة ، الذي يستخدمه بومبوناسه كسلاح ضد الكنيسة الانحطاطية ، عرف
اشكالا اخرى عبر الاجيال .

٣ جوردانو برونو

تلك ممهدات تجديد عظيم . عند فجر فلسفة عصر النهضة بالمعنى الحقيقي الخاص ينتصب وجه برونو Bruno ، منشد اللاانتهائية الكوسمية ، الذي حاول اعطاء تقديمه للمحايثة (immanence) هذا الطابع من هوى ، من اهتمام ، من سر ، من قوة ، من فتنة ، الذي كان قد وسم في العالم الوسطوي استدعاء الما ــ وراء . مذهبه كان قد انبأ به الطبيعانيون الطليان السابق ذكرهم، لكن برونو هو الذي اقام نظمة متلاحمة . ان ما يميز جوردانو برونو عن سائر فلاسفة زمنه هو واقع انه ظل امينا لحقيقته حتى مماته : بعد كثير من الشهداء المسيحيين ، انه منذ سقراط اكثر شهداء الحقيقة العلمية جلاء .

برونو (١٥٤٨ ــ ١٦٠٠) ولد في مدينة نولا Nola. منذ حداثته ، ارتدى ثوب الرهبنة الدومينيكية ، رهبنة القديس توما الاكويني ، والتي كانت منذ القرن الخامس عشر تقدم القضاة لمحاكم هيئة التفتيش . انفجر النزاع في وقت مبكر : برونو يهرب ، يترك الثوب الديني ، ويبدأ حياة تشرد ، حياة يصفها محبو الحياة في البيت بأنها « غير مستقرة » . حياة غير راضية ليس رداء فاوست السحري غائبا منها تماما ، حياة تقوده بين رجال غالبيتهم العظمى عاجزة عن فهمه . انه يعلّم في جنيف ، في لوفان Louvain ، فيهلمشتدت Helmstedt ــ جامعة هلمشتدت لم تختف الا في مطلع القرن التاسع عشر ــ ، في فيتنبرغ Wittenberg حيث يبقى وهلة لا بأس بها وحيث يعلن اطروحات اخرى غير اطروحات لوثر Luther . في باريس ، حيث برونو يعلم ايضا ، كان باستطاعته الحصول على كرسي استاذ لو تعهد بحضور القداس كل صباح ؛ لكنه رفض . ينتقل الى لندن ، حيث يجد لبعض الوقت استقبالا جيدا ، ليس في الجامعة او لدى البرجوازيين ، بل في بلاط اليزابيت Elisabeth التي القي عليها الحرم للتو . النبلاء المطلعون يفهمون ويتكلمون الايطالية ، لغة الاوساط المتعلمة في اوروبا . برونو ، رجل المجتمع ، يكتب في لندن ، بين مؤلفات اخرى ، « طعام اربعاء الصيام » ، الذي يحتوي على تلميحات كثيرة الى الحياة الانكليزية في زمنه. ان وغدا ، تظاهر بأنه صديقه واعلن اعجابه بحكمته ، نجح في اعادته الى ايطاليا.

في مدينة البندقية ، التي انتقل اليها برونو أولا بأول ، ترصده هيئة التفتيش وتقبض عليه في الحال . يطرد الى روما حيث يئن مدة سبعة أعوام في السجن . نملك وثائق البندقية القانونية ، اما وثائق روما فهي محفوظة في الفاتيكان ، بتعبير آخر انها خارج المتناول . الفيلسوف يرفض التراجع ، ويموت في يوم ١٧ شباط ١٦٠٠ (بعد موت سقراط بألفي سنة تقريبا) فوق محطبة الحرق ، في النقطة التي ينتصب عندها اليوم تمثاله . برونو ، لدى سماعه الحكم بالموت ، يلفظ هذا القول الرفيع: « انتم وتطلقون حكمكم خائفون اكثر مني وانا استمع اليه ! » . وحين يقدمون له فوق المحطبة (المكان الموافق جدا لمتطلبات المحبة المسيحية !) الصليب ، يدير رأسه جانبا .

بعض الملاحظات عن نصوصه تبدو لنا ضرورية : الفلسفة الحديثة لم تعد تستخدم ، ان صح القول ، من أجل التعبير عن فكرها ، الصيغ الصارمة المستعملة في العصور الوسطى . ما تقدمه لنا في نفس الروح الجامعات الكاثوليكية — رغم انها اصلح بكثير واكثر اثارة للاهتمام بما لا يقاس من الجامعات البروتستانتية — ليس سوى امتعة بالية كيفت ، على الطريقة الجيزويتية ، مع الحالة الجديدة . لقد بذل كثير من الجهد الماهر ، بعض المعضلات غير المحلولة عولجت على يد مفكرين مهمين ، مثلا سواريس Suarez في القرن السابع عشر في مدينة كويمبرا Coimbra البرتغالية ، في مؤلفه « محاولات ميتافيزيقية » ؛ لكن على العموم، لا نجد سوى تراكم لاطروحات اصابها العفن ، لتفاهات ومبتذلات على طريقة كتاب كاتيشسم Catéchisme (موجز تعليم ديني بالسؤال والجواب) يكرر بلا انقطاع نفس الاشياء . هذا « النيوسكولاستيك » ، اذا صحت هذه التسمية ، كان قد مهد الطريق للاقوياء في الانشاء وكان يعفيهم من الآلام والجهود والجسارات المخيفة التي طبعت السكولاستيكيين القدامى . والحال ، ان الفكر الجديد كان يحضر في شكل ابداع ادبي حر ، في شكل المحاورة والمحاولة . جوردانو برونو كتب اهجيات وقصائد تعليمية ومحاورات . مؤلفه الرئيسي يحمل عنوان : « السبب ، المبدأ ، الواحد » . الكاتب يسترجع شكل الحوار الافلاطوني . فالحوار الافلاطوني اكتشاف سعيد فعلا ، اذ انه يشبه المسيرة على خط ذروة جبل . ليس الامر عند افلاطون الباسا للمحتوى الذي يكون موجودا ايضا بدون حوار ، بل هو شكل محاور وجدلي لتقدم الفكر . ان شيئا من هذا النوع لم يحقق في يوم من الايام لا قبل ولا بعد افلاطون ؛ يمكن افتراض ان حتى محاورات ارسطو ، التي ضاعت ، لا تبلغ هذا المستوى . برونو لا يمكن ان يزعم ذلك ، اذ ان حواره يخدم جوهريا في الباس فكر اكتشف على نحو آخر . لكن حوار برونو يتسم بحيوية كبيرة ، اذ انه يضع على خشبة المسرح ، على غرار الكوميديات القديمة ذات الاسلوب الفوري ، نماذج واضحة الطابع . محاورة برونو المذكورة آنفا عن « السبب ، المبدأ ، الواحد » تضعنا في تماس مع الفيلسوف المدعي بولينيو ، الذي قرأ قليلا من كل شيء ، وهو شخص كان برونو يخصه ببغض شديد ، عدا عن المحاورات ، حرر برونو ، الذي كان يعلم في جامعات فيتنبرغ

وهلمشتدت ، كتابات صارمة ، باللاتينية ، جديرة بأن تحمل على محمل الجد . ان عددا من هذه الكتابات يتناول المعضلات الطريقية (الميثودولوجية) ، لا سيما « de signoreum et idearum compositione » («تأليف الرموز والافكار»)، وهو مؤلف يريد تحسين فن لـول Lulle ، الـ « ars combinatoria » (« فن التركيب ») الذي يرمي الى تسهيل تسلسل الفكر بأساليب ميكانيكية . فن لول وضع واحكم في القرن الثالث عشر على يد السكولاستيكي ريمون لـول Raymond Lulle الذي حاول انضاج نوع من آلة حاسبة أولى . المقولات الرئيسية ، والمقولات الفرعية ، والمقولات الخاصة ممثلة بثلاث دوائر ؛ بتغيير مكان هذه الدوائر بعضها نسبة الى بعض ، كان يجري الحصول على ادخال مقولات خصوصية في مقولات اعم . كان المؤلف يريد ان يبين بصريا بهذه الطريقة جميع العلاقات المنطقية بل وكل التراكمات الممكنة على نحو استنتاجي وميكانيكي. صحيح ان الهدف الاول لـ اول لم يكن كسب الوقت الناتج عن ذلك بالنسبة للعمليات الذهنية ، وان كان مؤلفه يحتوي في حالة بذرة ان صح القول على السيبرنيطيقا cybernetique المقبلة : ما يشغل قلبه كان اقناع غير المؤمنين ، المسلمين ، بمساعدة آلته ، بطابع الحقائق المسيحية الذي لا يدحض . الوسيلة انكشفت عن كونها أدوم من الغاية ، لكن هذا الاختراع هو أيضا في أساس معضلة ايجاد « caracteristica universalis » (تحديد كلي) التي اثارها لايبنتس Leibniz (٢) ، اي وضع واحكام « أبجدية افكار » يصبح بمساعدتها «الحساب» بأفكار مساويا في الدقة للحساب الرياضي . ان جوردانو برونو ، الذي كان مولعا بالمعضلات الطريقية قد انمى اذا فكرة من افكار لول ، صحيح ان هذا الجزء من عمل برونو ليس له سوى علاقة غامضة بفلسفته كما عاشت وفعلت حتى ايامنا . ان نصا آخر لبرونو ، ذا مدى ميتافيزيقي اكثر حسما ، يحمل عنوان : « de maximo et minimo » (« الحد الاقصى والحد الادنى ») ، ويحمل نص آخر عنوان : « de triplici minimo » (« الحد الادنى المثلث ») ، المؤلف كما سنرى في مكان لاحق من النقطة والذرة (atome) والموناد (monade) ويحمل نص آخر عنوان : « de infinito universo e mondi » (« الكون اللامحدود والعوالم ») . لكن المحاورات في « السبب ، المبدأ ، الواحد » تقدم لنا القسم الجوهري من فكر الفيلسوف .

تتذكرون ان فلسفة عصر النهضة قد استرجعت في بداياتها فكرة الـ Hen kai pan (الواحد ـ و ـ العام) لـ بارمنيد وجعلتها سلاحا ضد التعالي ، مشددة على الطابع الحصري للكوسموس (الكون) الذي لا يوجد الى جانبه شيء آخر (٣) . الواحد والكل تحركه نفس الحياة التي نحمل فينا . العاصفة تعيش فينا كعصف (نفحة) ، الانهار اوردة ، الصخور عظام ، الدماغ غيم وسماء ونجوم . هذا كله هو تعبير عن دخول كثيف للأنا في العالم الحاضر ؛ النباتات ، القمر ، الوادي ، الحجر ، تحيى كأنها اخوة . هذا الشعور بالقرابة كان قد تظاهر في وقت جد مبكر ، كما يشهد قول مدهش للقديس فرانسيس

الأسيزي François d'Assise (٤) ، حين ينادي في احدى اغنياته القمر والريح والارض بوصفها اخوة واخوات . لم تبق ثمة حاجة لاب مشترك كي يكونوا اخوة واخوات . الارتباط بين الخالق والخليقة ، الذي ابقي عليه في مستوى اللغة والاشتقاق ، كان يمحي في الصعيد العاطفي ؛ الخليقة ترتدي أهمية أكبر من الخالق . هذه العاطفة الكوسمية الجديدة (Weltgefuehl) كانت ذات اتجاه شمسمركزي ، والشمس هي التعبير المشع عن نور اصلي . تلك كانت الميول، التعاطفات ، الحماسات ، الاندفاعات الفتية التي كان برونو يشاطرها مع زمنه. لقد حولها الى اغنية حب للانتهائية الكوسمية ، كانت نبراتها جديدة بشكل مطلق. فلسفته فعل ايمان ، فعل ايمان من نوع لم يعرف من قبل بعد التأمل الطويل عن الما وراء الذي ساد العصور الوسطى واواخر العصر القديم . فلسفته تتجاهل تماما المسيحية ، حتى انها لا تفكر في السجال ضد الفكر المسيحي . لكنها تجهل ايضا وبنفس القدر الهروب الوثني خارج العالم الذي طبع العالم القديم في نهايته . عاطفته الحيوية التي تستجيب لطموحات النهضة تتصل بالفلسفة الايونية والصقلية السابقة لسقراط . رجل نولا ، المتحدر من « اليونان الكبرى»، كان يعي ذلك جيدا ، فهو يعامل فلاسفة ما ــ قبل ــ سقراط ك « أخوة » ويغدق عليهم المديح لكونهم شهدوا للحقيقة (٥) .

جوردانو برونو والمعرفة

برونو يثق بالدرجة الاولى وعلى نحو حاسم بالأدراك، بالعالم المدرك بالحواس. لكنه رغم حبه لكثرة العالم السعيدة ، يعي ، بحكم رغبته المفرطة في الرؤية والمعرفة ذاتها ، يعي ضيق وحدود وانتهائية ادراكنا ، خاصة في شكله الفردي . ان المظهر الخارجي للاشياء المدركة ، لئن كان فعلا نقطة انطلاق المعرفة ، الا انه لا يكفي : انه لا يستنفد محتوى الموضوع المدرك مباشرة ، ناهيك عن هذا الذي لا نستطيع سماعه ولا ابصاره ولا شمه ولا لمسه . لذا فقد استطاع برونو ، الذي يفر بفضل هذا الشعور بالاتساع واللامحدودية من سجن حساسيتنا الفردية الضيق ، أن يكتب على سبيل المثال : « بداهة لمن الحماقة ان نفكر مع جمهور الرعاع انه لا توجد مخلوقات أخرى ، حس آخر ، ذكاء آخر ، غير تلك التي نعرف ... » ، أو ايضا : « الاعتقاد بأنه توجد فقط الكواكب التي وجودها معروف لنا الى هذا اليوم ليس اعقل من تصور ان السماء لا تسكنها طيور اخرى غير التي تمر امام نافذتنا الصغيرة » . ان معرفتنا لا تغطي اذا سوى قطاع صغير حتى مما نبصر مباشرة ، انها ليست الا انعكاسا : وادراكاتنا الحسية لا تعلمنا عن الأشياء المخفية عن بصرنا . اذا تلزمنا « علاقة » أو « نسبة » وهذه « العلاقة » او « النسبة » لا يمكن ان تكون الا من طبيعة فكرية (« gedanklich ») الفكر وحده هو القادر على استجواب انطباعات السمع ، البصر ، اللمس، الذوق، الشم ، كما نستجوب شهودا ؛ هكذا يتعلم الفكر ما يستطيع الشاهد ان يقوله لنا

عن الذين ارسلوه والذين باسمهم يخاطبنا بحواسنا . فضلا عن الفكر نحن بحاجة الى مجازات او استعارات والى مضارعات او مشابهات كي تقبض على الدلالة الواقعية للذي تنقله الينا حواسنا ، وبرونو يستخدم على نطاق واسع هكذا استعارات. . رغم كونه مارس لحسابه الخاص فن التفكير بالحواس ، الا انه لم يعرضه في كتاب .

الحد الادنى ـ الحد الاقصى

برونو اسهب بشكل اكثر تفصيلا عن النقطة الثانية في مذهبه ، وهي الحد الادنى (minimum) والحد الاقصى (maximum) ؛ هذان المفهومان اللذان عرفا بسطا غنيا جدا واللذان لا يلفتان الانتباه بوجه عام حين يذكر اسم جوردانو برونو ، هما موضوع كتابات عدة : « الحد الاقصى والحد الادنى » و « الحد الادنى المثلث » . المؤلف تحدوه هنا ارادة مصممة على ان يكون ذاته ، لكن فكره يعكس مع ذلك العادات الاقتصادية الفردوية التي بدأت تجتاح المجتمع الايطالي . لولا ذلك لكان المظهر الخصوصي والفردي انحل بسهولة في المذهب الحلولي . والحال ، ليس الامر هكذا بتاتا ، ولذا يضع برونو التشديد على الوحيد ، الفريد، على المفرد ، على الادنى (minimum) الذي يحرر ويبرز بمعارضة الاتساع اللامتناهي ، الاقصى (maximum) ، يبين الوصلات والترابطات بين هذا وذاك ويشدد على وحدتهما . الادنى هو في كل الاشياء الجزء الصغير الأصغر ، بذرة الحياة المحددة فرديا ، الشكل الحي (Lebensgestalt) الذي لاصغر تفاصيله بنية فردية . اصغر ذبابة ، ريش عصفور ، كل حجر ، حتى اذا كانت فرديتها سريعة كالبرق ، هي معينة حتى في ادق تفاصيلها ؛ في ميدان الخاص كل شيء معين بوضوح ودقة . التكوين الهلامي استثناء كبير في مملكة الأشياء (لسوء الحظ انه شائع في مملكة البشر) . بوجه عام ، التفصيل يفرض نفسه ، انه مثمّن جدا في هذا العالم الحاضر ؛ وعلى عناصر الخاص ينطبق مذهب برونو الافتراضي . وهو يعرف الخاص بثلاث طرق مختلفة : كـ « نقطة » بحدود ومفردات الرياضيات ، كـ « ذرة » بحدود ومفردات الفيزياء ، كـ « موناد » بحدود ومفردات الميتافيزياء . هذه هي اول مرة تظهر فيها وفي هذا التعيين الموناد monade ، التي سوف يسترجعها حرفيا وفي مدلول جد مشابه لايبنتس . النقطة بتحركها تصير خطا ، والخط يصير سطحا ؛ الذرة بتحركها تشكل مع ذرات اخرى اجساما ؛ هكذا فالذرة متزاوجة مع المونادات تمثل بوصفها « نقطة حيوية » في كل الاشياء . لكن كيف يمكن تصور الاقصى ، الاكبر ، اللاانتهائية ، ازاء لاانتهائية المنتهي ؟ ـ ان لاانتهائية المنتهي هي التي تقدم لبرونو الانتقال الجدلي : اللامنتهي وحده ، يؤكد برونو ، يستطيع ان ينتج الفردي وهو بحاجة اليه . الاقصى هو نفسه غزارة اللامنتهي التي لا تنضب التي لا تتكرر بحالها ، التي تجهل كل القوالب ، التي تتعين عينيا في عالم ذي بنية فردية ، ذي شكل

فردي ، بحيث لا يمكن ان يوجد في العالم ، حسب صيغة انضجها. في وقت لاحق لايبنتس ، شيئان متماثلان . ان ثروة الكلي ــ الكوني وقوته الخالقة كبيرتان لدرجة انهما لا تنتجان شيئا عموميا بل فقط اشياء يختلف بعضها عن بعض ، وانهما تستودعان في كل جزيئة فردية جوهر الكلي ذاته . هكذا ، حسب برونو ، من اللامنتهي ــ الكلي ينبع المنتهي ــ الخصوصي ، والا لما كان هو اللامنتهي ــ الكلي.

لننظر بمزيد من قرب الى الهوية التي يضعها برونو مقابل « الحد الادنى » ، الى المتجانس الوحدوي الذي يدعوه « الحد الاقصى » ، الواسع الضخم الى ما لا نهاية (das allergroesste) . انه الكون ، الشامل مكانيا ، الـ « totum » او الـ « كل » المادي اللامتناهي الذي ليس فقط يعين (يشخص) لاانتهائية الحدود الدنيا الفردية ، بل هو يمثل ايضا وحدة الاندفاع الحيوي الذي يجتاز كايقاع ونبض وحدوي كل الميدان الفردي . على هذا النحو ، المتعدد لا يتفكك الى جزيئات متناثرة ، كل منها في اتجاه مختلف ، وقابلة للعزل عن واحد ــ عام الكل الكوسمي . ثمة لزوم لعصر النهضة ، لتفاؤله الكوسمي المنشأ والكوسمي والصوفي الجوهر ، كي يفهم العالم بوصفه « حدا اقصى » كهذا ، يحركه نبض حياة ، وهو تصور يعكسه مونولوج **فاوست** ، وكي يركن هكذا الى تناسقه الاخير. على هذه النقطة المحددة ، يسترجع برونو التأملات الهندسية لمؤلف من العصر الوسيط المشارف على النهاية ، هو نقولا دو كوزا Nicolas de Cusa ، الذي يحترمه برونو (٦) . منه يستعير الفكرة القائلة ان الحد الاقصى بوصفه كرة لا نهاية لها ، كرة « كل » ها (« واحد » ها) كلي الحضور ، يشترك مع الدائرة اللامتناهية في حقيقة وجود مركزه في كل مكان . بالتالي ، فان الكل (le tout) ، الكون (l'univers) يجد نفسه هو ايضا ممثلا في كل مكان : « omnia ubique» (« موجود في كل مكان ») ، حسب تأكيد نقولا دو كوزا . ان مشابهات من هذا النوع تصادف من قبل عند سيد اكهارت maitre Eckhart وعند الان ده ليل Alain de Lille ، مفكر القرن الثاني عشر الذي كان اول من قام بتأملات عن اللانهاية وبرهن مركزها الحاضر في كل مكان بنظرات هندسية ــ صوفية (٧) . هذا ما يفسر ايضا كلي ــ حضور « الاقصى ــ الكل » (« الاكبر ــ الكل ») في كل ادنى (اصغر) ، والعكس بالعكس ، وهي النظرية التي يعرضها برونو في كتابه « الادنى المثلث » : « في الكون ، المحدود لا يتميز عن اللامحدود ، الاكبر لا يتميز عن الاصغر . الاقدمون كانوا يعبرون عن هذه الفكرة بتأكيدهم ان « ابو الآلهة » له كرسيه جوهريا في كل نقطة من الكون » . هذا يفسر ايضا ، مع سند الى صيغة اخرى لـ نقولا ده كوزا ، الـ « coincédentia oppositorum » (« التطابق المتعارض ») ، التناسق الاخير (الانسجام الاعلى) او « السكون المتوازن » (« راحة التوازن ») في لامحدودية الكون ، الذي يتحدث عنه برونو. « كل خض ، كل صراع ، هو راحة ازلية في الرب الاله ! » . بهذه الكلمات ، التي تصدي بالتمام حساسية برونو ، تنتهي قصيدة لـ غوته . في منظور الكل المتصور كرة لا نهاية لها ، كل شيء يتطابق ، يقوم تناسق متولد من نبض ومن

صراع النقـاط ، الذرات ، المونادات ، المحدوديات . جـدل المتعارضين بلامسنـه المؤلف ليس اكثر ، انه لا يستنفد في العالم المحدود لكنه يخل في « كل » ه . تظهر نزعة نقدية ما ، سنعود اليها بالقدر الذي هي فيه تستهدف التفاؤل ، الذي منبعه هو اللامحدودية الكوسمية التي تضطلع بدور لامحدودية اله معوض .

لفي وقت متأخر فقطً اصبح اللامحدود (اللامنتهي) بوصفه كذلك موضوع فكر وتكريم . ان عالم العصر القديم كـان عالم الشكل ، البلاستيكية (التشكلية ، الطواعية) ، البنية . * péras (la limite الحد) ، * dros (la notion الفكرة او المفهوم) ، * morphé (la forme ، الشكل) ، وهـي مفردات حدبة ، يعتبرها الاغريق قيما عليا . اما الخواء (الاختلاط) ، البربري (العجمي)، الآخذ في الولادة ، فهي بل شكـل وبلا حد او نهاية ؛ فقط بالنسبة لـ آناكسيماندر Anaximandre لها معنى مختلف ، ولكننا هنا امام عناصر شرقية مضادة للذهن اليوناني . ان فكر الفلاسفة اليونان ، ايا كان الجيل الذي ينتمون اليه ، يدور دوما حول كائن ــ هنا مبنين . اجل ، الـ غير ــ مبنين يمكن ان يوجد ، لكـن كخواء او اختلاط ؛ لا يمكن آن يبلغ المناطق العليا ؛ زيوس Zeus ، والأولمب Olympe وقائع محددة جيدا ، محدودة جيدا (٨) . هذه الحالة لا تتغير الا تحت التأثير الشرقي : ان اله التوراة ليس فقط الاله المظلم الذي يختار السكن في الظلمات ، انـه ليس فقط الـ ــ غير ــ مرئي الكلي ــ القدرة ، بـل هـو ايضـا اللامحدود (اللامنتهي) . التحول القيمي التام الذي اجرته النيو افلاطونية يعزو للالهي ، وهو القيمة الأسمى و « منتهى الخير » ، طابع اللامحدود : المحدود ، المنتهى ، يصبح الحاجز السلبي ، انه لم يعد شكلا ، صار سجنا . والحال ، ان هذا المفهوم الوجدي للامحدود هو الذي ينقل ، في ايطاليا القرن السادس عشر ، من الاله الذي زال الى المحدود ، الى العالم ، الى الـ « هنا ــ تحت » («الدنيا» المنتهية) ؛ وهكذا ينتهون الى الفكرة المفارقة ، فكرة عالم غير محدود مفهـوم كمحدود غير محدود . كوبرنيك لا يذهب حتى ذلك : نظريته عن الدوران حـول الشمس كمركز لا تصيب القبة الزرقاء ، الافلاك تبقى جامدة في دائرة النجـوم الثابتة . لكن نظراته الفلكية لا تلبث ان تخلي المكان ، لنظرات اخرى ، انها تتجاوز بوضوح في النشيد الذي يوجهه برونو للامحدود الكوسمي الوحيد . يحتاج المرء الى جهد من الخيال كي يفهم المحتوى المعاش لهذا كله : القبة الزرقاء حرة ؛ «بصلة العالم » مع اغلفتها السبعة واضوائها البعيدة التي تنظر الينا عبر النجوم ، قد انشقت . سجن الأغلفة والكرات المقلق تراجع ــ او هكذا بدا ــ امام لامحدودية الاقصى الكوسمي ، لم يسبق ان شعر الانسان ذات يوم بمثل هذا الانطباع مـن لامحدودية فيما عدا الصوفي الغارق في لامحدودية الله . وها ان المرء يغطس بنظره فيها كلما تأمل ليلا قبة النجوم او نهارا زرقة السماء . التحرر لا يغـدو تاما الا في مذهب وحدة هوية الله والوجود ، في حلولية برونـو بادىء بدء ، ثـم سبينوزا ، وحتى هيغل فيما بعد : اذا صدقنا هؤلاء الفلاسفة ، العالم ليس جسد

---

* ــ بأحرف يونانية في النص

الله فقط بل هو يتطابق تماما مع هذا الذي لم يكن الى ذلك الحين الا ملكا لله وحده .

« الطبيعة الطابعة »
او المادية الحلولية

هكذا نصل الى النقطة الثالثة ، النقطة المركزية في فكر برونو ، النقطة التي كانت امتداداتها هي الاغنى والاكثر دواما : كيف يتصور برونو الحلولية التي استطاع ان يحيطها بكل هذا الاشعاع وهذه الفتنة لدرجة ان غوته حين يستدعي سبينوزا Spinoza فهو على الارجح يفكر ايضا بجوردانو برونو . غوته يرى جوهر الحلولية ليس « more geometrico » («حسب تقليد وسلطةالهندسة»)، بل ان نظرته تعكس النشوة الكوسمية لفيلسوف النهضة ، انه يؤوّل سبينوزا عبر حمية جوردانو برونو . والحال ، ان الحلولية هي ، ايضا ، حسب صيغة لـ شوبنهاور Schopenhauer ، الطريقة الاكثر تهذيبا في صرف الله . جوردانو برونو نفخ في الاله الحلولي لمبدأ « الواحد والعام » القديم حرارة اله كوني فاعل بحماس بوصفه « natura naturans » (« طبيعة طابعة ») . الطبيعة الطابعة هي الطبيعة الفاعلة كطبيعة ، هي الطبيعة الخالقة التي تشكل العالم ، التي بفضلها يشكل العالم ذاته بذاته . العالم هو ذات ذاته الذي يتشكل بفن : برونو وهو يدعو الطبيعة فنانا ، لا يعتبرها شخصا مفردا معزولا، وبالاحرى شخصا متعاليا ؛ انها بالنسبة له القوة الطبيعية على سبيل الامتياز . انها نسغ الشجرة الكوسمية، ليست كائنا يجذب العالم نحو الاعلى بموجب التصور الارسطوطيلي للعلاقة بين العالم والالهي ، التصور الذي يرى في الله « فكر الفكر » الذي نشاطه يقتصر على الفكر لكنه ، بحكم كماله ، يجذب العالم نحوه (٩) ؛ في هذا التصور يكون الله هو المحرك الذي لا يتحرك ، محرك العالم الذي ينطلق في حركة محمولة من الله نحو الله ، الكائن المتعالي عن العالم . هكذا كانت الفلسفة الارسطوطيلية تفهم الالهي . برونو المندار نحو المحايثة يستغني عن ما ـ وراء ، ليس في المنشأ بل في النهاية . برونو يقف بقوة أكبر ايضا ضد الرواية غير ـ الارسطوطيلية للما وراء ، ضد الما وراء التوراتي الموضوع في أصل العالم ، ضد الاله الخالق وضد فكرة خلق واحد وحيد . انه يستعيض عنهن على وجه التحديد بفكرة « الطبيعة الطابعة » بوصفها قوة داخلية ، محايثة للعالم تفعل في « الكائن ـ العالم » وحتى، اذا جاز هذا التعبير ، في ديمومة الفعل الكوسمي بذاته .

ان فكرة « الطبيعة الطابعة » (natura naturans) قدمها الى برونو فلاسفة العصور الوسطى العرب . لكن نجد تباشيرها عند ستراتون Straton ، الخلف الثالث لارسطو، وهي محتواة قبل ذلك في logos spermatikos * الرواقيين (١٠)،

* ـ بأحرف يونانية . لوغوس : عقل ، لغة (نطق ، منطق) ، الخ (فكر ، روح ، ربْط ، حساب) . سبرماتيكوس : منوي .

اللوغوس المنجب والباذر الذي ينتفخ في حضن العالم والذي يحمل الينا غوته صداه في**فاوست** : «انظر الى كل هذه القوة الفاعلة والباذرة وكف عن النبش في الكلمات!» .

هذه « القوة الفاعلة والباذرة » داخل الاشياء هي «اللوغوس المنوي» الذي ليس **قوة** فقط لكنه ايضا **روح من الطبيعة** ، بل انه يمثل ــ وهذا أمر غير مألوف ــ بوصفه نفس العالم المادية . مفهومة هكذا ، « الطبيعة الطابعة » تظهر بادىء بدء عند الفلاسفة العرب، عند ابن سينا، وفي شكل صريح عند ابن رشد وابن جبيرول (١١)، وهو فيلسوف يهودي اسباني طالما اعتبروه عربيا . والحال ، أن هذه الطبيعة الطابعة ، هذا اللوغوس هو ايضا أساس التلاحم الحيوي للعالم حتى البنى والاشكال الروحية ، هو المادة الخالقة والمخصبة التي تحوي في حالة بذرة كل الاشكال ، والتي ليس لها ، كما عند ارسطو ، شكل مفصول خارجها . ان نفس العالم الخالقة هي مادة كهذه ؛ صحيح انها عند برونو تتجاوزها أيضا بوصفها قوة موجهة ، لكنها تبقى محايثة لها ، انها ملك لها « مثلما القابض على الدفة ملك السفينة » . الامتلاء الحيوي لهذه المادة ليس ، كما يؤكد برونو بصريح العبارة ، « حفرة زبل مليئة بمواد كيماوية ، بل الرحم الحي ، عضو تلاحم كل الظاهرات » .

ايضاحا لكلامنا ، لنذكر بعض مقاطع من « السبب والمبدأ والواحد » . الحوار الثالث يتناول ، بشكل متردد اول الامر ، موضوع الشكل الخالق والمادي بأن بوصفه نفس العالم . احد المشتركين يقول: « النولي يفترض أن عقلا une raison انما يعطي لكل شيء طبيعته ــ الفيتاغوريون وال تيماو le Timée يدعونه «معطي الاشكال»(١٢)؛ ان نفسا une âme ، وهي مبدأ شكلي ، تكون وتبين كل الاشياء ــ أولئك أنفسهم يدعونها منبع الاشكال ؛ أن مادة une matière يصنع منها ويشكل كل شيء ــ الجميع يدعونها وعاء الاشكال » . ويلاحظ مشارك آخر : « هذا المذهب يعجبني لانه بلا فجوات أو نواقص . بما اننا نضع مبدأ ماديا دائما وازليا ، يجب بالحقيقة أن نؤيد كذلك مبدأ شكليا من نفس النوع . نرى في الطبيعة كل الاشكال تغادر المادة وتعود الى المادة ؛ لهذا السبب لا يبدو اي شيء دائما بالفعل ، ثابتا ، أزليا جديرا بأن يعتبر مبدأ ، ان لم يكن هو المادة حيث الاشكال تنشأ وتنعدم ، حيث من حضنها تظهر والى حضنها تعود . لهذا السبب يجب ان نقر للمادة ، المماثلة لذاتها دوما والخصبة دوما ، بالامتياز المهم ، امتياز الاعتراف بأنها هي المبدأ الماهوي الوحيد وبأنها هي الذي هو كائن وسيبقى كائنا على الدوام ، بينما مجموع الاشكال لا يمكن الاعتراف بها الا بوصفها التعيينات المختلفة للمادة ، التعيينات التي تأتي وترحل ، تنقطع وتتجدد ولا تستطيع ، لهذا السبب عينه ، التمتع باعتبار مبدأ (فالمبدأ هو ما يدوم) . لذا فان بعض الذين درسوا بعناية علاقة الاشكال في الطبيعة ، بقدر ما أمكن اشتقاق هذه العلاقة من ارسطو وآخرين ، قد انتهوا الى استنتاج ان هذه الاشكال ما هي الا اعراض وتعيينات للمادة ولهذا السبب عينه فان امتياز الاعتبار بمثابة الفعل والكمال (entéléchie) يجب ان يكون ملكا للمادة لا لاشياء نستطيع القول بالحقيقة انها ليست ماهية ولا طبيعة بل هي أشياء ملك للماهية والطبيعة . المادة وحدها ، على حد قولهم ، يمكن ان تكون هذا وذاك ، والمادة هي حسب رأيهم

مبدأ ضروري ، أزلي والهي ، كما عند هذا العربي ابن جبيرول الذي يدعوهـا الاله الكلي ـ الحضور » . واليكم مقطع آخر : « العقل الكلي هو القدرة الاكثر صميمية والاكثر واقعية والاكثر خصوصية وجزء قادر من نفس العـالم ؛ انـه هويـة تملأ الكوسموس ، تضيء الكون ، وتأمر الطبيعة بأن تنتج الانواع كما يجب ان تكون . انه نسبة الى انتاج الاشياء في الطبيعة ما ذكاؤنا هو نسبة الى انتاج مفاهيم الاجناس من قبل عقلنا . الفيثاغوريون يدعونه محرك ومحيي الكون ، والشاعر يعبر عن ذلـك بهذه الكلمات : « منتشرا في كل الاطراف ، العقل يحرك كتلة الكوسموس وينفذ في الجسد » (ملحمة الاينييد Enéide ، الجزء السادس ، ٧٢٦) (١٣) . الافلاطونيون يدعونه مهندس العالم ... أما السحرة فيدعونه البـذرة الاخصب أو « الباذر » ؛ فهو الذي يملأ المادة بكل الاشكال ، ويقولبها بالطريقة وفي الشروط التي تشير اليها هذه الاشكال ، ويغمرها بترتيبات عجيبة من غير الممكن أن تعزى الى الصدفة ولا الى اي مبدأ آخر يعجز عن الفصل والتصنيف ... نحن ندعـوه **الفنان الداخلي** لانـه يشكل ويقولب المادة من الداخل ، لانه ينتج ويبسط من داخل البذرة أو من الجذر الجذع ، ومن داخل الاغصان البراعم ، لانه يشكل ، كما ذهابا من حياة داخلية ، الاوراق والازهار والثمار ، ويقولبها ويخالطها فيما بينها ، ولانه يقود ويعيـد فـي أوقات محددة النسغ من الاوراق والثمار الى الاغصان ومن الاغصان الى الفـروع ومن الفروع الى الجذع ومن الجذع الى الجذر » .

ان مقطعا آخر لجوردانو برونو مأخوذا من كتاب : « المحيي أو دفاع عن بعض أطروحات النولي » يتصل على نحو أخص بموضوع الحلولية : « اعتبارا من هنا ، الروح واعيا قوته سيجازف ويطير نحو اللانهاية ، لانه كـان محبوسا في أضيـق السجون ، كان مقهورا على ممارسة طاقته البصرية من عينيه الحسيرتين ناظرا مـن خلال فجوات وثقوب الى شرارات الضوء النائية التي هي النجوم ـ فضلا عن ذلـك كانت أجنحته ان صح التعبير مقضومة بسكين ايمان غليظ وروتيني كان يركم بيننا وبين روعة آلهة غيورة سورا من ضباب ، كان يشيد جدارا من غيوم بعنـاصر مـن خيالنا ، جدارا كان يعتقده من حديد وفولاذ . لكنه وقد تجرر من فزاعة الموت ، من غضب القدر ، من أحكام الرصاص ، من سلاسل ربات الانتقام ، من خيالات حـب متحيز ، ينطلق نحو الاثير ، يجتاز الفضاءات اللامتناهية لاكوان هائـلة الاتسـاع والعدد ، يزور النجوم ، يتخطى حدود الكون الخيالية . ان جدران الكرة الثامنـة والتاسعة والعاشرة وكثيرا غيرها أيضا التي اخترعها هذيان الفلاسفة والرياضيين ، قد تلاشت . بفضل تنقيب ترشده الحواس والعقل معا ، ستفتح أقفال الحقيقة ، سيعاد البصر للعميان ، واللسان للبكم ، والمشلولون العاجزون عـن التقدم الروحي سيسترجعون ما يكفي من القوى ليزوروا الشمس والقمر وسواهما من منازل الآب الكوني ، وهي منازل شبيهة بتلك التي نسكنها ، والتي هي أصغر وأكثر تواضعا ، لكنها أيضا أكبر وأروع ، في تدرج ليس له نهاية . على هذا النحو ، سنتوصل الى رؤية أجدر بهذه الالوهة وبهذه الام ـ الطبيعة التي تنجبنا في حضنهـا ، وتجعلنـا نعيش وتأخذنا ثانية ، ولن نعتقد بعد ذلك ، في المستقبل ، أنه توجد أجسام بـلا

نفس ، أو أن المادة ـ كما يؤكد بعض الكذابين ـ ليست الا حفرة زبل مليئة بمواد كيماوية » .

ينبغي أن تنور مادة العالم باشعاع شديد حتى يمكن اعطاؤها تأييدا تاما . برونو يخوض النضال ضد المادية المدمرة ، أي ضد مادية تمكن العالم وتماثل المادة بجوهر ميت ، باسم مادية حلولية تعيد الى المادة حق البكرية التي اغتصب منها ، حسب مفردات طبيعاني انكليزي ، على يد جميع « يعقوبات » اللاهوت (١٤) . المادة المسكينة ، التي يقال عنها « رمادية » ، « ثقيلة » ، « رصاصية » ، « ميتة » ، « غليظة » ، جوردانو برونو هو الذي ينقذها بتقديمها في المنظور السابق لسقراط والموصوف بالمنظور الوثني ـ الجديد ، منتزعا من التعالي ما كان قد سرقه من المادة . فويرباخ كان يسعى تحت شكل مختلف الى هدف مشابه حين كان يجهد لان يعيد الى البشر ثروة السماء المتعالية ، حلم النفس البشرية الجميل . يمكن ان نقول أيضا عن مادة برونو ، مسترجعين قولا لماركس الشاب ، انها تبتسم للانسان في بهاء شاعريتها الحسية . ذلك هو موقف النهضة ازاء المادة . الأزلية نصيبها ، في الزمان كما وفي المكان ، بوصفها « طبيعة طابعة » و « طبيعة مطبوعة » (natura naturata) . صحيح ان كل ذلك كان يصب على حلولية غير راغبة في وضع بداية للمادة ، لكنهاأقل رغبة أيضا في التفكير بنهاية لهذا الكون المشع ، على تقوى كونية وكوسمية ، تحول نظر الانسان القادر على تحويل كل شيء ، وهي وتبقى ستاتيكية أسوة بمجمل محتواها المعتبر محققا ناجزا .

حدود حلولية جوردانو برونو

هذا السطوع الشديد اللمعان للشمس ألا يؤدي الى امحاء ما للانسان ؟ لنتذكر بومبونازي : ثمة عنده قاع من تهليل يفسر بالتوكيل السياسي : يجب تحرير الانسان من ارهاب الجحيم والمطهر ؛ هذا التحرير كان سلاحا ضد الكنيسة وسلطة مفاتيح القديس بطرس . عند برونو ، التهليل هو تهليل الوثينية ـ الجديدة ، التي هي أيضا سياسية ومناهضة للاكليروس ما دامت تفتح الكوسموس للمنظومة الكوبرنيكيةضحية الحرم ؛ انها ترمي على الارض الى تبيان ضلال الصليب وأكثر أيضا ضلال الكنيسة المؤسسة جوهريا على الجلجلة ، الى ردها وحصرها في ركن ضائع من وجداننا وأكثر أيضا في ركن ضائع من الكون المنتشر في آلاف الشموس . بقي أن نحدد موقعها لهذه الارض ، « الركن » العادي لا أكثر ، ومعها لكل شؤوننا ولكل أهدافنا الكبيرة . بالواقع ، جرى في الوقت نفسه أخذ وعي فراغ الكون ، وعي الضياع الكوسمي للانسان . لم يكن ثمة توافق بين هذا الموضوع الهائل الضخامة والذات الانسانية ، توافق كان يمكن ان يكون بمثابة مواز لل « moralitas animae » لـ « أخلاق النفس » . كانت القضية بالاحرى خلق رابطة جديدة ، تأسيس الكون على مستوى جديد ، غير ستاتيكي : الانسان كسؤال ، الكوسموس كجواب ، لكن أيضا العكس : الكوسموس كسؤال ، الانسان كجواب، ذبذبة بين الذات والموضوع.

تأقلم للانسان ، تأنسن للطبيعة ، لا يؤديان بالضرورة ، بعد الغاء وتبديد حلولية نوعا ما بطليموسية بل وكل حلولية ، الى العدمية . انهما بالعكس يسيران جنبا الى جنب مع تأمل نشيط للانسان بوصفه « صانعا حقيقيا لسعادته » ، مع غائياته الاجتماعية والثقافية على الارض ، مع « طبيعة طابعة » حقيقية ، أي « سوبر طابعة » « super naturans » ، « فوق ـ طابعة ») ، اذ أن هذا وذاك، الانسان والعالم، ليسا ناجزين ،بل ما زالت أمامهما امكانية عيانية لعقد تحالف جديد وجوهري بالتمام .

الحماسة البطولية

أريد أن أجعل محسوسا للقارىء الهيجان أو التأثر الذي كرس له جوردانو برونو مؤلفا على حدة : انه الهيجان الذي هو العلامة المميزة لحلوليته . يصفه بأنه « غضب بطولي » أو « حماسة » أو « فضيلة بطولية » . انه بطولي بهذا المعنى وهو أنه لا يطمع كالفضائل المسيحية في ثواب السماء الذي تعدها به الكنيسة ، بل هو يكفي نفسه بنفسه . هذه الفضيلة فيها ما يثير حماسة حكيم هذا العالم الذي ينصهر في الكون دون الاكتراث بجمهرة التفاهات الفردية وبنقائص الوجود . لتمنعنا ذبابة من رؤية الشمس ، وتستطيع اليد حجب قبة السماء برمتها . ان كل هذه العوارض المباشرة ، البائسة، الموقتة ، تتلاشى بالنسبة لمن يستطيع ان يشارك، باندفاع قوي على نحو كاف ، في الحماسة البطولية . اذا فهذه الحماسة هي في تحليل أخير حماسة كوسمية ، يحتفى بها ، في أخلاق جوردانو برونو ، في منظور استيطيقي ؛ اذ انها تعقد قرانها على العالم المعتبر عملا فنيا هائل الاتساع . ان حماسة من هذا النوع يتواصل صداها وتنال الشعبية بقلم الفيلسوف الانكليزي شافتسبري Shaftesbury الذي ، حوالي سنة ١٧٠٠ ، تبنى كلمة « حماسة » معطيا اياها قيمة استيطيقية في اتجاه ما قلنا لتونا ؛ انها تظهر عنده كأنها مقترنة بجمال العالم ، بتفاؤل مروحن ، قادر على تحويل وجه الكون . على يد شافتسبري تصل هذه الحماسة الى شيلر Schiller الشاب ؛ نصادف في رسائل هذا الاخير الفلسفية ، في المراسلة بين يوليوس ورافايل ، مقاطع تردد بالنص تقريبا أفكار وعواطف جوردانو برونو .

لكن لنعط الكلام لبرونو ، لننصت الى قصيدين من قصائده طبعا بهذا العنفوان البطولي » ؛ أنهما يسمحان بتكوين فكرة عن عبقرية هذا المفكر المتعددة الوجوه وعن غنائه الكوسمي الذي يتعبر فيه التهلل الطبيعي لـ « أكبر » جديد في كل « الأصغرات » ، وكأن « بان » Pan غوته وهلدرلين Hœlderlin قد ظهر من الآن (١٥) .

جوردانو ابن نولا يلتمس مبادىء الكون :

مقيما بعد فوق الارض المخضوضة ، بالقرب من ضفاف نهر النسيان ،

ماردا ، ارتفعت الى ملاقاة النجوم !

أيتها النجوم الشاردة ، انظري الي داخلا في افلاكك ،
فانت وحدك تفتحين لي طريق الحرية ،
ولتفتح لي نعمتك باب النوم المزدوج ،
حين سأنطلق عبر الفضاءات الخاوية .
ما يحفظه الزمن البخيل مغلفا بالحجب ،
ليسمح لي بأن أحمله من الظلمات الى الضوء الفرح !
أيها الروح الخائر ، هل تخشى القيام بهذا العمل الرفيع ،
لان الدهر لا يستحق ذبيحة كهذه ؟
أيا كانت سماكة الظل الذي يغطي الارض ، انت أيها الاولمب ،
ارفــع رأسك نحـو الاثير !

والشاعر يلتمس روحه :

جذورك ، أيها الجبل ، تغطس ، عميقة ، في الارض ،
لكن قمتك تنطلق نحـو النجـوم ،
أيها الروح ، مرتفعات الكون تذكرك بالحد الذي يفصلك ،
انت القريب جداً من الاثنين ، عن اله الجحيم وعن رب الآلهة ،
كي لا تضيع حقوقك وتستسلم بكسل
للعار ، كي لا تغرق ، محملا بالغبار ، في أمواج نهر الجحيم .
لا ! أنظر الى السماء . ابحث في السماء عن وطنك ،
فاذا ما مسك اله أصبحت لهيبا وجمرا !

لنضف كخاتمة ، قبل تركنا جوردانو برونو : نعم ، يجب ان يكون العالم مثيرا لحماس بهذا القدر ! بالواقع ، ليس هكذا ، الظروف لا تتيح مثـل هذا الحماس ؛ لكن تعبير الرغبة ، التعبير الخياري عاش وتخطى الطنين الوجودي لبرونو . بفضله يكون ممكنا ، برغم أو بحكم جميع دواعي الحـداد ، صوغ مسلمـة تفاؤل كوسمي متطلب ، بوصفه مهمة أولية ودائمة . للتوصل الى ذلك ، المطلوب ان تشمل فـي « الطابعة » المعضلة الواقعية ، معضلة « طبيعة سوبر طابعة ، سوبر مطبوعـة » ؛ كلاهما تنتميان ، حتى في شكلهما التمهيدي ، الى ميدان الطبيعة التي تعبـر عـن ذاتها في الف صورة محببة (١٦) .

٤ توماسو كامبانلا

نتناول عصرا جديدا وصورة أخرى للعالم حين ننحني على توماس كامبانيلا Thomas Campanella (١٥٦٨ – ١٦٣٩) وعلى كونه المغلق بدقة . ولد في الكالابر Calabre غير بعيد عن مسقط رأس جوردانو برونو ، لكن بعده بمئة عام ، في الوقت الذي سقطت فيه ايطاليا تحت التبعية لملك اسبانيا. صار دومينيكيا مثل برونو ؛ اهتم بالسياسة ، قدم نفسه في وقت مبكر كمصلح للعالم ، واشتبه فيه بأنه متورط في مؤامرة ضد السيطرة الاسبانية ؛ القي به في السجن حيث أمضى سبعة وعشرين عاما من حياته ؛ خضع للتعذيب سبع مرات . بفضل تدخل البابا لدى عرش اسبانيا خففت شروط حبسه بعض الشيء . أخيرا ، أطلق سراحه فرحل واقام في باريس بعد أن قدم لـ ريشوليو Richelieu اهداء كتابه « de sevru rerum et magia » (مس الأشياء والسحر) ؛ بلاط فرنسا غير غريب عن تحرير مؤلفه الشهير « civitas solis » (مدينة الشمس) ، فقد طاب له أن يحيي في ولي العهد الطفل، الذي سيكون لويس الرابع عشر ، ملك « دولته – الشمس » . هنا عدا ذلك أصل لقب « الملك – الشمس » الذي أطلقه مؤرخون مفرطون في المجاملة على لويس الرابع عشر والذي احتفظ به الملك المذكور الى أيامنا (١) .

ان الأسباب الحقيقية لحبس كامبانلا لم توضح تماما في يوم من الايام ؛ بعض وجوه هذا الفصل من حياته ملغزة : صك الاتهام يؤكد مرارا انه حاك مؤامرة ضد السيطرة الاسبانية بل – وهذا كان يعتبر جرما أخطر بكثير ، الا اذا كان مقترفوه أمراء – واستنجد بمعونة الاتراك . لكن بندي الاتهام لا يبدوان معقولين ؛ والتهمة تبدو اشد غرابة أيضا حين نتذكر ان الرجل الذي احتفظ به الاسبانيون مدة سبعة وعشرين عاما في السجن كان قد صاغ، قبل اعتقاله، بل وبعد اعتقاله، في غياهب السجن ، أفكارا كانت تسوغ أن صح القول السيطرة على العالم من جانب اسبانيا . فهو صاحب « المونارشية الاسبانية » (Monarchia Hispanica) التي ليست سوى دفاع عن الدولة المركزة التي كانت تتهيأ . المركزية خطت خطوات سريعة في فرنسا وفي انكلترة بفضل الحلف السياسي – الاقتصادي بين المونارشية والبرجوازية ، بينما ظلت المانيا المجزأة على هامش الحركة لم يكن ثمة

برجوازية في اسبانيا ، لكن فكرة الدولة المركزة المتولدة من الاقتصاد المانيفاكتوري ومن ميله الى خلق وحدات اقتصادية مغلقة ، انتشرت في اسبانيا تحت شكل بنية ـ فوقية سياسية ، وان كانت الاسس غائبة . كتاب «المونارشية الاسبانية » نشر في مطلع حرب الثلاثين عاما ايضا في المانيا حيث أثار هلعا حقيقيا: هذا المؤلف كتاب مظلم يقرع أجراس كل الحريات ، يستوحي كما يبدو طرق حكم الـ آلبا Albe (٢) . الفرد ، الطبقات ـ الأصناف ordres ، امتيازات النبلاء ، لكن ايضا حقوق الفقراء النحيلة ، ملغاة ، وقلما يلهو المرء في عالم وضع تحت الخطوة العسكرية بقسوة وفيه موضوعات التعبد الوحيدة هي انضباط حديدي والوسائل المرعبة للمحافظة عليه . بعض المؤرخين ، خاصة ماينكه Meinecke ، افترضوا أن كامبانلا ربما لعب لعبة مزدوجة . أراد ان يستخدم الاسبانيين وفيما بعد الفرنسيين من أجل تحقيق يوتوبيته عن « دولة ـ شمس » ، مع نية التخلص فيما بعد من أولئك الذين ساعدوه في تنفيذ مشروعاته ، بتعبير آخر خيانتهم ، ربما حافظا في ذهنه فكرة أن يجعل من البابا سيد العالم ، أو حتى أن يشيد نفسه مسيحا سياسيا ، « ميتافيزيقوسا » (« Metaphysicus ») أو « روحا ـ شمسا ـ ما وراء طبيعة » أؤتمن على رسالة اضاءة الكون . اليوتوبيون (الطوباويون) الاجتماعيون عندهم أحيانا ميل ما الى البارانويا (٣) . لعبة كامبانلا في هذه الحال تكون شبيهة باللعبة التي أراد لاسال Lassale أن يلعبها مع بسمارك ؛ من كان الخداع ؟ بوسعنا ان نتساءل . لكن هذا كله ليس واضحا . الامر الاكيد هو أن مونارشية كتاب كامبانيلا كانت تريد نفسها **مونارشية كونية** لا يوجد فوقها سوى البابا : في الواقع ، كانت القضية حقا سيادة اسبانية على العالم أجمع .

من الممكن ان يكون لاعتقال كامبانيلا سبب آخر : فقد كان كامبانيلا خصما معلنا للارسطوطيلية وبحكم ذلك ايضا لفيلسوف رهبنته الموثوق ، توما الاكويني . كان يدافع عن صيغة وفكرة من شأنهما أن تجذب الى صاحبهما متاعب خطيرة في عصر كان فيه عمل هيئة التفتيش على اشده . هذه الفكرة ، التي كانت اقرب الى جوردانو برونو منها الى توما الاكويني، كانت تتعبر في صيغة الـ « liber naturae » « كتاب الطبيعة » ؛ الصيغة توحي بوجود كتابين مقدسين ، الكتاب المقدس la Bible ، « كتاب الكتب » ، و « كتاب الطبيعة » . حسب كامبانيلا لا يمكن ان يكون هناك أدنى تناقض بين الكتاب المقدس و « كتاب الطبيعة » ، بحيث ان الذي يقرأ « كتاب الطبيعة » فقط لا يقل اطلاعه على الوحي الالهي من قارىء الكتاب المقدس . من الممكن اذا ان يكون هذا المذهب قد خدم كذريعة لاعتقال كامبانلا ، على الرغم من دفاعه عن بابوية استبدادية وسلطوية . لا شيء يبرهن على أن الفيلسوف قد القي به في السجن لهذا السبب فعلا ، لكن هذه الفرضية ليس فيها أي شيء غريب شاذ ، حين نعلم بأي تدقيق كان رجال التفتيش يسيرون أعمالهم . في باريس، حيث نجح كامبانيلا في ايجاد ملاذ ، لم يعد يقلق وهنا توفي . لنفحص كتاباته الأهم ، بالدرجة الاولى الأجزاء الاربعة من مؤلفه « philosophia realis » (الفلسفة الواقعية) الذي يشتمل كتابه الثالث على ملحق بعنوان : civitas solis

(مدينة الشمس) . وان مؤلفا آخر يحمل عنوان : « universalis philosophia partes tres » (الفلسفة الكونية في ثلاثة أجزاء) .

نقطة انطلاق المعرفة

يقين الأنا

نقطة انطلاق مذهب كامبانيلا هي ايضا عنصر ذاتي : فكره لا يتناول الموضوع من الخارج واقل ايضا من فوق ، بل يستند ، بالطريقة البرجوازية ، الى انا الفرد ، الى الذي يجده الفرد في نفسه ، اذن على « الخبرة ـ الذاتية » ، على « يقين الذات » ، اي على يقين وجوده الخاص . هذا اليقين للأنا هو اصل ومنبع كل اليقينات الاخرى التي يقينها اقل ؛ انها تنبع منه ولاديا دون ان يكون ممكنا اشتقاقها أو استنتاجها منه . ان نقطة انطلاق كامبانيلا ليست الا في الظاهر قريبة ذاتوية ديكارت : « cogito ergo sum » (« انا افكر اذن انا كائن ») او ، ونستخدم الصيغة الكاملة ، « dubito , cogito ergo sum » (« انا اشك ، انا افكر ، اذن انا كائن ») ؛ هذا يعني : استطيع ان اشك في كل شيء ، لكن ليس بوسعي ان اشك في شكي ، فشكي يقين . يستطيع فكري ان يضع كل شيء موضع سؤال ، لكنه لا يستطيع ان يضع فكري موضع سؤال . ينجم عن ذلك ان فكري هو اليقين الاول ، الحقيقة الاولى الابتدائية لوعيي . كما ان غاليله Galilée يتصور الحركة مشتقة من دفعاتها الأبسط وفي وقت لاحق ، بعد اختراع حساب التفاضل ، من المتفاضلات ، كذلك ديكارت يشتق العالم من وعي هذا العنصر البسيط الذي هو الـ « انا افكر » ويؤسس عليه بانماء منهجي كل المعرفة . بالنسبة لديكارت ، ليس هذا البتة طريقة سيكولوجية بل هو طريقة ذهنية ـ فكرية حصرا . بالنسبة لكامبانيلا ، نقطة الانطلاق ليست نفسها : يقين الأنا سيكولوجي محض ، له قيمة تجربة منيرة على الصعيد الشخصي ، ولكنه لا يضيء شيئا على الصعيد الموضوعي ، على منوال برهنة رياضية . كامبانيلا لا يرمي الى اية بداهة رياضية ، بل يستند ـ مثل اوغسطين ، مخترع الجوانية ، الذي استطاع اجراء هذا الاختراع بفضل المسيحية ـ الى تجربة نفسية وشخصية (٤) . كامبانيلا اذا يرجع الى اوغسطين اكثر بكثير مما هو ينبيء عن ديكارت ، يبقى مع ذلك ان ذاتويته برجوازية الالهام ، يغذيها الأنا ، وطاقاته واعراضه .

قدرة ، علم ، ارادة ، انتهائية ، عدم

والحال ، ان الامر الجوهري الذي أجده فيّ منته ومحدود ، منته ومحدود في نشاطاته وملامحه الاساسية الثلاث ، في قدرته وعلمه وارادته . احفظوا جيدا هذه الثلاثية فهي تجتاز كل مذهب كامبانيلا . القدرة (السلطة ، pouvoir هي القوة (الاستطاعة ، puissance) ، العلم (المعرفة savoir) هو الحكمة ،

الارادة (vouloir ، المشيئة) هي المحبة التي مرت بالحكمة . السمات الاساسية الثلاث والفضائل الاساسية الثلاث هي اذا القوة والحكمة والمحبة ؛ يمكن ان نتساءل ما اذا كانت « القوة » (الاستطاعة ، الطاقة ، « puissance ») يمكن ان تعتبر دونما تفسير آخر فضيلة . بما اننا « منتهون » بالتساوي مع كل اشياء هذا العالم ، فكل من هذه الفضائل الثلاث توازيها لا ــ قيمة : القدرة ــ العجز ، الحكمة ــ الحماقة ، المحبة ــ البغض . ليس ثمة فقط تعارض بين هذه وتلك ، بل ان العجز والحماقة والبغض مرتبطة صميميا بانتهائية سلطتنا وعلمنا وارادتنا. صحيح ان الانتهائية ليست قدرا محتوما ، فهي ليست كذلك الا بالقدر الذي فيه تستهدف سلطتنا وعلمنا وارادتنا ، في الزمان وفي المكان ، شيئا ما منتهيا . اما حين ، بالمقابل ، ننطلق بقوة وحكمة ومحبة نحو الجوهري اللامحدود ، فان العجز والحماقة والبغض يتناقصن . اذا العنصر السلبي له أصله والمحدودية البشرية ، حيث ان العجز والحماقة والبغض هي الـ « non ens » (« لا كينونة » « ليس ») ، « العدم » ، « الذي يحد » ، فينا .

المسيحية تجعل من الاستطاعة السلبية العنصر « الشيطاني » ، الروح الذي ينفي ، التناقض بمعنى « الفعل ــ المضاد » ، الذي هو أيضا محمول لمقولة الشيطان الاسطورية . بالنسبة للمانوية (manichéisme) ــ وتأثيرها على المسيحية اكيد ــ العنصر السلبي هو أهريمان ، اله الظلمات ، اله التشوه بالولادة والطاعون ، اله الشر بذاته ، الذي يعارض اورموزد ، اله النور والسعادة والامتلاء (٥) . كامبانيلا يدخل هذا العنصر الميتولوجي في « قواه الجوهرية » ، السلطة والعلم والارادة ، المعتبرة من قبله « أوليات » الكينونة ، بدون ان يلفظ كلمة « شيطان » . بدلا منها وعوضا عنها ، يستخدم مصطلح « nihil »(عدم)، وهو مفهوم محض فلسفي . العدم موجود ايضا في الفلسفة اليونانية ، حيث يتخذ شكل « الفراغ » ، « الهوة » ، الخواء (الاختلاط) عند افلاطون ، شكل « العارضات المكرة » عند ارسطو ، التي تجعل ان امكان كمال ، ان كائنا ، لا يبلغان الكمال ، الامر الذي يترجم مثلا بتشوهات وحيوات جهيضة . الفلسفة اليونانية تعرف اذا العنصر المعكر ، لكنها لا تصوغه ابدا بنفس الوضوح الذي يصوغ به كامبانلا « عدم » ه . في العصور الوسطى ، العدم يبرز في الشكل الميتولوجي للعدو ، لكن العالم ــ الاعلى يحيده ، يبطله ، يلغيه في كل مكان . فقط في أواخر العصور الوسطى يصير العدم عنصرا مكاملا في خلق العالم ذهابا من العدم ؛ اذ ان الـ «nihilo» (عدم) في جملة « Deus mundum a nihilo creavit » (« الله خلق العالم من العدم ») لم يعد يعني فقط الاختباط والاختلاط والفراغ الاصلي الذي الغاه الخلق ، بل عدما ، مادة اولية محتواة في كل اشكال العالم . الانتهائية والمغايرة تولدان من الـ « nihil » (العدم) : « Alteritas ex nihilo oritur » (« المغايرة ولدت من العدم ») ، يقول نقولا دو كوزا . غيابات الـ « واحد » (« unum ») تستمد اصلها في آخر تحليل من عائلة العدم ، احد تلاميذ نقولا دو كوزا، واسمه كارولوس بوفيلوس Bovillus

(١٤٧٢ ـ ١٥٥٣) ، كرس للعدم مؤلفا خاصا عنوانه « de nihilo » (« عن العدم ») . كامبانلا يوقظ نوعا ما فلسفة نهاية العصر القوطي كما كانت قد عبرت عن نفسها بواسطة نقولا دو كوزا ، فلسفة كانت توافق جيدا الشعور الحيوي للعصر الانتقالي بين النهضة والباروك Baroque : هذا العصر اكتشف ثانية على يد تاريخ الفن ودعي « maniérisme »(٦) . وجملة « Et in Arcadia ego » (« وأنا أيضا عشت في بلاد اركاديا ! ») (٧) التي كان العصر المذكور يعطيها معنى آخر غير معنى شيلر Schiller ، اذ يربط بصورة بلاد اركاديا العدم ، رأس ميت ، تصادف بالضبط عند كامبانلا . ومع ذلك ، ان فكر النهضة يتظاهر عنده في اتجاه عام يريد الغاء هذا « العدم » ، هذا العدو للقوة والحكمة والمحبة ، بالـ « virtu » (« قيمة » ، « شجاعة ») ، الـ « virtu » التي هي، حسب سبينوزا ، الانفعال الذي يناسبنا اكثر من اي انفعال آخر . العدم أمامنا لكي يباد ، لكي يقتل ؛ فبالعدم تظهر ــ كما على خلفية سوداء ــ القوة والحكمة والمحبة .

ضرورة ، قدر ، تناغم

بما أن السلطة والمعرفة والارادة قد غيرت ، بفعل عملية نقل محول ، الى قوة وحكمة ومحبة ، فالقوة والحكمة والمحبة هي من جهتها بحاجة الى ان تنقل الى مستوى فلسفي اعلى حيث ترتدي طابعا ظافرا يتيح لها الصمود للعنصر السلبي . من القوة والحكمة والمحبة تنبثق هكذا ثلاث مقولات جديدة ، او بشكل ادق ثلاثة تعيينات اكثر سموا واكثر تحددا لهذه المقولات، الا وهي « necessitas » (« ضرورة ») ، « fatum » (« قدر ») ، « harmonia » (« تناغم ») « ضرورة » هي التعيين السببي الذي يفرض ذاته ، الذي يمارس سلطته على العالم ؛ « قدر » ، ويفترض فيه انه يمثل الحكمة ، (* ؛ « تناغم ») هو تعيين المحبة ، هو النظام المتولد من الحب . الثلاثة معا تشتمل على عنصر جديد ، هو تتويج القوة والحكمة والمحبة بالنظام : سوف نرى ان النظام هو المبدأ الاساسي لفكر كامبانلا . هذه التعيينات الثلاثة يجربها او يغريها بالتساوي العدم الذي هو في حالة تخالط معها . عدو « الضرورة » ، الذي ينفذ الى تطويقها جزئيا هو الـ « contingentia » العرض ، الصدفة ؛ والحال ، ان الصدفة تأتي دوما من الـ « nihil » من العدم . الـ « fatum » (« قدر ») تعارضه الـ « casus » (« حالة ») اي الحالة الخاصة ، الحالة النوعية ، الاستثناء . « التناغم » (تناسق ، انسجام) تعارضه « fortuna » ، اي الحظ ، النصيب ، الثروة ــ « fortuna » هي التوزيع الاعمى للحظوظ ، وهي ليست ــ في هذا السياق ــ الالهة حاملة قرن الوفرة ، بل هي الثروة النزوية التي تعطي وتوزع بلا تمييز ولا

* ــ في الطبعة الفرنسية ، سقط ــ كما يبدو لي ــ سطر يضم خبر المبتدأ ، ثم مبتدأ الجملة التالية . أضفت هذا المبتدأ : « تناغم » . بالطبع ، القراءة الاخرى ممكنة ، من الناحية اللغوية .

عدل ، هي روما الحظ والثروة . الصدفة او « عرض » ، الحالة النوعيـــة او « حالة » ، الحظ او « ثروة » ، هن أفراخ أو أبناء عائلة واحدة أبوها وسيدها العدم. نقولا دو كوزا كان قد قال : « alteritas ex nihilo oritur » ، المغايرة، وبالتالي تعددية او تكثرية الاشياء ، ولدتا من العدم . هذه « المغايرة» ، «صليب» الفلسفة القديم منذ الافلاطوني بارمنيد ، اغناها كامبانلا بفضل نفاذ ذهنه ـ الذي ادركه عدد قليل من الناس واعجب به عدد اقل ايضا ـ بهذا الكيان الثلاثي الذي اسمه عرض ، حالة نوعية ، حظ . نحن مدينون له بهذا التأويل الجديد لجملة « Deus mundum a nihilo creavit (« الله خلق العالم من العدم ») حيث حرف الجر « a » (من) يتخذ قيمة حرف الجر « ex » (من) : هكـذا يصبح العدم عنصرا مكونا في العالم ويبقى جزءا منه بشكل دائم . هذا التأويل لـ « ex nihilo » (« من العدم ») يصادف لاول مرة عند اوغسطين : كامبانلا يأخذه مأخذ الجد جدا ويكرس له المقطع التالي في الجزء الاول من « فلسفتـه الكونية في ثلاثة اجزاء » : « الله اذاً خلق كل شيء من العدم ، كل شيء قد اعطي من قبل كائنية الله وألّف من لا ـ كائنية اي من عدم » (٨) . لكن ما يهم كامبانلا في آخر تحليل هو الانتصار على العدم او « اللاكينونة » في العالم بتسهيلنـا ومساعدتنا الـ « كينونة » ، الكائن ، المبدأ ـ شمس ، هو دفع وترقية نظـام الكينونة الشمسية في العالم ، طرد العدم واللاكمال ، ارجاع الحالة النوعيـة والصدفة السعيدة الى الوراء تحرير النظام الذي هو كائن في العالم .

كتاب الطبيعة

اتناول النقطة الثالثة ، اطروحة « كتاب الطبيعة الحيّ » (« codex vivis naturae ») . ليس كامبانلا هو الذي نحت هذا المصطلح ولكنه يلجأ اليـه باصرار . نجده في كتابات ريمون دو سابوند Raymond de Sabunde ، الطبيب الاسباني المقيم في فرنسا ، الذي عاش في القرن الخامس عشر . كامبانلا يسعى الى اكتشاف وفك رموز « الاوليات » الثلاث لكتاب الطبيعة : هكذا ، يحـرر القدرة والمعرفة والمحبة التي تعارض في كل مكان العدم . فن القراءة يهدف اذا الى تحييد العدم ، « عرضا » و « حالة » و « حظا » ، انه يقوم بحركتين متآنتين، من فوق الى تحت ومن تحت الى فوق ، اذ ان الروح ـ شمس العالم الـذي يجمع في نفسه القوة والحكمة والمحبة يفعل من فوق الى تحت ، في حـين ان العالم يأوي ، ان جاز لي هذا التعبير ، خمسة صفوف مدرسة او خمس «طبقات» يذهب كمالها في تزايد : ١) « mundus sitalis » (« العالم المواقعي ») ، الواقع الخبري الذي نجد انفسنا فيه مقحمين ، الواقع المعين والذي تعكـره الأعراض بقوة ، الواقـع الهـارب ، العرضي ، المباشر ، غـير الواضـح ؛ ٢) الـ « mundus temporalis et corporalis » (« العالم الزماني والجسمي ») ، مجال خبراتنا ، المرتب على النقاط الزمانية والمكانية ، الذي يتشكـل داخـل احداثيات التاريخ وعالم الاجسام ؛ ٣) الـ « mundus sempiternus » ، العالم

الازلي، النظام الهندسي والرياضي المحتوى في المكان؛ ٤) الـ « mundus mentalis » (« العالم الذهني ») ، عالم المقولات العليا المنطقي ، حسب كامبانلا عالم البصيرات الازلية التي لا تحتاج معرفتها الى تأويلات لانها تفرض نفسها بنفسها بوصفها بداهات بالمعنى الحقيقي للكلمة ، بمجرد ان يكون للمرء منفذ اليها ؛ ٥) الـ « mundus archetypus » ، العالم الاسمى ، عالم النماذج العليا ، عالم الموديلات « بذاتها » ، الذي يحوي ما كان برونو قد رفض : جملة الامكانات أو العوالم ذات العدد اللامحدود التي هي ممكنة خارج العالم المخلوق والمحقق : هنا يظهر لاول مرة مفهوم « العوالم الممكنة » اللايبنتسي . ان درجات الكينونة توازي ، حسب كامبانلا ، درجات المعرفة ، درجات المعرفة اللغوية لـ « كتاب الطبيعة » . كل هذه العوالم ، سواء صنفت حسب ترتيب صاعد او نازل ، تستمد تلاحمها من ميلها الى النظام المطلق والى الواحد ؛ انها تهرب من العدم و«المواقعية»، اذ ان الموقع ما هو الا عرض وحالة وصدفة . عالم كوبرنيك يجد عند كامبانلا تأويلا آخر غير تأويل جوردانو برونو . عند برونو ، الكرات السماوية تمتد في كل الاتجاهات ، عند كامبانلا امتداد الاشياء شاقولي ، شمسمركزي ، كل الاشياء تتجه نحو العنصر الشمسي ، الـ « sol » (« شمس ») ، الكينونة العليا ، وحدة السلطة والمعرفة والارادة حيث كل عدم منفي خارجها . ان الـ « horror vacui » ، « كره الفراغ » ، هو الذي يدفع الاشياء نحو الكينونة الشمسية . الافراد ، يؤكد كامبانلا ، يجب أن يتصرفوا مثل الكواكب التي تدور حول الشمس وحول محورها. هكذا تولد رابطة غايتها الـ « sol » («شمس»)، مبدأ النظام الاسمى الذي يحكم كل الاشياء ؛ هذه الرابطة الشمسمركزية ، كامبانلا يعطيها اسم « religion » (الدين) . هذا الدين ، هذا الرابط — فـ « religere » تعني بالفعل relier (ربط) — ليس خاصا بالبشر ، انه يشمل كل موضوعات العالم . اذا لم تسقط امام العدم ، اذا لم تستسلم للموقع، اذا لم تكن مشتتة ، فهي تطمح الى الشمس ، مركز النظمة المتمركزة التي هي العالم . ان استخدام كلمة « دين » من اجل تسمية الرابطة التي توحد كل الاشياء ، حتى الجامدة منها ، أمر عجيب . لم يعد ثمة كنيسة فيما عدا كنيسة الطبيعة التي يحكمها كائن شمسي ، نحوه يتجه كتاب الطبيعة . هذه الاسطورة الفلكية الجديدة تضفي معنى مغايرا جدا ، في مستوى نظرية المعرفة ، على عين نقطة انطلاقها ، الا وهي اليقين — الذاتي لأنا الذات ، المؤسسة على الخبرة ؛ اذ ان كل البشر وكل الاشياء تطمح الى الشمس ، تندرج في نظام المنظومة المتمركزة على الشمس .

يوتوبيا النظام الاجتماعي :
الدولة — الشمس

بالتالي ، لا يستطيع كامبانلا ان يتخيل سوى حياة اجتماعية منظمة بدقة ؛ ان عنوان يوتوبياه ، « مدينة الشمس » يشير الى اننا امام حلم يقظ تولد من

رغبته . عدا ذلك فان « مدينة الشمس » تتعارض اصلا في المفردات مع « مدينة الله » لاوغسطين . لن نسهب هنا عن اليوتوبيات الاجتماعية التي استعرضناها في الفصل ٣٦ المعنون « الحرية والنظام » مـــن مؤلفنا Prinzip Hoffnung (المبدأ : الامل) ؛ نتحدث فيه ايضا عن كامبانلا ، لكننا نترك جانبا في هـذا المؤلف الاسس الفلسفية ليوتوبياه . بالمقابل ينبغي أن نذكر التخطيط البرجوازي لـ توماس مور Thomas More في كتابه « افضل دولة جمهورية اي الجزيرة الجديدة « يوتوبيا » « Utopia » ، سنة ١٥١٦ ، لانه يعطي الخلفية الليبرالية لمشروع الدولة المركزية لكامبانلا . في القرن السابع عشر بدأت النظمة الاقتصادية الكبيرة المتلاحمة ، نظمة المركانتيلية، التي كانت تخدم كاطار للاقتصاد المانيفاكتوري والصناعي الجديد . في بلد متخلف اقتصاديا كاسبانيا ، خلق اطار المركـزية والبيروقراطية الناشئة على يد المونارشية ، كتنظيم محض سياسي . الوجـه السياسي لهذا النمو ، المقتصر في بداية الامر على اسبانيا والآخذ في الامتداد ـ كمشروع مونارشية كونية ـ بشكل خاص نحو فرنسا، يحدد الاشكال الخارجية لـ « مدينة الشمس » .

في نظر كامبانلا ، العالم سيء ، حالته تعبانة ، المجتمع لا يعمل ، لان لا شيء في مكانه ، في خط الشاقول ، لانه يوجد كثير من الحرية الشخصية ، من الصدف ، من الحالات النوعية ، وقليل من النظام . لذا يلزم ادارة ، حكم ، نظام في كل مكان . في هذه الرؤية دخلت ، بتأثير الاعادة الاسبانية ، عناصر وسطوية. تذكروا الترتيب الرائع الذي يحكم فن جيوتو مثلا ؛ كل موضوع من موضوعات اللوحة الفنية مرسوم في المكان المحدد حيث يجب ان يكون ، في المكان المناسب لمرتبته ؛ تذكروا نظام **الكوميديا الالهية** ، حيث لكل ميت موقعه الدقيـق فـي الجحيم ، في المطهر ، في الفردوس ؛ تذكروا نظام السكولاستيك ، ترتيب الافكار. نجد شيئا من ذلك كله عند كامبانلا : بالنسبة له ، الكنيسة هي التي يجب ان تؤمن الرابطة بين مختلف العناصر . نظامه يشمل اتفه الاشياء ؛ انه لا يتأسس على العقلانية فقط بل ايضا على هذا التطير التنجيمي الذي ـ وهذا امـر مثير للفضول ـ كان قد وجد شبابا جديدا في العبادة الوثنية للعالم الحاضر : فالعلم الاساسي في الدولة ـ الشمس هو **علم التنجيم** . الشمس هي الله ، اله الشمس المسيحي ، اذا جاز التعبير ، والكواكب تقيم معه عهده ، عهدا يمارس من اعلى الى ادنى . كما ان ظروف حياتنا يضبطها تفصيليا الزودياك (منطقة البروج ، مجرى الشمس الظاهري) والـ ٣٦ وضعا ، كذلك النظام يجب ان يستلهم وضع الكواكب السيارة ؛ هذه الكواكب هي قادة الحياة الاجتماعية الأعلون . هذا يذهب بعيدا الى حد ان الدولة ـ الشمس تقيم موظفين يحددون ، حسب وضعيـة النجوم ، ساعة بل ومكان المضاجعة . الحرية ملغاة نهائيـــا ، لا استراحة او استرخاء ، لا حياة فردية . هذه لا يمكن ان توجـــد . لدينا اذا من جهة علم التنجيم ، الاسطورة ، التطير ، ومن جهة اخرى بروقراطية عقلانية تمتـد على الكون برمته ؛ هكذا ، فالسور الذي يحيط بعاصمة « مدينة الشمس » مزين

بلوحات جدارية تمنح تعليما كوسمولوجيا وعلميا : الشمس ، القمر ، الكواكب ، النباتات ، التمثيلات الجغرافية تظهر في شكل كون مرسوم ، « لوحة عالمية » لنظام واقعي . المدينة هي نفسها خلق عقلي ، انضج على لوحة الرسم الهندسي، خاق يتضاد مع تعسف واختلاط المدن الوسطوية . كامبانلا يلجأ في هـذا السياق ايضا الى اليوتوبيا التقنية ، يعرض اختراعات ليست موجودة بعد . هذا الجانب مبسوط اكثر بكثير في « اطلنطيس الجديدة » لـ بيكن Bacon ، وهي يوتوبيا تقنية بلا طموح اجتماعي . لكن ثمة ما هو اهم : بالنسبة لكامبانلا ، كل شيء يجب أن ينوجد في موقعه ، كل شيء محدد من اعلى ، كل شيء مضبوط تبعـا لوضعية النجوم ، منذ ولادة حتى ممات الافراد والدول . على رأس « الشيء العام » (الجمهورية ، الدولة) لا يقف ، كما عند توماس مور ، رجل يحمـل تاجا من سنابل ، رئيس برجوازي ، « أول بين اقران متساوين » ، بل « نائب عن الشمس » ، « شمس » (« Sol » un ، واحد) أو « ميتافيزيقوس » . هـو الملك السيد ، الامبراطور الروحي ، البابا الشخصي والسياسي للكينونة والجوهر (ens) . تحت امرته الممثلون الثلاثة لـ « اوليات الكينونة » ، السلطة والمعرفة والارادة ، أي الامراء الثلاثة للقوة والحكمة والمحبة . هكذا يوجـد في الدولة ـ الشمس وزارة للقوة ووزارة للحكمة ووزارة للتناسق . في هذه الدولة ، عنصر النظام يغدو اكثر فأكثر شمولا : من البيت يمتد الى الكومونة ، ومن الكومونـة الى المدينة ، الى الاقليم ، الى « الحكومة » أو « المملكة » ، الى الامبراطورية ، الى المونارشية الكونية . نفس النظام ينتشر على شكل دوائر ذات مركز واحد ، يصير كونيا ، شاملا . على رأس هذه الكاتيدرائية السياسية الصارمة ، المبنيـة كلها في الارتفاع ، تنتصب بابوية عالمية . نحن امام يوتوبيا لا تفهم المزح ، حتى ولا في التفاصيـل ، لا تتساهل وتسمـح بأي تعكيـر مـن جانـب الاعراض والحالات النوعية ومعطيات المصادفة ؛ انها يوتوبيا النظام الاكثر انضاجا ، التـي واجه صاحبها ، الذي لا يتراجع امام المفارقة ، عواقبها القصوى دولته المستقبلية، المصممة على هيئة كاتيدرائية ، مسلسلة بقوة ، تحدد شكلا ومكانا لكل شيء ، يجب ان لا يبقى اي شيء بمنأى عن ترتيبها الذي يبلغ ذروته في كنيسة للبصيرة.

جيشان النظام الذي يلهبه العذاب وبغض العدم والاختلاط ، هوذا ما يصنع وحدة يوتوبيا كامبانلا . غير وارد ، بالنسبة لـه ، الهرب مـن وادي الدموع نحـو الماوراء ، لكن وادي الدموع يجب أن يحول بمعونة « الاوليات » الجسورة ، السلطة والمعرفة والارادة . دور البشر في هذه الدولة مكافحة العدم ؛ سيتوصلون الى ذلك بتحالفهم مع العنصر الشمسي . هذا التصور غير وارد عند برونو ، فهو يعتبـر أن الظل يضيف الى التناسق ويضيء جمال اللوحة . في نظر كامبانلا ، لا وجود كذلك لكون منتشر الى ما لانهاية ، لكن العالم الافضل سيكون له مظهر كنيسة طبيعيـة ، متصورة ككاتيدرائية ، يعلوها شعار الله ـ الشمس . ذلكم هو كامبانلا .

٥ تيوفراست باراسلس

لنذهب الى المانيا . ذلك بلد رطب ، ذو ضباب ، سماؤه مغطـاة بغيـوم . الغابات الكبيرة ظلت فيه جزئيا محفوظة بفضل المنظومة الاقطاعية . الطبيعـة تبدي فيه وجها آخر غير وجهها في ايطاليا ، يملؤها حفيف وخرير ، يتكلمون فيها كثيرا عن القمر والمساء وحرارة العش : « هيا بنا ، فالنهار يغـرق في الرمادي ، الظـل يشتد ، والضباب يهاجمنا ! عند هبوط الظلام ، يحب المرء بيته ! » ، يقول فاغنر لـ فاوست بعد النزهة الفصحية . الغرفة الخفية والمدفأة التي فيها يمارس ياكوب بوهـم Jakob Bœhme حرفته تقدم اطار جوانية تأملية نظرانية بالتمـام وتعارض العالم الخارجي بالحرارة الداخلية ، بعمق الفكر الذي يساعده الطقس العابس ، على الاقل في المانيا القرن السادس عشر . نحن بعيدون عن سطوع شمس الجنوب وعن السماء الدائمة الزرقة ؛ نحن بعيدون عن ايطاليا حيث المطر ليس له خرير لانه ينسحق بضرب من طقطقة على الاوراق الرقية التي هي أقسى من أن تمنـع تبخـر الماء . المانيا تبقى لزمن طويل بلدا متخلف النمو سياسيا ، بلدا فيـه تتأخر العصور الوسطى عن الرحيل ، وبلدا يفتقر ــ بالمقارنة مع ايطاليا ، بـل ايضا مـع فرنسـا وانكلتره ــ الى التجانس ؛ بلدا تبدو فيه أقواس الاوجيف ogives الغوتية لا تزال تزهر في الفن وفي الحياة . يجب أن نعي الفروق الجغرافية والمناخية والاقتصادية، ونقص التجانس ، ووجود أشكال الفن الغوتي الباسقة في المساحات الواسعة للمدن الغوتية المتعددة الزوايا والخبايا ، كي نفهم المنظر الروحي الذي ينفتح هنا أمامنـا والذي هو مختلف جدا عن الروح الايطالية . عصر النهضـة فـي المانيـا موسوم بشخصين اثنين : تيوفراستس بومباستس باراسلس فون هوهنهايم وياكوب بوهم . الاول طبيب ــ فيلسوف متنقل ، الثاني حذاء لم يغادر ، بعـد رحلاته كحريف ، مسقـط رأسـه مدينـة غورليتس Goerlitz ؛ انـه « الفيلسوف الجرمـاني » (« philosophus tentonicus ») على سبيل الامتياز وواحد من أعمـق العقول التي عاشت في يوم من الايام .

باراسلس Paracelse ولد سنة ١٤٩٣ في بلدة أينزيدلن ، بسويسره ، وتوفي سنة ١٥٤١ في سالتسبورغ ، بعد ان عاش حياة تنقل ، كطبيب وطبيب شعبي في السوق العامة وأمبيريقي (خبري) ولكن أيضا كنظراني كبير . كثيرا ما مكث في مدينة بال Bâle . لقد كان ـ وهذا شيء نادر في سويسرة ـ ممثلا حقيقيا لعصر النهضة ، ولقد ألهمت صورته أقساما واسعة من **فاوست** . كان بآن معا ساحرا ـ منجما و«صاحب رؤى» وعالم طبيعيات وامبريقيا و«كوسموسوفا» (حكيم كوني)... الى عناصر المشهد الالماني التي ذكرتها لتوي ، ينضاف ، كمعطى خارج عن المألوف ، التقليد الخفي والعصبي للحركة العلمانية ، التقليد الذي بقي أيضا عند ياكوب بوهم ، المتحدر من منطقة الجبال المعدنية . هذا التقليد تظاهر بسطوع خاص في القرن الرابع عشر في التصوف المسيحي وممثليه، سيد اكهارت Maitre Eckhart سوزو ، Suzo، تولر Tauler . غير أن باراسلس ينقل هذه المفاهيم الصوفية ويضعها في ميدان الطبيعة المفقود بالتمام تقريبا عند اكهارت وتاولر وسوزو . كان يرعى من جهة أخرى علاقات وثيقة مع الشعب : هذا الطبيب العالم كان يحترم كثيرا العلم الشعبي . كان يصغي الى رأي سائقي عربات الخيل ويسجل بعناية الادوية البسيطة التي كانوا يعالجون بها خيولهم المريضة ؛ كان يتحادث مع العجائز ، العشابات ، اللواتي يعرفن النباتات الطبية بحكم خبرة تعود الى أجيال وربما أيضا بنوع من تشارك حياتي مع الطبيعة . لقد درس أيضا أثر المعادن على الانسان . هذا كله ، كان باراسلس يتشبع به ، ولم يكن يعتبر دون كرامته أن يدخل الحكمة الشعبية القديمة في معرفة زمن النهضة ؛ انه لم ينكب فقط على التقاليد الشعبية الطبية ، بل درس كذلك الخرافات القديمة القادرة على تنويره عن ظاهرات الطبيعة، الغابة ، أحشاء الارض ، الشجرة المعدنية التي تنشر أغصانها في باطن الارض ، المياه الجوفية المليئة بالاسرار. منصتا على الدوام الى الطبيعة، كان باراسلس بشكل جوهري أمبريقيا لاسهامه في تاريخ الطب نفس الاهمية التي لاسهامه في تاريخ الفلسفة . بل يمكن القول انه أعظم في دروسه عن تاريخ الطب منه في دروسه عن تاريخ الفلسفة .

باراسلس حرر جميع كتاباته باللغة الالمانية أولا ، الامر الذي كان بدعة مطلقة ؛ وترجم بنفسه عددا منها الى اللاتينية . ضاع كثير منها ، لكن حفظ « Opus Paragranum » ، و الـ « Opus Paramirum » ، ومؤلف كبير ميكرو ـ ماكرو ـ كوسمي (في الكون الصغير والكبير) عنوانه « de natura rerum » (في طبيعة الاشياء) .

توافقات بين العالم الداخلي والعالم الخارجي

ان نقطة انطلاق مذهب باراسلس هي فكرة انه توجد دوما توافقات (توازيات) بين العالم الداخلي والعالم الخارجي . عند برونو وكامبانلا ، ليس لمفهوم « العالم الداخلي » قيمة دائمة . النظرة الجميلة التي يلقيها الطليان على العالم ، على الحياة في هذه الدنيا ، ليست غائبة عند الطبيب ـ الفيلسوف ، لكنه يشاهد ويبرز كذلك

الجانب الداخلي في هذه الحياة ، الجانب المقعر ، اذا جاز هـذا التعبير : عنـد باراسلس ، البراني لا ينسينا أبدا الجواني والعكس بالعكس . ما هو في الداخـل موجود أيضا في الخارج ، وما هو في الخارج موجود أيضا في الداخـل ؛ أفضل : الداخل في توافق مع ما هو تحت ، الخارج مع ما هو موجود فوق ؛ والموجود فوق يؤلف نوعا من بنية فوقية تغطي الكل : هكذا فالذي هو تحت هو أيضا فوق والعكس بالعكس . ان منظومة من التوافقات هائلة الاتساع تجتاز العالم : تربـط الجانـب الداخلي بالجانب الخارجي للاشياء والعكس بالعكس . من اجـل معرفـة العـالم ، الانسان ، جانبه الجواني ، الذاتي ، يجب ان يفهم بوصفه كيانا أول (هوية أولى) وفي الوقت نفسه بوصفه « ثمرة العالم » . ليس أن الخارجي قد انتجه الداخلي ، ولكن بدون الداخلي ليس لدينا أي مفتاح للوصول الى العالم الخارجي . والحال ، ان باراسلس يوسع هذه الفكرة مطبقا اياها على اتساع ولا محدودية العالم الخارجي، العالم الكوسمي ؛ اذ ليس واردا البتة ان نفهم العالم الداخلي الذي هو الانسان بدون الذهاب من العالم الخارجي ، تماما كما لا نفهم الثمرة الا بواسطة البذرة . الفلسفة، يقول باراسلس ، ليس لها الا موضوع واحد ، هو الطبيعة ، الفلسفة ليست سوى الطبيعة غير المرئية ، الطبيعة ليست سوى الفلسفة التي جعلت مرئية .

مرض ، شفاء ـ ذاتي للعالم

بالنسبة لباراسلس ، الداخلي ليس بامكانه ان يعرف الطبيعة والطبيعة ليس بامكانها ان تعرف نفسها الا اذا كان الذي يعرف ، أي المفتـاح ، غـير مريض . ان مصطلح « المرض » لا يفهم هنا بالمعنى الطبي حصرا ؛ انه يشير الى أن الانسان يجب أن لا يكون مغرورا ممتلئا بذاته ، يجب أن لا يحبس نفسه فـي قفـص فرديتـه . الطبيب ينطق هنا بفم الفيلسوف : يجب على الانسان ان يسترجع صحته بأن يمتثل لمعرفته للطبيعة ، يجب عليه أن يتوج معرفته للطبيعة بأن يعيد لها صحتهـا . هكذا تظهر موضوعة جديدة بالتمام ، هي موضوعة **الشفاء ـ الذاتي** للعـالم ، المتصور بوصفه أسلوبا طبيا . « الفلسفة ـ يشرح باراسلس ـ هي « مولدة » طبيب جيد » . باراسلس يعين للفلسفة رسالة شفاء ؛ في نظره ، الفيلسوف الجيد طبيب جيـد دوما ، الطبيب الجيد فيلسوف جيد ، مستعد لمكافحة كل تعكير في الطبيعة، التي تتالف من الميكروكوسم (الكون الصغير) والماكروكوسم (الكون الكبير) .

متكلما عن المرض ، يشرح باراسلس أن المرض هنا لكي يشفي ما دام هو العنصر المعكر ، الانحراف عن الخط المستقيم والطبيعي . ذهابا من هذه الفكرة ، الطبيب ـ الفيلسوف ينضج تعريفا رائعا للمرض فيصفه بأنه كينونة عضوية بلغت بغير وجه حق الاستقلال ، وجود مستقل غير عاقل ، كيان يفعل ازاء الجسم فعل طفيلي ، تمـرد جزء انفصل عن الدورة السوية . أي ، اذا استخدمنا مفردات أحدث : لكل مرض ، في نظر باراسلس ، طابع طفيلي ، انه نوع من خلية سرطانيـة تتكاثـر بسرعـة أو ـ بمفردات علم الامراض النفسية ـ مركب نفسي جعل مستقلا ويدفع الانسان في كل الاتجاهات . العنصر الطفيلي الذي انفرز عن السياق الطبيعي ، هوذا الاصـل

الاخير للمرض ! المرض تحد ويتابع ، في هذا التحدي ، سبله الخاصة . المطلوب اذا اكتشاف أدوية ــ أعشاب أو معادن ــ قادرة على مساعدة الاندفاع الحيوي فينا من اجل أعادة العنصر الباثولوجي (الشاذ ، المرضي) الى الدورة الرئيسية ، السوية . هكذا يبقى على الرابطة القديمة بين المرض والخطيئة ، ما دامت الخطيئة هي أيضا معتبرة وجودا على حدة ، معارضة ، تمردا . غير أنه لا يوجد عند باراسلس أثر من نزعة أكليريكية ، فتمرد المرض لا يقمع أو يسحق أو يطرد بضربات السياط ان جاز التعبير ؛ انه يقلص ، يطوع بتعقل ؛ الشفاء لا يحصل عليه بالتوبة بل على العكس بالاستجابة : الامر الذي يعاد هو الحياة ، امتلاء الحياة . لبلوغ الكمال ، سيكون على الانسان أن يعود الى الطبيعة بدون ان يكون بامكان التعذيب والاماتة ان يلعبا دور علاج ضد الخطيئة . بالشفاء يستأنف الانسان درب الطبيعة حين هو ، وقد انفتح من جديد للتيار الرئيسي ، يحس المرض عدوا . انه يشارك في شفاء العالم، الامر الذي يدعوه غوته ــ وهو قريب لباراسلس من حيثيات عديدة ــ « الشفاء في العالم » . هذه الكلمة « شفاء » لا تفترض أي مرض ، هذا الشفاء يمكن ان يوجد في ضده ، المرض ، بمجرد ان نتصور العالم داخلا ، على نحو مستمر ، في سيرورة شفاء لا حدود لها . الانضمام الى هذه السيرورة ، هو شفاء ، هو اندراج في سير الحياة الكلي . يجب شفاء المرض، فهو ليس خللا فقط بل نقيصة أيضا ، لا ــ كمال . الانسان ، يقول باراسلس ، هو أكبر مشروع في الخليقة ، ويؤكد نفسه بوصفه كذلك اذا ما قاد الاشياء محسنا اياها نحو مآلها في الطبيعة . هذا هو الميلاد ــ الجديد الفاعل ، النهضة النشيطة : الانسان المخترع يفعل على الطبيعة ، ينطق كلمته « fiat » (ليكن) معطيا اياها شكلا سحريا . السحر ، السيمياء ، ولسوء الحظ التنجيم أيضا ، يجب عليها أن تفك رموز الطبيعة بدون امتلاك مفتاحها . السحر (la magie) المتصور بمثابة فعل على الطبيعة هو الشكل الاقدم التقنية، بالقصد ، ولقد استرجع بيكن Bacon هذا القول واصفا البدايات البرجوازية للتقنية بانها « سحر طبيعي » ؛ هذا « السحر الطبيعي » يكون ازاء السحر المتطير ما مآثر أسكندر المكدوني ازاء أعمال فرسان الملك آرثر الخيالية . هكذا يظهر ، تحت غلاف السيمياء والتطير ، عنصر لا نعثر عليه في المجتمع الاقطاعي واللاهوتي ، هو العنصر البروميثيثي . لقد صادفنا هذا العنصر المتعالي في مسرحية فاوست السابحة في جو باراسلسي ؛ أفضل : العنصر البروميثيثي موجود فيها بصريح الكلام : فمن باراسلس تأتي فكرة ووصفة انضاج الانسان ، الـ « homunculus » الانسان ــ الصغير ، في الانبيق . هانحن غاطسون في تمام تطير التقنية السحرية وتحويل العالم بالسحر . باراسلس لا ينوي بتاتا الغاء الطريقة الطبيعية في انجاب الانسان ، الطريقة التي هي منبع عواطف حب سعيدة . القضية بالنسبة له انضاج كائن انساني كما لم تنتج مثله الطريقة الطبيعية في يوم من الايام ، كائن خال من الفضلات والفسالات . الطبيب مدعو لخلق انسان أكمل من الذي خلقه سيد العالم ؛ والخرافة البروميثيئية هي التي تعطي أيضا عند باراسلس أسطورة « الانسان ــ الصغير » اطارها المناسب . للوصول الى ذلك ، يجب على الانسان ان يتسلح

بجراة قصوى ؛ عليه أن يقتنع بالعظمة الفائقة لذكائه الخالق ؛ هذا الذكاء المبـدع ، باراسلس يدعوه « imaginatio » (تصور ، تخيل ، خيال) ؛ الخيال هو هذه القوة المتفائلة التي ، في الميدان العادي ، تشيد قصورا في اسبانيا . كل القصور كانت في بداية الامر « قصورا ـ في ـ اسبانيا » ، هذا ما يمكن قوله ، فقد كانت جميعا موضوع أحلام بناءة، أنتجتها جميعا الرومانطيقية الثورية (١) .

الخيال الموضوعي ـ الواقعي (« imaginatio » ، تخيل)

كيف يمثل هذا « التخيل » ، هذه الوظيفة اليوتوبية المكلفة بانضاج انسان أفضل ، عالم أفضل ، أو بالشروع في «شفاء العالم » الذي ليس شيئا آخر سوى تحسينه ؟ جواب باراسلس عن هذا السؤال جواب مغامر الى حد لا بأس بـه حين يصوغه بجمل من هذا النوع : « كل تخيل ـ تصور (أي كل صورة خالقـة تتـرك بصمتها في مكان ما) بشري انما يأتي من القلب ، فالقلـب شمس الميكروكوسم . وكل تخيل للانسان متولد من شمس الميكروكوسم الصغيرة يفرق في شمس العـالم الكبير ، في قلب الماكروكوسم . هكذا ف « الخيال الميكروكوسمي » بـذرة تتمودد (تصير مادة) ! » . أو أيضا : « التخيل يثبت وينجز بالايمان بأن كـل شيء يتـم فعليا ؛ اذ أن أدنى شك يحطم العمل . الايمان يجب أن يثبت الخيال ، لأن الايمـان يقرر الارادة » . هذا ما يتفق مـع مقطع مـن كتاب « مس الاشياء والسحر » ل كامبانيلا : « لا يستطيع الانسان أن يفعل ما لا يؤمن ان باستطاعته ان يفعلـه » . اذن : فالايمان هو الذي يقرر ويدفع الارادة ؛ على الانسان ان يحمل ثقـة غـير محدودة في القدرة الانسانية وكمال الطبيعة الخفي . في عالم باراسلس ، يتماسك كل شيء ، يتداخل ويترابط كل شيء، العالم الكبير والصغير ، الداخلي والخارجي، الميكروكوسم والماكروكوسم (الكون الاصغر والكون الاكبر) . لكن كيف يرتبط العالم الكبير بالخيال المتفائل؟ سبق أن تكلمنا عن صحة العالم ، عن التقدم الكلي ، الصحي، الذي لا يقاوم ، للعالم ، مقر كل كمال ، والمطلوب دفعه الى الامام . باراسلس يميز في العالم القابل للتحسين خميرة ، اندفاعا نحو النور ، هو نوعا ما ايمان في قلـب الطبيعة ذاته ، عنصر بروميثيي ينتظر الانسان ويجيبه . لوصف هـذا الدفـع الصاعد ، يستخدم باراسلس بالافضلية خليطـا مـن مقولات كيميائية واخلاقيـة وسياسية .

كيميائية ديناميكية

باراسلس يفترض مادة أولية لم تتحدد بعد وهي في أساس كل شيء ؛ منهـا تشتق «المواد الديناميكية» الثلاث التي يدعوها باراسلس : «زئبق» (mercurius) « كبريت » (sulphur) ، « ملح » (sal) . هذه المصطلحات لها معنى أوسـع من المواد الكيماوية التي تسميها . الزئبق والكبريت والملح تحتوي على أقوى تركيز من العناصر الثلاثة ، الزئبقي والكبريتي والملحي ، التي يرى فيها باراسلس فواعل

خفية : الزئبق يجعل الاجسام سائلة ، الكبريت يجعلهـا قابلة للاحتراق ، الملـح يجعلها صلبة . العناصر التقليدية الاربعة ، الماء ، النار ، الهواء ، التراب ، موزعـة ديناميكيا في هذه « المواد الديناميكية » الثلاث . هذه الكيمياء الاسطورية تحوي ، أجل ، كثيرا من الذكريات القديمة . زوجة لوط حولت الى تمثال مـن الملح . فالملح هو اذا في وقت واحد رمز العودة ، التأخر ، التردد ، لكن أيضا الحفظ . الفاعلان الآخران في العالم ، الزئبق والكبريت ، يحددان تشكل وتحول الاشياء ، يحكمـان تطورها . هذا « التطور » يفترض عند باراسلس دائما طـرح المـواد الضـارة ، الوسخة ، غير الطاهرة ، المشحونة بالملح ، بالمرارة ، بالتصلب ، بالاستقـلال غـير المشروع . كل هذه المواد المرضة يجب أن تطرح حتى تتمكن الاجـزاء السليمـة والصحيحة من العودة الى اتخاذ مكانها في تيار الحيـاة الكـوني ، أي الفاعـل الديناميكي الرابع : بالفعل ، الى الزئبق والكبريـت والملـح ، يضـم باراسلـس « archeus » (مبدأ) ، مبدأ حياة ميكروكوسمي أو « معدل » عضوي . انه وثيق القرابة من الزئبق ، وباراسلس يدعوه أحيانا « زئبق الحياة » ؛ وهـو فـي الوقت نفسه «الجوهر الخامس» لكل الاشياء، خلاصتها أو زبدتها, « quinta essentia ») (quintessence ويأخذ عندئذ اسم « Vulcanus » (بركـان) ماكروكوسمي . مثلما روح ــ النبيذ هو جوهر النبيذ ، كذلك هذا « الجوهر الخامس » موجود في كل شيء . هو جوهر لم يبلغ بعد كل قوته ، ليس له بعـد نفس الاستطاعـة التي للفواعل الاخرى الثلاثة ؛ « زئبق » يجب أن يساعده ، يجب أن يحرره كصفة خفية جوهرية لكل تشكل لـ « قشرة يابسة » .

في عصر باراسلس ، كانت الكيمياء والسيمياء تتداخلان بشكل حميمـي لدرجة كان معها من المستحيل فصل احداهما عن الاخرى فصلا واضحا. السيمياء كانت في الاصل شيئا آخر غير البحث عن الذهب الذي يمارسه الدجالون والمزيفون الذين كان امراء عصر النهضة ثم امراء العصر الباروك Baroque يجذبونهم الى بلاطاتهم . هذه « السيمياء » « alchimie » لم تنته في يوم من الايام الـى شيء ، اذا اغفلنا ذلك البائس بوتشر Boettcher الذي نجح على سبيل المصادفة في صنع البورسلين . اليوم ، كلمة « سيمياء » اقرب الى التذكير بـ « المنافخ » أو « الأكيار » ، لكنها في الماضي كانت تعني شيئا آخر : المواد كانت محبوسة في سجن من رصاص ، في جواد جامد وميت ؛ فكانت المسألة اذا استخراج خلاصتها الموجودة في العناصر في شكل ذهب ، في الجسد في شكل صحة مشعة ، في العالم بوصفه ماكروكوسما حيا في شكل « النور الاصلي » . نقرأ عـنـد سيد اكهارت Maître Eckhart : « من قال حبا قال قمحا ، من قال معدنا قال ذهبا، من قال ولادة قال انسانا !». في ما ــ بعد كل خداع، كل صناعة ذهب، كل «نفخ في كير » ، كانت السيمياء تريد ان تكون سبيلا نحو تجدد ربيعي ، نحـو نضج المعادن . ان « نضج المعادن » لا يؤلف في سيمياء باراسلس سوى جزء ينوب عن الكل الذي هو اهم الى ما لا نهاية : السيمياء مدعوة ، حسب باراسلس ، الى الصب على السيمياء الكونية المدعوة الى تحرير كل الذي تجمد وتحـول الـى

رصاص . الدعوة التي يطلقها « المتجول الكاروبيمي » تأليف انجيلوس سيليزيوس Angelus Silesius ملاكسيليزيا (يوهانسشفلر Yohannes Scheffler): «ازهر، ايها المسيحي المتجمد » ، تلمح ، مثلها مثل صيغة باراسلس « ايار (نوار) العالم الكبير » ، الى صور رمزية سيميائية . ان فصحا كيميائيا يجتاز الطبيعة، وبامكان الانسان ان يسهم في تفتحها ، بامكانه ان يقود العالم نحو جوهره .

الكيميائية ، القدرة المحررة ، والكبريت ، القوة القادرة على اتلاف « الرقاد الكبير » للعالم ، هذا كله يعكس اتجاها يجعل المؤرخ المحافظ ليوبولد فون رانكه Leopold Von Ranke ، مهما بدا الامر مدهشا ، يردد صداه : « الهامات توماس منتسر Muntzer ، والمحاولات الاشتراكية لانصار مذهب تجديد العمادة ، ونظريات باراسلس ، تتفق جيدا فيما بينها ؛ مجتمعة ، لكان ممكنا ان تغير وجه العالم ! » . هذه الجملة تدهش عند رانكه بمبالغتها الجلية وبمثاليتها التاريخية، التي لا تصادف كثيرا حتى عند رانكه نفسه. اذ ان فشل حرب الفلاحين في المانيا لا يمكن تعليله بنقص الروابط بين الالهام والافعال العملية والافكار وحده . حتى لو سارت معا ، لما استطاعت الهامات منتسر واعمال المعمدانيين وافكار باراسلس ان تحرز النصر . لكن يخرج من هذا كله قرابة بنية ــ فوقية بين افكار توماس منتسر والمعمدانيين وباراسلس كان هذا الاخير يعيها ؛ فقد كان يضع كبرياءه في ان يقارن بـ لوثر البداية ، اقول جيدا : لوثر **البداية** ، وكان يقيم ــ والارجح ان هذا كان يزعج ويحزن وجهاء بال ــ صلات مع المعمدانيين (٢) .

التبعية المتبادلة بين الميكرو والماكروكوسم

كل هذه الافكار تندرج ــ بدون اسناد او رجوع خاص الى الكريستولوجيا (المسيحيولوجيا) كما عند المعمدانيين ــ في التوافق بين الميكروكوسم والماكروكوسم ، تعبيرا جليا عن « التقوى نحو العالم» . الانسان كوسموس مصغر، مختصر للكوسموس ، مثلما العالم انسان مكبر، امتداد الانسان؛ كلاهما يتداخلان، هنا في « مبدئه » (« archeus ») ، هناك في « بركانه » (« vulcanus ») على نحو دائم وحميمي . بعض المذاهب القبالية (cabalistiques) التي كان رويشلين Reuchlin قد اطلع عليها الناس قبل قليل في المانيا ، لا سيما مذهب « آدم كبير » ، « آدم قدمون » (« Adam Kademon ») يكون هو العالم ويؤلف شكله ، اثرت لا ريب على الفكرة التي كان باراسلس يحملها بشكل اخص عن الميكروكوسم والماكروكوسم . نلاحظ ، رغم « تقواه نحو العالم » ، رغم مذهبه عن التوافقات بين الحد الادنى والحد الاقصى ، افتراقات كبيرة بين باراسلس وجوردانو برونو ، افتراقات لا نشدد عليها كثيرا مهما شددنا . عند جوردانو برونو ، الانسان ينغلق امام لامحدودية الفضاءات ، امام الكون . الانسان لا شيء، صورة الانسان بلا اية فعالية ، الانسان لا يتمتع باية افضلية ؛ بالعكس تماما ،

انه قطعة متناهية في الصغر من العمل الكوسمي الكبير المطلوب تحقيقه ، وان كل همومه التافهة ، كل لوثات المجتمع البشري تنحل في تناسق الكل . الانسان ينصهر في الكرة ، الكرة ليس لها شكل انساني ، انها غريبة عن الجسد الانساني. باراسلس من جهته يقسم الماكروكوسم والميكروكوسم الى جسد وروح ونفس ؛ الطاقة الحيوية، « فولكانوس » (بركان) ، تغذي وتضمن في مستوى الماكروكوسم طاقات الميكروكوسم الحيوية التي لا حصر لعددها ، الطاقات التي يمثلها «اركيوس» Archeus ، مبدأ) . رغم ان باراسلس هو في آخر تحليل حلولي ، نصير مذهب اله عام شامل **كل** الكون ، فان هذا **الكل** Pan قائم في اللامحدود كما وفي النفس (« Gemuet » ، الشعور) على حد سواء ، انه غير ناجز . انه بروميثيوس – بركان الانسان والطبيعة الذي في وبالانسان ينجز ويتم « العمل الكبير» (« opus magnus ») لشفائه . « فالطبيعة ، – كما يشرح باراسلس – لا تنتج شيئا يكون سلفا وبذاته كاملا ؛ على الانسان ان ينجز ويتمم كل شيء » .

٦ ياكوب بوهم

هكذا نصل الى ياكوب بوهم Jakob Boehme الذي يرتبط ارتباطا وثيقا بـ باراسلس . ولد بوهم سنة ١٥٧٥ في قرية آلتزيدنبرغ من جوار غورليتس وتوفي سنة ١٦٢٤ في غورليتس Goerlitz . كان حذاء بحكم حرفته وحالته وفيلسوفا ــ فيلسوفا مرموقا اعطاه الانكليز لقب « philosophus teutonicus » (الفيلسوف التتوني ، اي الجرماني ، الالماني) . كحريف ، جاب البلد على قدميه وقرأ باراسلس ــ وهذا امر مشهود به ــ وعلى الارجح غيره من المؤلفين الباطنيين والرؤيويين الذين لم يفهرسهم اي « تاريخ للآداب » .. على ماذا كانت تدور المناقشات التي كان يعقدها الحرفي البسيط ، في ضوء شمعة من الشحم ، في حانة ، او جالسا على حصير او فراش من التبن ، مع مسافرين آخرين ؟ هل كان لا يزال يجري الحديث ، في هذه المناقشات ، عن حروب الفلاحين ، عن الاضطرابات الدينية لزمن المعمدانيين ، او عن مواضيع اخرى ابعد ايضا ؟ ــ ان كتابات بوهم المتأخرة تقدم لنا عن هذه النقطة بعض الاشارات . فهي تتناول موضوعات على هامش فلسفة زمنه وكانت قد اختفت منذ قرون من الحياة الفكرية الاوروبية . هكذا نجد في كتابات بوهم آثارا من المانوية . في القرن الثالث الميلادي كان ماني Manés قد استأنف عقيدة زرادشت عن الصراع بين اهريمان واهورا مازدا ، بين الليل والنور ــ المذهب الذي يمكن وصفه بأنه غنوص (معرفة ، عرفان) ثناءوي . الطوائف المانوية لم تكن كلها قد ابيدت بعد انتصار الكنيسة الكاثوليكية ؛ حالفها البقاء في بلغاريا عند البوغوميل (Bogomiles) ، وفي جنوبي فرنسا عند الكاتار (Cathares ، الاطهار) : ايديولوجيا الآلبيجوا (Albigeois) في القرن الثاني عشر كانت مشتقة منهم (٢) . كل هذه العقائد بقيت داخل الشعب ، لكن انتلجنتسيا وفلاسفة العصر لم يحفظوا اثرا منها . فالغالب هو الذي يكتب التاريخ والشعب لم يكن هو الغالب . لكن لدينا هنا فرصة نادرة لاكتشاف ودراسة الامر الذي كان يشغل الشعب . ياكوب بوهم جعل نفسه صدى العلم الشعبي ، في عز عصر النهضة ، يبدو احيانا جسما غريبا ، اذ ان فلسفته

كثيرا ما تستولي على افكار تعود الى عصر الغنوص . هذه الافكار انحفظت في وجدان الطبقات الشعبية الالمانية ، الذي فات اوانه وغير المتجانس . ياكوب بوهم يعطي احيانا انطباعا بانه رجل من القرن الرابع او الخامس ، وان كان من حيثيات اخرى يدخل في خط النهضة الفاوستي . الشعب المسلم لاجتراراته كان يتساءل عن القمع والشقاء اللذين كانا ، بعد حروب الفلاحين ، نازلين بالمحرومين ، والمعضلة المركزية في فلسفة بوهم ، معضلة العلاقة بين النور والظلمات في عالم فاسق ، كانت تنتسب الى التفكير الميتافيزيقي ، الى الصوفية الظلامية ، لكن ايضا الى اعمق جدل منذ هيراكليت . لم تكن تأملات بوهم من صنع المصادفة، بل كانت تتأسس على تجارب معاشة . في البداية ، ارتبطت بالعلوم الخفية occultisme ، لكن ليس ذلك هو الامر الجوهري : الانارة الفلسفية الحقة جاءته بسرعة وقوة البرق حين كان منذئذ معلم حرفة ؛ وفي هذه الانارة الاولى كانت كل فلسفته محتواة « في نواة » . ذات صباح من يوم احد ، انتبه ، في حانوته ، فوق رف مثبت على الجدار ، الى صحن من قصدير ؛ كان هذا الصحن يلمع « لمعانا جوفيا jovien جميلا » ، ونستخدم مفردات ياكوب بوهم . القصدير مكرس لـ جوبيتر Jupiter ، من هنا النعت « jovien » المشتق من صيغة المضاف اليه اللاتينية لـ جوبيتر ، وهي « Jovis » (1) . لكن اليكم الشيء الاهم: حين لاحظ شعاع الضوء على خلفية القصدير المعتمة ، فهم بوهم فجأة ان الضوء لا يمكن ان ينكشف الا على خلفية من ظلام شعاع الضوء على خلفية القصدير المعتمة يعلمه ان الضوء بحاجة الى الظلام لكي يتظاهر ، وان كل شيء بحاجة الى مقابل ، ان الـ « نعم » لا توجد بدون الـ « لا » ، ان العالم قوامه تضادات ، انه موضوعيا جدلي .

المؤلف الاول الذي اصدره بوهم ، وعنوانه « Aurora oder Mor genroete im Aufgang » (« اورورا أو الفجر في طلوعه ») يفيض أفكارا مشوشة ولكنها مع ذلك متجانسة . انه لشيء رائع ان يشهد المرء تفتح العبقرية عند رجل اصاب قسطا قليلا من التعليم ، بل لنقل : تدفق النور الذي يستخدم لكي يتظاهر اللغة الفريبة لحذاء وهب لسانا قويا حيا وغنيا بالصور ؛ يستخدمها على نحو تستطيع معه حتى جمل ركيكة البناء ، عسرها يبعث الابتسامة على شفتي تلميذ في الصف السادس ، تستطيع ان تعبر عن افكار رفيعة وعجيبة : بوهم يكتب « qualitaet » (qualité ، صفة ، كيف) مع حرف L واحد او حرفي L اثنين ، رابطا الكلمة حسب الحالة بـ « qual » (عذاب) و بـ « quellen » (نفخ ، انتفخ) . انه لا يقرأ ويكتب بشكل صحيح الكلمات الاجنبية ، ويجهل اللاتينية : حين يتكلم عن « quallitaet » فهو يفكر بـ « quellende »(اندفاق ، انتفاخ) كما و بـ « quallende » (عذاب ، تلوع) على حد سواء ، والفكرات الثلاث ، qualitaet, qual, quellen تنصهر في مفهوم واحد : هكذا فان علم اشتقاقات خاطئا وخياليا بالتمام يلد ، كما سنرى ، فكرا عميقا بشكل خاص . في احيان كثيرة ، يستفيد ياكوب بوهم على النحو المذكور من نواقص تعلمه

المدرسي . ان تسيسا بروتوتستانتيا من الكنيسة اللوثرية ـ وكانت آنذاك تشتهر بضيق ذهنها ـ ، يدعى بريماريوس ريشتر من مدينة غورليتس ، فضح ياكوب بوهم ، المفكر القليل الاثوذكسية ، للسلطات ، القى عليه اللعنة من اعلى المنبر ، لدرجة انتهوا معها الى منعه من الكتابة . طيلة سبع سنوات ، تقيد الحذاء ـ الفيلسوف بهذا المنع . ثم ، مدفوعا من الروح ، نشر على التوالي حوالي عشرين مؤلفا ، معظمها صغير الحجم ، بعضها في شكل « كتاب مفتوح » . كان بوسعه ان يجازف هذه المجازفة لانه كان يشعر نفسه مدعوما من بعض اعضاء طبقة النبلاء السيليزيين ، وبخاصة من صديقه وحاميه ابراهام فون فرانكنبرغ . النبالة السيليزية كانت تقيم صلات مع الارستقراطية الانكليزية : هكذا سرعان ما اصبح الحذاء ياكوب بوهم معروفا في انكلترة . كتاباته الاهم هي ـ فضلا عن « اورورا» المذكور آنفا ـ « Vierzig Fragen von der Seele » (« اربعون سؤالا من النفس ») ، « Sechs theosophische Punkte » (« ست نقاط في الحكمة الالهية ») ، و « Mysterium magnum » (« الاسرار الكبرى ») . في المانيا ، سرعان ما سقط ياكوب بوهم في النسيان ، بينما استمر تأثيره بعض الوقت في انكلترة وبدرجة اقل في فرنسا . هذه الشهرة القصيرة ـ وهي بحد ذاتها على ما يكفي من الغرابة لكنها استثمرت ايضا من قبل الفكر الرجعي ـ استخدمت بشكل مفيد على يد بادر Baader وقبله على يد شلينغ Schelling الذي استخدم بوهم ضد فيشته Fichte (على حد قوله : ان اكثر من فيلسوف محترف يحسن صنعا فيما لو اعطى كل بلاغته لقاء ثراء وعمق تفكير هذا النوراني) ، كما وعلى يد هيغل الذي كان معجبا بـ بوهم (٣) . اذا سعينا ، على الصعيد الميثودولوجي ، الى تحرير الملامح الخاصة لهذه الفلسفة الجدلية جوهريا ، لاحظنا انها ، رغم نقولا دو كوزا ، اول جدل موضوعي منذ هيراكليت . لقد انشأنا ملاحظة مشابهة لدى حديثنا عن باراسلس ، لكن عند بوهم يتخذ الجدل ابعادا هائلة بل وغولية . ان صورة الطبيعة ، الكيفية (qoolitative) بتمامها ، عند بوهم هي نوعا ما بمثابة قطب ـ نقيض للعلوم الطبيعية الرياضية كما كان يصممها غاليله ونيوتن ؛ كانت اقل معارضة بقليل لـ كيبلر Kepler الذي ما زال استمرار عنصر الكيف مرئيا عنده بوضوح . من نافل القول ان بوهم لم يعرف العلوم الطبيعية الرياضية وانه كان يجهل حتى اسمها . ان صورته للعالم تنبع من مجتمع سابق للمجتمع البرجوازي لزمنه ، من مجتمع ما زالت ايديولوجيته تقبل الطبيعة الكيفية (qoolitative) للاشياء ، الطبيعة التي تجهلها ايديولوجية الحساب. في المجتمع الرأسمالي ، النصر ملك للحساب ، للتحويل الى كم ، لتشكل الاسعار حين تكون القضية تبادل السلع ، لكون جرت تسويته كميا . بوهم بالمقابل يعود صعودا ـ وان في احيان كثيرة تحت شكل فات اوانه وشبيه الانسان على نحو عجيب ـ الى مظهر الطبيعة ما قبل ـ البرجوازي ، حيث كل شيء تدفق وكيف، الطبيعة متصورة ، نظرانيا ، كصيرورة جدلية مصنوعة من ظل وضوء .

قبل ولوج التفاصيل ، احب ان اذكر مقطعا من « الراعي النحيل » لـ فلهلم

رابـــه Wilhelm Raabe يصف لنا النفس التأملية للحذائين بوجه عام وللحذاء ياكوب بوهم بوجه خاص :

« اولئك ، كما يقول الشعب ، « قوم متأمل » ، وما من حرفة اخرى تثير عند اعضاء جماعتها هذا القدر من صفات مرموقة وجديرة بالاهتمام . طاولةالعمل القليلة الارتفاع ، المقعد الصغير ، كرة الزجاج المليئة بالماء التي تجمع وترسل ببريق اكبر ضوء المصباح الزيتي الصغير ، رائحة الجلد والقار النافذة ، تمارس بلا شك اثرا دائما على الطبيعة البشرية ، هذا ما تثبته التجربة . يا لهم مـن اشخاص مبتكرين انتجتهم هذه الحرفة الممتازة ! ـ يمكن ان نملأ ، بدون استنفاد الموضوع اطلاقا ، مكتبة كاملة من روايات عن الحذائين الذين يستحق اسمهم ان يحفظ . أن شعاع الضوء الذي يسقط من الكرة الزجاجية المعلقة فوق طاولة العمل مملكة شعب بالكامل من ارواح غريبة ؛ انه يملأ ، بينما يتقدم العمل ببطء ، الخيـال بأشخاص وصور عجيبة ، ويلون الافكار بألوان وفروق لا يستطيع مثلها اي مصباح آخر ، مسجل او غير مسجل . في هذا الجو يجري تصور شتى أنواع القصائد ، والحكايات الغريبة ، والقصص الرائعة ، والروايات المسلية او الحزينة ، المستمدة من مسرح العالم ، روايات ، حين توضع على الورق بيد غيـر ماهـرة ، تدهش الجيران ، تبكي او تخيف النساء حين تقرأ لهن بصوت محجوب عند هبوط الظلام . او ان المرء يضيع في افكار اعمق ويشعر بالحاجة الى الانحناء « على اصـــول الحياة » . نظرنا ينفذ في الكرة المضيئة ، وفي قاع الزجاج نشاهد الكون مع كل اشخاصه وطباعهم ؛ نجتاز ابواب كل السماوات ونتعارف مع كل نجومها وعناصرها؛ تجتاحنا افكار سامية نضعها كتابيا بينما الراعي بريماريوس ريشتر يثير ضدنا الرعاع من اعلى منبره وجلاوزة غورليتس المكلفون بزجنا في الحبس ينتظرون على الباب : « اذ هو حق ودوام الازل ان تكون له ارادة واحدة وحيدة . لو كانت له ارادتان اثنتان ، لحطمت احداهما الاخرى ولكانت الفتنة . انه يشتمل على عديد من الطاقات وعديد من المعجزات ؛ لكن حياته هي الحب الوحيد الذي يشع نورا وجلالا . كل مخلوقات السماء لها ارادة صوب قلب الله وتتقدم نحو روح الله ، مركز الكثرة والتعدد ، والنمو والازهـار ؛ لكن روح الله هـو الحيـاة في كـل الاشياء ، الـ « centrum naturae » ، مركز الطبيعة الذي يمحض الماهيـة والجلال والقوة ، والروح ـ القدس هو المرشد » نبصر اشياء كثيرة في الكـرة المضيئة التي تعكس الضوء المتذبذب الآتي من المصباح الرديء ، كثيرة بحيث يصعب علينا ان نستودع الورق كل الذي ابصرنا ؛ مع ذلك بامكاننا ان نكتب في اسفل المخطوطة المنجزة : « كتب حسب التنوير الالهي بيد ياكوب بوهـــم ، المسمى « Teutonicus » » .

لنذكر شاهدا آخر اكفأ بكثير من الروائي الذي ، فضلا عن ذلك ، يقدم لنا نصا من بوهم سيء الاختيار وقليل الكشف عن الشخص . قصدنا وريثا عظيما لـ بوهم ، فريدريش هيغل ، كان بامكانه ان يتحادث بشكل جيد مـع الحذاء ـ الفيلسوف . يقول هيغل في دروسه عن تاريخ الفلسفة : « طريقته العجمية في

التعبير عن الامور تنفرض كبداهة ... لكن بدهي بنفس القدز الجهد في العمق الذي يسعى به الى جمع الاطراف ـ النقيضة الاكثر اطلاقا ... من غير الممكن تجاهل او انكار الحاجة العميقة الى النظران (التأمل النظري) التي دفعت هذا الرجل ... » . تلك هي النقطة المطلوب جلاؤها بعرضنا افكار بوهم الجوهرية .

كتاب الجوانية

على سبيل البدء ، ينبغي ان يضع المرء نفسه في وضع الانصات الى اعماقه ذاتها ؛ هذا يجب ان يتحقق على نحو يكون معه للانسان الذي ينصت الى نفسه انطباع سماعه ايضا الرسالة السرية للاشياء . التأمل الذي به يغطس الانسان في أناه الخاص يجب ان يكون له وفيه نوعا من نظر في داخله ، ادراكا للجوع ، للقلق، للرغبة التي دوما تدفعه . والحال ، ان المسألة الاساسية لـ بوهم ، المسألة الموجودة في بداية كل شيء ، تنفصح على النحو التالي : كيف الظلام ، الشر ، جاءا في العالم ؟ نحن انفسنا ممتلئون خبثا ، نجد قليلا من الطيبة حولنا ؛ ومع ذلك فالكنيسة تعلمنا ان العالم خلقه اله طيب . بوهم يعترف بأنه ، في كتاباته الاولى ، كان قد تصور ، في هذا الصدد ، « افكارا وثنية » : « انا اذا ، انا المخلوق الضعيف ، افضل من هذا الله ؟ » . ذلك شعور واسع الانتشار في تاريخ البشر ، التراجيديون الاغريق جعلوا انفسهم صدى عنه ، تقواهم تعذبت منه . انه سؤال ايوب : تحت هذا الشكل اخذ ، في المسيحية ، مكان التسليم للذي لا تسبر اغواره ، للعناية الالهية التي لا تسبر اغوارها . اذا كان السبب الاول للعالم هو الخير فمن اين يأتي الشر ؟ لفك هذا اللغز ، على الانسان ، حسب بوهم ، ان يذهب بالتفكير الى قاع نفسه حيث يجد ميدانا مركزيا من الطبيعة ومضاء بشكل جيد نسبيا : ميدانا اقرب منالا من الميادين الاخرى التي ليس للانسان ادنى معرفة عنها . بما اننا مصنوعون على صورة الله ، فبوسعنا ، شرط ان نغرق في انفسنا، اخذ التماس مع بداية كل الاشياء . نلمس هكذا بدايتنا المدفونة في اعمق اعماقنا؛ نلمس بداية الاشياء مع شعور خارق بالحضور والتذكر ، نغطس بنظرنا في الطبيعة الوحشية للاصول . ونأخذ وعي وجود « تخالط » ، تخمر اثاره احتكاك عنصرين، تناقض ، غليان ، قتال بين عنصرين هما هنا من البداية ، في سريرة الاشياء . لكن يجب ان لا نتوقف هنا : بوهم يؤكد ان العقل يجب الا يتوقف امام سر الاصل « كما تقف بقرة امام باب الاسطبل » . ويضيف، معمسمار ضد العلماء الانتقائيين الذين ليس عندهم رأي لهم فعلا : « انا لا احشد في علمي حروف كتب عديدة ، بل احمل الحرف في ذاتي ، ما دامت السماء والارض وكل الكائنات والله نفسه يرقدون في قاع الانسان . افلا يكون للانسان حق القراءة في هذا الكتاب الذي هو نفسه اياه ؟ » . تلك ذاتوية صوفية ، لكنها ايضا محاولة وصول ، بطريق تحت ـ الارض ، الى الميدان الاكثر جوانية ، الى اصل ، الى مبدأ كل كائن .

الشر في الله هو في اصل تناقضات هذا العالم ،
والقوة الاصلية الفاعلة هي الجوع

حين نتفلسف من طبيعة الاصل ، ماذا نجد في البداية خارج الخير ؟ نجد سبب كل مصائب هذا العالم ، وهذا السبب سبب اول . انه لا يرقد في « القوة المقدسة والمضيئة » ، بل في جوانبها المظلمة . المسافة الفاصلة بين الله والطبيعة صغيرة ، وياكوب بوهم يستطيع أن يؤكد في مؤلف « الفجر » : « اذا اردنا الحديث عن الله وقول ما هو ، لزم علينا ان ننظر الى ابعد ، ان نفطس بنظرنا في القوة الالهية ، الظافرة ، القديسة والمضيئة ، في الثالوث الاقدس السرمدي ، الكائن الظافر ، المنتشر دوما والمتحرك دوما ، والذي فيه تنوجد محشودة جميع الطاقات كما في الطبيعة » . هكذا ، نقترب من الكينونة التي ، بموجب قوانين الطبيعة ، يجب ايضا ان تنوجد في الله : هكذا ، ثمة ، في عمق الله ، عنصر شرير ، شيطاني ؛ وجه الالوهة الآخر هو الشيطاني ، كينونة ملتهمة، مرة كالعلقم، قابضة ، متكبرة ؛ شيطان ، رعب ، عاصفة ، برد ، نار متلألئة ، لكن ثمة ايضا في الله ، حسب بوهم ، شيطان لطيف يقف على الحد . الشيطان والله مفسران بوصفهما هوية الاثنيات المتضادة ، اذ ان الشيطان هو الذي يقود الله على طريق العالم الهشة والجدلية . يلزم ان يتلاقى الضيق والرحابة ، الحموضة والعذوبة ، الرعب والنور ، هكذا فالنفي هو في اصل كينونة العالم الظاهرة . لو لم يكن هناك العنصر النافي ، السالب ، الخصم ، لما كان ثمة كشف (وحي) ، تظاهر (تجل) للخير . ان ما يدفع الى الظهور هو العناد الآكل ، هو الفرق ، المغايرة ، الاستقلال الذاتي ، الاجتماع ، التحالف . بوهم يستنتج من ذلك جدله الموضوعي ؛ هكذا ، كما يقول بوهم ، « احدهما يعارض دوما الآخر ليس بنية عدائية بل كي يتحرك ويتظاهر » .

والحال ، ان هذا التنقيب الاستبطاني هو الذي يذهب أعمق في النفي : السبب الاول للعالم يحوي في نفسه اللا ـ كائن ، النفي الذي يعرفه ياكوب بوهم بأنه ثنائية تناقض جديدة لا تنخفض الى التعارض بين الحامض والحلو ، الضيق والرحابة ، النار المرعبة والنار المضيئة . يعرفها بضمه مجموعة صور ورموز وتشابيه الى موضوعة أساس مختلفة تماما في جوهرها . في أساس النفي ، في قاعه ، يلمح بوهم رغبة ، نبضة هيجانية ، نزعة ارادية ولدت جوهريا من نقص ؛ الرغبة تستجيب للنفي ، العنصر السالب والنقص يتظاهران في الرغبة ، او ، استخداما لمفردات بوهم ، الجوع . الجوع هو الثابت الذي يصادف في كل افراد عائلة النفي ، الجوع كرغبة وارادة ليس لها لكي تهدأ سوى نفسها : « الارادة تبحث عن نفسها ، لا تجد شيئا سوى صفة الجوع التي هي اياها بنفسها . فهي الذي تتناوله في نفسها ، بتعبير آخر انها تمتص نفسها بنفسها ! » . هذا الامتصاص ـ الذاتي هو اذا « المختر » ، الحموضة ، « المنكمش » ، « الارادة الخاصة » ، « القابض » ، في الاشياء ، انه هو الذي يؤلف « لا ـ اساس » او

« لا ــ قاع » كل تفارق في نواة الفاعل . الحموضة القابضة تكون اذاً ، حسب بوهم ، مماثلة للـ « fiat » (الـ « ليكن ») الالهي ؛ فمن الجوع ، أعلى حيلة او آخر وسيلة لمعرفة الكائن ، تنبع في الله الطبيعة .

التامل الكيفي للطبيعة ؛
الارواح الغزيرة المنتفخة ،
خلاصة وزبدة العالم : الانسان

يتبع الوصف التفصيلي لصورة عن الطبيعة كيفية محض فيها المرارة والعذوبة والنار والضوء والصوت تفهم كيفيات (صفات) واقعية لحياة الطبيعة ، وهي رؤية تعارض على نحو ساذج لكن اساسي العلم الطبيعي الميكانيكي . هكذا ، نشاهد في مكان الضغوط العادية وحركات الدفع وتغيرات المكان الكمية عددا كبيرا من الكيفات . في نفس الخط ستنحفر في وقت لاحق نظرية الالوان لـ غوته ، نظرية ستضع غوته في معارضة نيوتن وبموجب حدودها تفهم الالوان بوصفها « اولاد الليل والنور » ، بوصفها « افعال وعذابات الضوء » ؛ هذه « التوافقات الفوتيئية » تذكر فورا بـ بوهم .

يعتقد بوهم بوسعه ان يعين بهذه الطريقة المدهشة ولكن المفكرة **سبعة اصول** . بالنسبة له ، تحضر قوى الطبيعة في الله او قوى الله في الطبيعة بوصفها سبعة انماط للـ انتفاخ ــ تدفق ــ عذاب ــ « كيف » qualitaet بحرفي L) هي سبع قوى طبيعية ، اشكال وجودية للديناميكية ، تدور على نفسها في العالم وتسانده : بالواقع هي التي تؤلف العالم . يفترض اذا أن الخلق لم يتم دفعة واحدة ، بل هو صيرورة مستمرة . لكان العالم يغطس في العدم لو لم يكن « يخلق ــ ثانية » في كل برهة ، لو لم يكن يحمل في نفسه عنصرا «منتجا» . القوة الاولى هي الحموضة (الخشونة ، الشراسة ، âpreté الموجهة نحو « sal » (« ملح ») ، العنصر القابض ، الذي ينضم اليه كقوة ثانية العنصر الذي يفك ، العنصر المر ، المنظم نحو « زئبق » ، الحركية المحرضة ، التي يشعر بها كانزعاج ، الحساسية sensibilité ــ وهي كلمة لها ، في الالمانية، ايضا معنى susceptibilité (كذلك في العربية : « حساس ») . أن يكون المرء حساسا هذا معناه : يغضب بسهولة ، يتحرض ، يثور ، لكن ايضا : مرهف الحس ، يستجيب للتنبيهات . اول من لاحظ هذه الازدواجية الصوتية هو اناكساغوز Anaxagose ، الذي كان يقول انكل احساس يرافقه شعور انزعاج . المحتويات يمكن ان تكون سارة ، لكن الاحساس كاحساس يحمل تعكرا وعدم سرور . القوة الثالثة الانتفاخية، وهي سلبية جوهريا، أسمها قلق (angoisse) هي النار بغير لهب المحرقة على طريقة الكبريت المضطرمة تحت الرماد ، هي قتال الحموضة (الخشونة ، الشراسة) ضد الحركية (سهولة الحركة ، الخفة)، هي الكبريت الذي في اعماقه ما زالت النار راقدة . بالنسبة لـ بوهم ، ثمة في هذا كله ايضا تعيين لموضوع وليس فقط حالة ذاتية ، نفسية . الحالة الذاتية ،

النفسية ، انما فقط تكشف ما تحويه الموضوعات فعليا ، انها في نظر بوهم مقولة علمية حقيقية . بوهم يسمي القوى الاساسية الثلاث للواقع الطبيعي بالمصطلح السيميائي – الكيميائي المستعمل آنذاك : « salniter » (سالنيتر : ملح – آزوت) ، في قصيدة شهيرة لـ شيلينغ Schelling ألفها الفيلسوف في شبابه وعنوانها « أعلان ايمان ابيقوري لـ هاينتس فيدربورتنس » ، الـ « سالنيتر » يقيم عيد قيامة فرحة ؛ الكلمة مشتقة من البيزنطية « Salonitron » (ملح نطرون) وتعني « salpêtre » (ملح البارود) الحامض النيطري (الآزوتي) كان يستخدم في العصر البيزنطي لاستخراج الذهب من خلائطه . الكلمة اقدم بكثير في اصلها ؛ فهي تعود على الارجح الى البابلية القديمة التي كانت تطلق اسم « nitriu » على رماد اساسي (basique) ؛ اذا كان هذا الاشتقاق هو السليم، يكون الاغريق استعاروا الكلمة من البابليين قبل ان ينقلوها الى الرومان ؛ وبهذه « التحويلة » جاءت الكلمة تعني « لاتينية الكندرجي » التي كانت تستخدمها سيمياء ياكوب بوهم . هذا الاخير يجعلها مصطلحا جماعيا للعنصر الاساسي (basique) ، المصطلح الجماعي للقوى الانتفاخية الاولى الثلاث الخشونة ، الخفة الحسية ، النار الخافية تحت الرماد . والحال ، بدءا من هذه القوى الانتفاخية الفليانية الثلاث نجد الـ « لا » مقترنا بالـ « نعم » ؛ بالحيقة ، الـ « لا » هو الغالب ، والـ « نعم » لا يتوصل الى التظاهر ، لانه ممتص من قبل الـ «لا» ؛ الـ « لا » المر ، الضيق ، الاساسي ، يحبس الـ « نعم » . في القوة الرابعة المتنفخة المتكاثرة يحصل انقلاب في الموقف : هذا الروح ان هو الا النار المندفقة من كبريت القلق ؛ له خاصة كونه سريعا ، كالبرق يتظاهر بشكل مفاجيء يجعله قريبا من الصاعقة ، لذا يطلق بوهم على ناره مرة اخرى اسما مأخوذا من الميدان النفسي – فهو يدعوه « فزع » « Schreck » او « Schrack » ، فزع ، هلع) – وهو مصطلح يريد ذاته ايضا تعيينا من تعيينات الطبيعة . انها تظهر تحت شكلين مختلفين : شكل مظلم ، ضيق ، صفراوي ، بتعبير آخر سلبي ، كما في نار الغضب ، في تهديد العاصفة والاعصار والحريق الذي لا يتحول عنه الانسان بفزع وحسب بل يدركه ، حسب بوهم ، بوصفه الفزع كفزع . مرة اخرى ، يلجأ بوهم الى مقولة نفسية ، الفزع ، ويماثلها تماما مع ما تعتبره الفلسفة الطبيعانية مقولة كيف ، مع النار التي تخيف ، والتي هي بحكم ذلك لا تثير فقط ، حين تحضر فى هيئة الصاعقة، خوفا بدائيا، بل هي نفسها خوف. هذه النار النافية متربصة في قاع كل الاشياء وهي تتظاهر عند أول فرصة كفاعل مدمر. بالنسبة ا ياكوب بوهم ، كل عاصفة هي تكرار لنهاية العالم ؛ لكن البرق هو ايضا تظاهر برقي لل « نعم » ، انقلاب جدلي . اذ هذه النار ذاتها هي التي ، عدا عن الهلع ، تولد أيضا الحرارة والنور . النار الملتهمة تصير نار الموقد التي تجمع البشر. في الكون انها نار الوسط التي تدفيء وتضيء كل شيء ، جمر الشمس الذي يحمل الينا الربيع ، الذي يجعل الحياة تتفتح ، الذي يتظاهر بالحرارة وبالشيء الاكثر استحسانا في هذا العالم ، الا وهو الضوء – اذا فالنار ، وقد تحررت ، هي التي تلد

القوة المنتفخة المتكاثرة الخامسة ، الضوء : العالم يضاء ، يتنور . بالنار من حيث هي حرارة تتحرر القوى المنتفخة الثلاث العليا : الارواح الصافية ، التي فيها يغلب الـ « نعم » لدرجة أن الـ « لا » لم يعد يخيف ، بينما في القوى الثلاث الاولى كان الـ « لا » يفرض ذاته بقوة كان معها الـ « نعم » يمحي كثيرا أو قليلا . هذه الكيفات الثلاثة الصافية ، هذه « **الانتفاخات** » الثلاثة ، « الارواح المنتفخة » ، « القوى المنتفخة » الثلاث للطبيعة ، هي **الضوء ، الصوت ، الجسمية** . الضوء تتبعه قوة أساسية سادسة ، هي الصوت الذي ـ كما يؤكد بوهم ـ يرافق الضوء دائما . لعل ذلك استدعاء مكتوم لـ « تناسق الكرات » ، لتوافق أصوات عجيب لا يصادف في العلاقات الطبيعية بين عالم البشر الداخلي وعالمهم الخارجي ، توافق أصوات يحمل الينا الجزء الثاني من « فاوست » غوته صداه : « لفي حفيف وخرير يولد ، لآذان الروح ، النهار الجديد ... » أو « أية لجة يحمل الضوء » . مهما يكن من أمر ، فمع النور الذي يبزغ ـ مستوى أو كيف عال ـ الضجة أو الصوت . من الصوت ـ يشرح لنا بوهم ، تولد الكلمة ؛ الكلمة تسهل الاتفاق والتفاهم ، تجعل ممكنا تبادل محتويات الفهم أو الذكاء . من هذا كله يبزغ كمآل ونهاية لهذه الولادات الست ـ بوهم يشبه السيرورة الكوسمية بامراة في مخاض ـ الكيف السابع ، وهو **الجسمية**، أي الطبيعة المشكلة في جملتها وتمامها كما نراها ، التمام أو الامتلاء الصريح لكل الكيفات التي جرى تعدادها ، أي ما ندعوه الخلق أو الخليقة . الخليقة هي نقل ووضع « مركز الطبيعة » في « الجسم الطبيعي » ، في جسد ومادية الطبيعة ، و ـ في المستوى الاعلى ـ في « جسد المسيح » « corpus Christi » .

الى هنا ، بقينا في العالم ، العالم الكوسمي الوثيق الارتباط بالانسان ، حيث الانسان هو السؤال والعالم هو الجواب ، أو العكس بالعكس . اكثر أيضا مما عند باراسلس ، الماكروكوسم هو بالنسبة لـ بوهم « الماكرانتروبوس » (الانسان ـ الكبير) ، العالم وقد استحال الى شجرة حياة . الانسان ، يقول باراسلس ـ وهذا ايضا مذهب بوهم ـ ، هو أسمى مشروع للطبيعة . منذ مؤلف « الفجر » يؤكد بوهم : « الطبيعة تضمر كيفين اثنين حتى يوم الدينونة : احدهما عذب ، سماوي ، مقدس ، والآخر غاضب ، جهنمي ، متعطش . هذان العنصران مجتمعان في شجرة الطبيعة ، والبشر مصنوعون من شجرة الطبيعة ويعيشون في العالم ، الحديقة الواقعة بين هذا العنصر وذاك ؛ والبشر هم دوما في خطر داهم ، معرضون تارة للشمس وتارة للمطر ، للريح ، للثلج » . البشر هم العين التي تنفتح ، هم الاذن ، والعين والاذن تدركان وتمسكان معا بآن « مركز الطبيعة » و « جسم الطبيعة » . الانسان يحتوي على شيء ما سبق أن ذكر حضوره في الضوء : العنصر المفترق ، الفارق ، التعدد أو التكثر ، الشر ، الغضب ، العدوانية ، يتلاقين في هذا المشروع الاعلى للطبيعة . في الانسان يتوجد مصلحا ومغيرا الى خير ما كان « الفاصل » ، الشيطان اللطيف ، لوسيفورس Lucifer ، رئيس الابالسة) ، أي « حامل ـ النور » ، لم يصلحه بعد في خدمة النور . وكان لوسيفورس الساقط يأخذه ابن الانسان ، المسيح الذي لم يعش في فلسطين فقط ، الذي لا يعيش

خارجنا ، بل الذي نحن أياه . المسيح ، ابن الانسان ، المسيح في الانسان ، هو لوسيفورس مصححا ومطهرا ، هو الشيطان وقد صار طاهرا . هكذا تجد تبريرها سقطة الملائكة وتفاحة الفردوس والاستنارة بالمعرفة وتمييز الخير والشر وبرج بابل. الامتياز الالهي ، امتياز القدرة ـ على الكون والقدرة ـ على ـ المعرفة ، والقدرة ـ على ـ الخلق ، قد أعطي للبشر . نشاهد مطبوعة تحت الكلام ملامح بروميثيئية حملت هنا للمسيح ؛ لفي المسيح وبالمسيح يجيب الانسان ، على النحو الاكثر وداعة، بالنفي ، على التصلب ، على المعارضة لشجرة الحياة غير المتطورة بعد ، شجرة الحياة التي هي شجرة السيرورة الحيوية أو ، اذا فضلتم ، السيرورة الشجرية للحياة . ينبغي التغلب على الحموضة والتفردن والتبعثر والعطالة التي تتصلب في التأمل والتحجر ـ هذا ما كانه ، حسب بوهم ، سقوط لوسيفورس ؛ التغلب على هذا كله، تلكم هي رسالة الانسان الذي هو الملك والذي يجب أن يهيمن على العالم .

العلاقة الصلبة بين ميكروكوسم وماكروكوسم كما كان يفهمها باراسلس تختفي ، أو بالاصح تتجاوز ؛ اذ ان العالم يسير نحو المستقبل ، الذي سيجعل منه عالما مطهرا ومجلى . العالم المحول الى شجرة حياة هو موافق الانسان ؛ بوهم يعبر عن هذه الفكرة بالجملة الآتية : « نرى بوضوح شديد أن مملكة السماء ومملكة الجحيم تصارعتا منذ الازل ودائما في الطبيعة ، أنهما كانتا في مخاض مثل امرأة تلد . لكن مثلما شجرة الحياة هي في العالم وتمثل العالم ، كذلك توجد فينا بفعل المسيح المنعم وعمله ، غاية حيث تلتهب شجرة الحياة في عذابها ذاته وفي كيفها ذاته، وأن النور الموجود في الداخل يلمع ويملأ الكيف كله الذي فيه تقف الشجرة». اذا فكل شيء يصب على حلولية تحمل فيها التنافي الذي يضعه الجدل كمسلمة ، التنافي المنقول والموضوع في مركز الطبيعة الالهي (« مركز الطبيعة » « centrum naturae ») بانتظار أن تلتغي الطبيعة الالهية في سيرورة القوى المتنفخة السبع ـ حيث النار هي الاستحالة الاولى ، والانسان الثانية وزبدة القوى الكوسمية السبع ـ ومعها عذاب العالم ، الرغبة مع جميع كيفاتها . هكذا ثمة في النهاية المصالحة ، العودة الى الواحد ، حذف كل الشقاقات .

الجدل الموضوعي

ياكوب بوهم يعطي القتال بين النور والظلمات شكل جدل موضوعي . ليس ثمة حركة بدون حركة ـ مضادة ، بدون ثناءوية ، والشر يجعل نفسه واسطة انكشاف النور . للافصاح عن فكره ، يلجأ بوهم الى وفرة كبيرة من استعارات . ليسمح لي بنقل مقطع من « النقاط الثيوسوفية الست » يقدم فيه بوهم جدله بنفسه : « يجب على القارىء ان يعلم أن جميع الامور موجودة بـ نعم ولا ، سواء كانت الهية أو شيطانية أو أرضية أو ما شئتم أيا كان . الـ « واحد » بوصفه نعم هو قوة ومحبة ، انه حقيقة الله والله بشخصه . لكن لا يمكن التعرف عليه بوصفه كذلك بدون الـ لا ، وبدون الـ لا . لن يكون هناك فرح ولا عظمة ولا حساسية .

الـ لا عكس الـ نعم أو الحقيقة ، والامر هكذا كي تستطيع الحقيقة ان تكشف عن ذاتها وأن تحرك وتحيي ذاتها بضد ، كي تستطيع المحبة الازلية أن تجعل ذاتها فعالية وحسا وارادة اذ أن الـ « واحد » ليس عنده شيء يستطيع أن يريد ، ما لم ينشطر لكي يكونْ اثنين ؛ وكذلك هو عاجز عن أن يحمل ما دام وحدة شعورا بالذات ، لكن هذا الشعور يمكن أن يولد اذا ما انشطر الى اثنين . بدون ضده ، ما من شيء يمكن ان ينكشف لنفسه ، اذ انه اذا لم يصادف اية معارضة فهو يخرج من نفسه ليعود ويدخل فيها فيما بعد ؛ اذا لم يعد ويدخل في نفسه كما في أصله الخاص فهو يجهل كل شيء عن أصله » . نرى في هذا الضوء ــ و ــ الظل البعيد عن بلاد الجنوب ، نرى مرة أخرى شروق جدل هيراكليت : هذا الجدل يتبدى لنا هنا بوصفه العنصر المشكل للعالم ، الجوهر الذي يخرج العالم من نفسه ، يدفعه الى التجلي . العالم يولد من تخمر يثيره الاحتكاك بين الـ نعم و الـ لا ؛ كل ما هو كائن في العالم ــ في عالم يؤدي هنا وظيفة انبيق ــ يواظب دائما على انتاج الضوء ، في الصعيد الكيميائي كما وفي الصعيد الاخلاقي والديني على حد سواء .

٧ فرنسيس بيكن

المنـاخ الروحي سيتغير الآن فجأة ، سيبدو للكثيرين أليفـا أكثـر : بعـد ان تأخرنا في ايطاليا وفي المانيا ، نعبـر بحر المانش لنتناول انكلتره وفرنسيس بيكن . بدون مغادرة « زمن النهضة ، سنجد انفسنا الآن في بلد رأسمالي متقدم نسبيا، يتميز في كل النقاط عن المانيا باراسلس وياكوب بوهم . والرأسمالية الانكليزية كذلك اكثر تطورا من الرأسمالية الايطالية التي اشكالها تجارية ومصرفية حصرا. في انكلتره نحس من الآن اقتراب الرأسمالية الحديثة مع ـ كخلفية في اللوحـة ـ الثورة الصناعية الكبرى للقرن الثامن عشر التي تتهيأ في هذا البلد منـذ القرن السـادس عشر . الانكليز من جهة اخرى استقبلوا بروح مختلفة مشاريع كريستوف كولومب ، جاذبية البحر ، الرحلات فوق مساحات الاطلسي الشاسعة ، حيث ان « plus ultra »(ابعد ! الى ابعد !) هذا العالم تعارض عندهم الـ « non plus ultra » (لا ابعد !) * . وبالفعـل ان صيغة « plus ultra » تشرح الصورة التي تزين الطبعـة الاولى للمؤلف الرئيسي لـ بيكن ، وهو « novum organum » (« الآلة الجديدة » او « الناظم الجديد ») ، والتي تتصدره ازاء العنوان . هذه الصورة تبين لنا سفينة انكليزية رائعة ثلاثية السواري تعبر اعمدة هرقل وتسير بقلوع مبسوطة نحو المحيط . والحال ، ان حمولة السفينة وهدف الرحلة اقل غموضا وأقل حجبا وأقل ندرة من حمولة وهدف باراسلس وياكوب بوهم . لكـن بينما كنوز باراسلس وبوهم هي في كثير من الاحيان كأنها مدفونة في اعماق مقابر سرية ، نرى الفيلسوف الانكليزي يطفح بأفكار حديثة وفي متناول المرء تماما .

---

* ـ هذه العبارة (بمعنى : هنا الحدود ، لا تتجاوزوا !) حفرها هرقل (حسب الاسطورة) على الجبلين اللذين فصلهما (« اعمدة هرقل » اي مضيق جبل طارق) واصلا مياه المتوسط بميـاه المحيط . العبارتان تعنيان اذا : المبالغة ، واللامبالغة ؛ او « ممكن اكثر » و« غير ممكن اكثر » . العبارة اللاتينية المنسوبة الى هرقل اصبحت شائعة في بعض اللغات الاوروبية بمعنى « هذا اقصى مـا يمكن ان يصل اليه التقدم (في ميدان من الميادين) واكثـر منـه مستحيل » . لسان حـال انكلترة الرأسمالية : ممكن ! (المترجم) :.

انه يتميز برحابة آفاقه وبمعاصرته اللتين تضعانه في مستوى الرأسمالية المنتصرة. يجب الا ننسى مع ذلك ان تأخر المانيا الاقتصادي كان له ايضا مفاعيل سعيدة . هذه الاخيرة لا تتبدى في الميدان الاقتصادي ، في طراز سكان البلد ، واقل ايضا في انسحاب المانيا التام تقريبا من جوقة الدول او القوى الاوروبية ؛ لكن المانيا استطاعت المحافظة على بعض جوانب فكر العصر الوسيط ، على اسلوب ما في طرح المسائل كنسته البلدان الرأسمالية . بيكن نفسه تأثر على نحو بالغ بريبية العشرة الطيبة لبعض المؤلفين الفرنسيين ، واشدهم دلالة مونتيني Montaigne في « المحاولات » (١٥٨٠) وفي وقت لاحق شارون Charon وسانشز Sanchez (١) . نحس عند مونتيني تلذذا ما في الشك ، انحيازا «اجتماعيا» للانحباس في « ربما » حذرة ، لعدم الالتزام اكثر مما يجوز ، للامتناع عن اي انحياز مولع . ان موقفا كهذا هو بالحقيقة غريب عن روح النهضة ، الحركة البرجوازية المنتصرة ؛ وبالتالي فان الريبية « الاجتماعية » لا تتفق كذلك مع مزاج بيكن . في نظر بيكن ، الريبية تابل ، سمكة كراكي بين سمك الشبوط الكبير ، دعوة الى الفطنة والحذر ، الى عدم قبول اي شيء بدون مراقبة ؛ تلك اذا ريبية في خدمة المعرفة. الى هذا ينضاف عند بيكن التقليد الاسماني (nominalisme) ـ غير المحصور بتاتا في انكلتره القديمة ـ الذي كان قد هيأ منذ لحظة لا بأس بها بنية ـ فوقية فلسفية الفكر الامبيريقي ـ البرجوازي الانكليزي (٢) .

التفويض الاجتماعي له اصله في البرجوازية الصاعدة الجشعة الى القوة الاقتصادية والسياسية ، الى قوة لا تنبع من امتيازات او من حقوق الولادة بل من عمل وانجازات وعلم الفرد (٣) . هذا ايضا منشأ حكمة بيكن الشهيرة : « العلم هو القوة » ، « knowledge is power » (« المعرفة هي القدرة ») ، التي يجب فهمها بوصفها سجالا ضد النبالة الاقطاعية . بما ان المعرفة تجلب الثروة ، فان قدرة الثروة تصدر ثروة القدرة ، ان استطاعة الثروة تأتي خلف ثروة الاستطاعة، وهنا ايضا تنكشف فلسفة بيكن عن كونها ايديولوجية تساند وتهيىء من زمن طويل الثورة الصناعية . ان احد معاصري بيكن ، وهو المؤلف المسرحي الانكليزي الكبير كريستوفر مارلو Marlowe ، كتب « قصة دكتور فاوست المأساوية » . في وقت لاحق ، اعادت فرق من الممثلين المسرحيين الانكليز هذا الموضوع الدرامي الى المانيا . لكن « فاوست » مارلو يتميز من « فاوست » الالماني على نقطة محددة : بينما « هاجس » فاوست الالماني ـ الذي كان موضوع الكتاب الشعبي « الضالع في السحر والفنون السوداء » هو رغبة العلم المفرطة ، « هاجس » فاوست مارلو هو ارادة القوة : بالنسبة لـ مارلو ، المعرفة لا تخدم الا في احراز قدرة الثروة اذا فايديولوجية انكليزية بشكل نموذجي تلك التي يفصح عنها في المعادلة البيكنية : « معرفة = قوة » ، التي تتصعد في موقفها النفعي الذي يلجأ عنده الى قناع فلسفي . صحيح أن الفكر المنفعي يخبىء ، فضلا عن التبرير البرجوازي لقوة الثروة ، فكرة اخرى : يجب على كل معرفة ان تضع نفسها في خدمة « مملكة الانسان » ، عهد (حكم) الانسان ؛ والحال ، ان هذا العهد للانسان

مفكر بوصفه **عهداً ديمقراطيا** . بدهي ان ذلك كان وهما ، وعيا ذاتيا خاطئا ، فالقرن السادس عشر لم يكن ناضجا لتأسيس كهذا ، لكن الفكرة لها قيمة تسبيق : انها تقدم لنا عنصرا حقا من ميراث ثقافي وهي بهذه الصفة تثير اهتمامنا .

فرنسيس بيكن أوف فيرولام Francis Bacon of Verulam (١٥٦١ — ١٦٢٦) ليس معلم حرفة حذاء مثل ياكوب بوهم ، بل رجل من أصل نبيل ، يعيش في دوائر المجتمع العليا ويشمل آفاقا واسعة . عين حارس اختام (وزير العدل) التاج الانكليزي ، ولم يلبث أن وصل الى منصب مستشار انكلترة ، مرتفعا الى مرتبة أول رجل في البلاد بعد الملك . الامر الذي يضاعف دوي سقوطه! فقد أتهم بالرشوة ؛ صحيح أن الوثائق المتصلة بهذا الفصل تفتقر الى تحديد واضح . مهما يكن من أمر ، فأن أعداء بيكن حصلوا على أن يحكم المستشار بالحبس المؤبد في برج لندن . ولقد أفترض البعض أن بيكن قبل بدور كبش فداء لتغطية شخص أعلى منه ، بتعبير آخر : الملك ! لذا فقد سارع هذا الاخير الى العفو عن فرنسيس بيكن ، معطيا اياه أمكانية كسب تقاعد ريفي مريح يجد فيه اخيرا الوقت ليضع على الورق — في السنوات القليلة الباقية له من حياته — افكاره الرئيسية . فلنهنىء انفسنا بهذه الدعوى في الرشوة ، اذ لولاها لكسبنا رجل دولة نزيها وخسرنا فيلسوفا : من فترة حياته كرجل دولة، لم يترك لنا سوى بضع محاورات ، قلة من كتابات . والحال ، ان الفلسفة التي بسطها بيكن تقع بعيدا عن العالم الجامعي ، بعيدا عن الفكر السكولاستي والوسطوي . أسلوبه المشبع بخفة الروح وغزارة استعاراته يذكران تارة بـ ليشتنبرغ Lichtenberg وطورا بـ شوبنهاور ، صاحب اخف روح بين الفلاسفة جميعا . قبل القيام بتحليل مقتضب لفلسفة بيكن ، اسمحوا لي بأن أذكر بعض استعاراته ؛ أنها عديدة في مقالاته الصغيرة ، لكن ايضا في مباحثه العلمية : « كن صانع سعادتك، لا طالب يدها اللجوج ! » او ايضا : « يجد الانسان فرحه اما في خيراته او في مصائب القريب الخبيث الذي يسر بشقاء الآخرين ، الذي لا يعيش من امواله ، يتغذى بأموال الآخرين » . أو : « نحسن صنعا بأن لا نعير أجنحة لبعض كبار المفكرين بل بأن نسكب رصاصا في احذيتهم » . او ايضا : « الثيولوجيا (علم اللاهوت) « مكرسة » لله وعقيمة ، مثل الراهبات » . ومن المناسب ان نذكر هنا بخبرية مسلية عن فرنسيس بيكن : خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، أغني شخص الفيلسوف ، على نحو غير متوقع وبالغ الاثارة للدهشة ، بلقب مجد جديد يجمله بشكل خاص . كان بحاجة الى ذلك ، اذ ان عالم الكيمياء الالماني ليبيغ Liebig مزقه قبل قليل بأسنانه وانيابه . نزع اسطورته ، نعته بالثرثار ، الدجال ، الطوباوي المثير للضحك ، باختصار اظهر تجاهه عداء عاطفيا جليا . لكن في الوقت نفسه كان اسم بيكن قد قدم في المناقشة عن هوية مؤلف المسرحيات المنسوبة لشيكسبير . ليس في حوزتنا أية دراما وبالكاد بضعة أبيات مكتوبة بيد شيكسبير . نادرا ما اعطى امضاءه ، بأشكال مختلفة دوما ، وغالبا في اسفل اعترافات بديون لكن ايضا على وثائق دائن . والحال ، لئن كانت العبقرية

يمكن ان تولد مع الرجل ، كما رأينا في الفصل عن ياكوب بوهم ، فمن أين ـ هذا ما تساءلوه ـ امكن لشيكسبير ان يغترف هذا الكنز من المعارف ، اين امكنه ان يطلع على نوع حياة الطبقة الاجتماعية العليا ، على عادات البلاط ؟ وهكذا قدموا فرضية مفادها ان بيكن ، العالم العلامة ، كان ايضا اكبر المؤلفين المسرحيين عبقرية ؛ لكن بما انه ما كان ممكنا ان يسمح لنفسه ، بصفته مستشار الملك ، ان يقدم مسرحيات لمعشر الممثلين الحقيرين ، فقد نشرها تحت اسم وليم شيكسبير الممثل بحكم مهنته لا اكثر . فكرة حمقاء مآلها الاستعاضة عن مسألة بسيطة الى حد كاف بمسألة ليس لها حل من الناحية العملية : ان المملكة التي كان يديرها فرنسيس بيكن لم تكن سهلة المعالجة بما يمكن مستشارها من ان يكتب ، في لحظاته الضائعة ، عمل شيكسبير الضخم ! فنكلباند Winkelband يلاحظ بهذا الصدد انه لمن المعقول اكثر ان نفترض ان شيكسبير انضج في لحظاته الضائعة فلسفة بيكن من ان نعزو ل بيكن تحرير مسرحيات شيكسبير ؛ لكن تلك فكاهة يشك في ذوقها جاءت تضخم اكثر المناقشة الخرقاء عن أبوة درامات شيكسبير . يعرف القارىء الحل الخفيف والساخر الذي أقترحه مارك توين Marc Twain حسب رأيه . درامات شيكسبير لم يكتبها شيكسبير بل مؤلف آخر كان يدعى ايضا شيكسبير . لكن لم يكتفوا بنسب مسرحيات شيكسبير الى بيكن . ان فرضيات خيالية أخرى كانت ستتبع . أليس غريبا ـ حسب محاكمة البعض ـ انه بعد صدور « دون كيخوت » في اسبانيا بسنوات قليلة ظهرت في انكلترة ترجمة ممتازة للرواية الشهيرة ؟ أليس هذا دليلا على ان فرنسيس بيكن هو الذي كتب دون كيخوت ، طبعا بالانكليزية ، وان المؤلف نشر فيما بعد في ترجمةاسبانية تحت اسم ضابط صغير أبتر اسمه سرفانتيس Cervantés ؟ يمكن أن نخلص من هذا كله الى أن الرجل الذي يشغلنا في هذه اللحظة كان شخصا مهما ما دام البعض لم يتردد في أنينسب اليه فضلا عنمؤلفاته الفلسفية كل دراماتشيكسبير ودون كيخوت سرفانتس ! بيكن كان لا ريب يتمتع بشهرة هائلة ، والا لما صاغوا ازاءه فرضيات غريبة مضحكة كهذه ...

اسمحوا لي بأن اقدم اولا بأول مؤلفاته الاهم التي ، كما سبق ان ذكرنا ، حررت في شكلها النهائي اثناء سنوات التقاعد الريفي لؤلفها . غني عن القول انه لم يستطع ، في هذه الحقبة القصيرة ، انجاز كل مشاريعه. مع اغفالنا دراساته الميثولوجية ومحاولاته الوجيزة عن الخرافات القديمة ، لقد اراد ان يجعل من مؤلفه « Instauratio magna scientiarum » (التأسيس الكبير للعلوم) عمله الرئيسي . لم ينجز . كان بيكن ليقول على الارجح ، مستوحيا عصره الانتقالي ، ان كل كمال لمضر ، لذا فان عمله لا يشمل سوى جزءين : الاول ، « في كرامة واتساع العلوم» سنة ١٦٢٣ ، والثاني، الـ « Novum organon scientiarum » الشهير (« الناظم الجديد العلمي او الطريقة لتأويل الطبيعة ») سنة ١٦٢٠ . المجموع كان مصمما بوصفه « جامعا فكريا » جديدا ، فهرسا ينقل مكتسب كل علم من العلوم ـ وهذا اهم بكثير ايضا ـ كل فتوحات العلم المتبقية للمستقبل .

هكذا ، بموازاة رحلات الاكتشاف الكبرى ، بيكن ينطلق في اكتشاف ميدان مفهومي جديد مستندا الى تقنية استبار جديدة ، **الطريقة الامبيريقية – الاستنتاجية** empirico - déductive . كملحق ، يقدم لنا مؤلفه « اطلنطيس الجديدة » (« Nova Atlantis ») ، وهي اول يوتوبيا تقنية . ما يهمنا في المقام الاول هو اللهجة الجديدة التي يعتمدها في مساجلته ضد فن لول Lulle . بيكن يدعو مشروعه الخاص هو ايضا « فن الاختراع » (« ars inveniendi »). لكن بينما ريمون لول يستنتج الخاص من العام والمفرد من الخاص ، يتخذ بيكن كنقطةانطلاق الواقعة المنفردة والخاصة لكي يصل ، بفضل تجريدات ، الى الكلي ؛ يجهد لاكتشاف القانون باستقراء induction . هكذا ، يدخل الطريقة العلمية الاستقرائية التي لها بالاحرى عند بيكن قيمة برنامج ، فالمعرفة الفعلية للوقائع الملاحظة وللانجازات الرياضية منذ غاليله تنقصه في كثير او قليل .

هدف المعرفة :
السيطرة على الطبيعة

مشروع الاساس في مذهب بيكن جديد : لا وجود لحقيقة في ذاتها ، لمعرفة في ذاتها . كل معرفة يجب ان تفيد الانسان ، أي يجب أن تخدم في اقامة « مملكة البشر » على الارض ، « عهد الانسان » ، السعادة للجميع . تلك هي الغاية الاخيرة لما دعي بـ « منفعية » بيكن (مذهب المنفعة عند بيكن) : في نظر بيكن ، ان اقامة حياة أيسر واسعد ، حرة من السخرات ، من الشغل ، من الشقاء ، من الضغوط ، من الحوادث ، من المرضى ، من ضربات القدر ، انإقامة هذه الحياة بفضل « العلم » تتعادل مع تحويل ، مع تحسين للعالم . انها تترجم عن اندفاع الرأسمالية الفتية المنتصرة التي ، وهي تغادر مرحلة الرأسمالية التجارية ، تدخل في عهد الرأسمالية الصناعية . الحركة تدخل ، بالمعنىالحقيقي للكلمة ، في المحاسبة ، حركة تعبر عن نفسها بالامل الساذج ، الذي ما يزال صداه محسوسا في القرن الثامن عشر عند آدم سميث ، بأن هذا النمط الاقتصادي سيجلب لاكبر عدد من البشر اكثر ما يمكن من السعادة . والحال ، من اجل تحقيق هذا المشروع ، يجب معرفة اسباب القوانين الطبيعية ، يجب التمكن من ارغام الطبيعة وتسخيرها في خدمة « مملكة البشر » . بالنسبة لـ بيكن ، هذا معناه : السيادة على العالم ، ممارسة السلطة على الاشياء ، تحويل الموضوعات كي تخدمنا . والحال ، ان السيطرة على الطبيعة لا يمكن ان تتحقق الا بعكسها الظاهر ، الطاعة : « ننتصر على الطبيعة بأن نطيعها » ، يقول بيكن . يجب اذا معرفة الطبيعة وقوانينها من اجل الرضوخ لها والوصول الى السيادة التقنية . هكذا يولد سحر جديد يعارض السحر القديم . يقينا ، ان سحر الماضي كان ايضا يريد تحويل العالم ، لكن بوسائل خرقاء ؛ لتخطي هذا السحر الاخرق ، يلجأ بيكن الى التقنية . كلمة « technique » (« تقنية ») كانت آنذاك كلمة سحرية جديدة بالتمام ، ولم يكن لكل شيء سوى هدف واحد : تأسيس التقنية .

والحال ، أن أنجازات السحر الطبيعي هي — ونسترجع حدود ومفردات صورة اخاذة من بيكن — ازاء انجازات السحر المتطير ما حملات الاسكندر الكبير او يوليوس قيصر هي ازاء مآثر فرسان الملك آرثر . هذه الاخيرة تنتمي لعالم الخرافة في حين ان حملات الاسكندر وقيصر كانت حروبا حقيقية مصحوبة بانتصارات وفتوحات ، بتحويلات حقيقية لسطح المعمورة . السحر ، وهو رؤية حلم ، يعاد ان جاز القول الى وضع التوازن عموديا ويقام على قدميه : مهمتنا عينها لنا السحر ، نأخذها على محمل الجد مخلصين أياها من كل خرافة وتطير ، كما نخلص العلم من السكولاستيك ومن اللاهوت .

الحس والعقل

لممارسة الطاعة تجب معرفة لمن الطاعة يلزم اذا أن تكون عندنا خبرة ، فبالخبرة نقترب من الموضوعات . اذا أردنا السيطرة على الطبيعة ، وجب علينا الركون الى آراء الطبيعة وحدها وعدم مناقضتها بلغونا . نحن مجبرون على استشارة أدراكاتنا ، فبواسطتها يتعامل الانسان مع الواقع وعلى العقل تقع عندئذ مهمة تحرير قوانين الواقع وقواعده ، بالاستقراء (induction) . على الانسان ، يؤكد بيكن تابعا برونو ، ان يستخدم البابين اللذين بهما يستطيع التأكد من العالم ، من الميدان الخارجي ، من الطبيعة ، وهما الحس والعقل . اذا سلكنا هذا المسلك ، فاننا لا ندع انفسنا نفاجأ بسير الحوادث ، بل نتآلف معه مرتفعين الى مستواه ، نقبض نوعاً ما على التناسبات والترابطات المحكومة بقوانين ، على اجتماع وتداعي الاشياء وليس فقط على اجتماع وتداعي افكارنا . الحس والعقل ، يقول بيكن ، لا يعودان يتقدمان جنبا الى جنب ، بل اخيرا هما يتحدان في زواج شرعي . باسم اتحاد كهذا يجب ان نرفض الخبرية الاحادية الجانب والعقلانية المجردة سواء بسواء . بيكن يقدم لنا ، كشرح ايضاحي لفكرته ، الصورة الرمزية الآتية : « الخبري يشبه نملة تجمع كل ما تجد ، بلا فهم أو ذكاء ، وتعيد كل شيء الى بيتها في حالته الخام . القبلي ، العقلاني المحض ، يشبه عنكبوتا يستمد كل شيء من ذات مادته وينسج نسيجا فارغا. الفيلسوف الحق ليس نملة ولا عنكبوتا، انه يجني مثل نحلة رحيق الازهار ويصنع منه عسلا » . تلك صورة جميلة لها نقيصة انها قليلة الوضوح والتحديد وانها لا تعمق العلاقة بين ادراك وعقل . ان معضلة العلاقات بين الحس والعقل لا يمكن ان تحل بمرسوم زواج هيوم Hume وفي وقت لاحق الفلاسفة الالمان ، لا سيما كنط Kant ، سيطرحون على انفسهم بهذا الخصوص اسئلة مرعبة : ما هما اذا الجذعان ، عضوا الاستقبال اللذان بتصرفنا للاتصال مع العالم الخارجي واللذان يسميان حسا وعقلا ؟ لماذا الاول لا يصيب الا الخصوصي والآخر الكلي ؟ لماذا انا عاجز عن رؤية السبب والاثر ، ولماذا انا مضطر على فكرهما ؟ الجذعان — يسأل كنط — هل يكون لهما ربما جذر واحد ؟ هذه الاسئلة كلها لا تهم بيكن الا من بعيد جدا . لكن فلسفته كافية للسماح

بدخول اول في مادة الموضوع ، انها تقدم العناصر الضرورية لبناء بيت بدأ بناؤه بالكـاد .

نظرية الاصنام

والحال ، أن فلسفة بيكن تحتوي على عنصر اهم بما لا يقاس ، اكثر اثـارة للاهتمام واكثر دواما : فهي تخصص القول بأن اللجوء الى ثنائية الادراك والعقل المشروعة يفترض التخلي عن جميع الآراء المسبقة والاوهام والاضافات . نطـرق هكذا المذهب الشهير ، مذهب الاصنام او الاوهام ، الذي انضجه بيكن . الذهن (الروح esprit) ، يشرح لنا بيكن ، يشبه – ليس من البداية لكن على اثـر تطور طويل – مرآة كامدة وغير متساوية تقدم لنا عن الموضوعات صورة مشوهة. يجب اذا تنظيفها وصقلها كي تعكس العالم على نحو مطابق . بهذا الشرط فقط تبين لنا مرآة الذهن العالم كما هو . فنقطة انطلاق بيكن هي اذا مثل الصـورة والانعكاس (« صورة – انعكاس ») . اربعة اصنام ، يشرح بيكن ، تعارض كمال مطابقة الواقع . ليس المقصود احكاما (apories) شكلية – قطعية ، سبلا ليس لها مخرج كتلك التي تقدمها لنا الريبية والتي تنتهي الـى « تعليـق » (« épokhé ») ، الى تخل عن اي حكم ، الـى سكينة . (ataraxie) ولدت من الشك الذي لا يلتزم بل يهدأ في توازن الـ « مع » والـ « ضد » (٤) . هدف بيكن ليس التهدئة بل طرح الشك . اذ ينزع الحجاب عن طبيعة الصنم الحقيقية ، بيكن لا يدع نفسه لغزو اللا أدرية ، بل هو بالعكس يشعر بنوع مـن تهلل داخلي : المرآة تضاء ، كل شيء يبدو قريبا ، السماء صافية ومشعة ، كما بعد عاصفة ، الروح تدخل في ربيعها ! الاصنام الاربعة تدعى : idola specus اوهـــام الكهف ، و idola tribus ، اوهـــام النـــوع ، و idola fori اوهام السوق ، و idola theatri ، اوهام المسرح اي السلطة .

الزمرة الاولى تضم اذا الـ « idola specus » ، اوهام الكهف . المقصـود انعزال الفرد في مغارة شخصه ، خصوصياته ، استعداداته الفردية ، ميوله – المسبقة الفطرية او المكتسبة بمصادفات الحياة . التفضيلات الشخصية ، الغرابات الفردية ، القرارات المتعسفة ، الاحكام المتسرعة ، كل الذي يجعلنا نقول « لا جدال في الذوق » ، جميعها يدخل في هذا الصنف وهذه المقولة . يجب اذا ان يتخلص الانسان من « ذهن الضيعة » كي يرى الاشياء وبخاصة كي يحكم عليها في منظور أعم واقل عرضية . فلان يرى من التماثلات أكثر مما يجب ، يقول بيكـن ، وفـلان آخر يرى منها اقل مما يجب ، فلان يفضل ما هو عتيق ويرفض ما هو جديد ، والآخر لا يحب الا الجديد ويبدو ظالما للاشياء القديمة . تلك تمييزات عرضية لا تهم العلم اطلاقا .

الزمرة الثانية من الاوهام ، « idola tribus » (« اصنام القبيلة ») – يمكن القول بنفس الجودة : « idola generis humani » (« اصنـام الجنس البشري ») – تنبع من انتماء الانسان لنوعه : العاقبة ضيـــق وانتروبومورفية

ادراكاته الحسية (شبهها بالانسان) . الشمس تشرق للجميع في الشرق ، ذلك وهم مشترك للنوع كله ، بدون اعتبار للفرد . يجب اذا تحسين الحواس كي نفتح لها بلوغ « مشابهة الطبيعة » باختراع ادوات تكفل موضوعية الادراكات الحسية. بدلا من تحسس الحرارة باليد ، يجب استخدام ميزان حرارة ؛ هذا الاخير ليس له حرارة خاصة به ولا نخشى بالتالي ان ينقل ملاحظته بشكل انتروبومورفي . حواسنا تبين لنا ، دربا لبنيا » (درب التبانة) ، لكن بيكن يشعر انه يتألف من كمية كبيرة من النجوم . انطباعاتنا الحسية « تؤنسن » الموضوع ؛ باعتمادنا على ادراكاتنا وتسليمنا لها نعزو للموضوعات صفات ونوايا بشرية غريبة عنها ما دامت هي تعبر عن الطبيعة على نحو خاص بها . بيكن خصم عنيد لفكرة الغائية ، يكافح بالدرجة الاولى الاحكام الغائية . لدى النظر الى الطبيعة ، ينبغي دائما وفي كل مكان ترك الـ « analogia hominis »(« المشابهة بالانسان ») واعتماد الـ « analogia natura » (« المشابهة بالطبيعة ») . صحيح ان هذه المسلمة تعارض نظرات باراسلس وبوهم مثلا ، فكلاهما يتصوران العالم في منظور « المشابهة بالانسان » . الانسان ميكروكوسم (كون اصغر) او ، وهذا لـه نفس المآل ، العالم « ماكرانتروب » « انسان مكبر » ، « آدم قدمون » القبالة ، موسع حتى النجوم . والحال ، حسب بيكن ، لا يوجد سوى « شبه طبيعة » ، يجب بالتالي ان نرى الانسان في منظور الطبيعة وحده ، الطبيعة حتى غير العضوية الخبري الانكليزي ، نصير الطريقة الاستقرائية ، يخطو هنا خطوة أولى في اتجاه الميكانية (الآلية) . الحرب ضد المذهب الغائي تبدأ ببيكن ، الذي لا ينضب سخرية وتهكما على التأكيدات الغائية الانتروبومورفية الرائجة جدا في زمنه لكنها احتفلت بأجمل ظفرها في القرن الثامن عشر . الموقف الغائي كان قد انتهى الى التبرير التيليولوجي (الغائي) لاي شيء كان : متجاوزا الانتروبومورفية ، كان قد انتهى الى بخس التيليولوجيا (علم الغايات) بتخفيضها الى مستوى الثيولوجيا (علم اللاهوت) . الحيوانات المتوحشة ترتدي فراء كي تؤمن نفسها ضد البرد ، والاشجار لها اوراق كي تحمي الثمار من المطر والشمس : فالاوراق اذا ــ يمكن ان نقول ــ هي « نظارات الشمس » الممنوحة من قبل العناية الالهية الحكيمة كي لا تنتزع عيون الخوخ ! بيكن يتساءل لماذا لا يجعل الله الشمس تتلألأ في الليل ايضا فيمكننا من توفير اجر الحارس الليلي . بهذه المداعبة البسيطة الساذجة نوعا ما ، يصفي الفيلسوف الانكليزي حساب مذهب غائي يستخدم حججا اكثر بدائية ايضا او ينزلق صراحة في اللاهوت . يحل محل هذا المذهب فيزياء محض سببية تنفي كل غائية ؛ لكنه يسقط هو نفسه في الدوغمائية الميكانية ويرضخ الواحد من « اصنام الجنس البشري » بـ « انسنته » مبدأ تبادل السلع.

الزمرة الثالثة من الاصنام تضم مختلف الـ « idola fori » ، « اوهام الساحة العامة » ، « أوهام السوق » . الى احكام الفرد والنوع المسبقة تنضاف الاحكام ــ المسبقة « المكتسبة » ، الاباطيل المتولدة من التطور التاريخي . «اصنام السوق » هذه هي اباطيل الرأي العام ، « الشعارات » غير المتفكرة التي تركض

في كل مكان والتي تؤثر علينا . بيكن يضم الى هذا الفصل نقدا للغة ، للكلام ، نقدا يقع في نظر صاحبه ، في خط نظرية المعرفة . بالنسبة للاسمانيين (nominalistes) ، لم تكن الكلمات ذات اهمية ، فهي « flatus vocis » (« نفخ اصوات ») ، رموز بسيطة ، محض مفردات او مصطلحات (٣) . بيكن يعزو لها اهمية ما ، يحكم بأنها احيانا ضارة : يقوم بنقد تفصيلي للمصطلحات المجردة التي يعتبرها مشتل جمل جوفاء وكليشيات . من المؤكد ان بيكن يتجاوز ومن بعيد جدا الهدف الذي كان قد عينه لنفسه . ان لسانا عظيما وفصيحا لا ينتهي عند موقع ولادته ، عند « أدلجة » الموقف الطبقي في عصر بيكن ، انه يعرب في ما ـ وراء القشرة الايديولوجية عن فائض ممكن هذا الفائض الذي كثيرا ما يحتوي على الثمار المتأخرة لفكر جيد الصياغة ، وهي رسائل مستقبلية في اعماق الماضي ، هذا كله ينطبق ايضا على اقسام واسعة من لسان عظيم وعلى ما نقصد بهذا المصطلح الا ان لـ بيكن مأثرة انه حسس معاصريه ودعاهم الى التمييز بين الاثواب المستعملة لمجتمع وصل الى نهاية الشوط وفائض اللغة الذي هو مكتسب ذو ديمومة .

الزمرة الرابعة هي زمرة « اصنام المسرح » : تلك اوهام المسرح الادبي ، السلطة القائمة ، التقليد المتسلط . هنا ينكشف بيكن رجلا من عصر النهضة ، انه يرد السلطة القائمة ، يرفض تجديد السكولاستيك ، التي هي طريقة فكر مهترئة . بيكن يحسب في عداد « اوهام المسرح » ايضا الطقس الديني التقليدي. لنقل ان موقف بيكن ، وهو رجل دولة ، ليس بلا ازدواجية : فهو من جهة يصف اللاهوت بأنه « علم مكرس الله ، عقيم مثل راهبة » ، ومن جهة اخرى يؤكد « ان الذي يشرب كأس العلم حتى منتصفه ينكر الله ؛ لكن الذي يفرغه تماما يعاد نحو الله وقد يرى في قاع الكأس وجه الله ذاته ! » . هذه الجملة تعارضها جملة اخرى تحوي في حالة بذرة الايديولوجيا العقلانية (« ايديولوجيا التنوير ») ؛ انها تؤكد ان الدين والعلم ميدانان متمايزان وانه لا يمكن ان ينجم اي خير عن خلطهما . ولمع طرف من سخرية بضيف بيكن : « انه شرف المؤمن ان يقبل بطاعة ما يناقضه العقل » . حين يبدو ترتوليان Tertullien قائلا نفس الشيء « credo quia absurdum » (« انا اؤمن لان الامر محال ، غير معقول ، حماقة ») ، فهو يعرب عن فكرة جدية وعميقة ؛ حين يردد بيكن هذه الجملة ، فهو يدلل على سخرية مهذبة تهزيء فكر ترتوليان . لكن ما يهم هو فكرة فصل ميداني الدين والعلم ، فتداخلهما يفضي اما الى دين حرطوق او الى فلسفة ميثولوجية . هكذا يبلغ النقد البيكني لـ « اوثان المسرح » ذروته في نقد كل دوغمائية متسلطة ، الدوغمائية التي يعارضها بيكن بأولية العقل مبدد ظلمات .

يحق لنا ان نتساءل ما اذا كان مذهب بيكن يبشر نوعا ما بدراسة الايديولوجيات ؛ اصلا التشابه الصوتي بين « idéologie » (ايديولوجيا) و « idole » (صنم) يوحي لنا بهذا السؤال . هل نحن ، عند بيكن ، امام وعي اول لتشكل الايديولوجيات ، امام موقف حذر ازاء واقع ان الانسان لا يخدعه

الآخرون فقط بل هو يخدع نفسه بنفسه في الوعي الزائف ؟ سيكون الجواب : نعم و لا ! ـ لا ، لان بيكن لا يرى ولا يفهم ، رغم فكرته عن « أصنام المسرح » ، الاسس الاجتماعية لتشكل الايديولوجيات . « اصنامه » ليس لها اي وصل تاريخي ، انها تجتاز كل التاريخ البشري ، لا يحصل اي تحول في النوع ، في مغارة الفرد ، ولا حتى في « الساحة العامة » ، في المسرح ، في التقليد . غني عن القول ان بيكن لا يعي بعد وجود طبقة مهيمنة مشكلة لايديولوجيات و ، بما انها تجد مصلحتها في الوعي الزائف ، تنتج وتستخدم الاصنام بوصفها اوهاما .
ـ نعم ، لان بيكن عقلاني لا يلتزم ولا يقحم نفسه كما فعل ريبيو العصر القديم في احكام (apories) لا مخرج لها ؛ الريبيون يدمرون الحقيقة بتقليصها الى صفر في التوازن الازلي بين « مع » و « ضد » ، في حين ان بيكن يمهد الطريق لمعرفة حرة من الانتروبومورفية ، لمعرفة العالم الخارجي المستقل عنـا . بمكافحـة الانتروبورموفية المتطيرة ، اي عالم تسكنه ملائكة وارواح ، آلهة وشياطين ، يناضل المرء ايضا ضد الوعي الزائف. والحال، بيكن يقف على نحو عياني ضد ايديولوجيات المجتمع الاقطاعي ـ اللاهوتي التي تظهر عنده تحت اسم « اصنام » ؛ انه لا ينكب على نقد ايديولوجي غير زمني . كلمة « idéologie » (ايديولوجيا) حديثة العهد نسبيا : نجدها للمرة الاولى عند الفيلسوف الفرنسـي دستوت دو تراسـي Destutt de Tracy الذي اصدر في ١٨٠١ ـ ١٨١٥ وفي ١٨٢٦ مؤلفا عنوانه « عناصر ايديولوجيا » : هنا يظهر لاول مرة مصطلح « ايديولوجيا » الذي هـو ربمـا بـل وعلى الارجح الترجمة الفرنسية لمصطلح الماني نحتـه فيشتـه : « Wissenschaftslehre » « علم العرفة » . هكذا ما كان يمكن لـ بيكن ان يستخدم كلمة لم تكن ، في زمنه ، موجودة بعد . يبقى مع ذلـك ان الفيلسوف الانكليزي قد مسك بمذهبه عن الاصنام ، في حدود أفقه الاجتماعي وبفضل اتساع نظره ، المحتوى المفكر لما نفهمه بمصطلحي ايديولوجيا ووعي زائف . ان استبار الوعي الزائف له اذا ماض جدير بالاحترام ويمكن القول انه لم يعمق بعد ذلـك على يد الفلسفة البرجوازية بالدقة والواقع اللذين يميزان بيكن .

خبرية بيكن

ماذا كانت نوايا بيكن فاضحا ورافضا **الاصنام** ؟ لماذا يجلو بيكن مرآة المعرفة التي اكباها وشوهها الوعي الذي تمسك قياده المادة والاتفاق الاقطاعي ـ اللاهوتي على طريقته وليس بالاسلوب الداخلي تقريبا الذي ينادي به العقلانيون في العصر نفسه . من المفيد ان نلاحظ ـ ولو لاسباب بيداغوجية (تربوية) فقط ـ ان من البداية وفي نقطة الانطلاق ـ منظورا اليها من زاوية نظرية المعرفة ـ ان الفرعين الرئيسيين فيالفلسفة الحديثة يبرزان بوضوح: الخبرية (التجريبية) والعقلانية (٥). المذهبان يتميزان باستقلال ذهني قوي . ترمى قصص الجن ، يضع الانسان ثقته في ذكائه ، يريد المشاركة في القرارات ، يريد معرفة العلل ، يريد النظر الى العالم نظرة حرة من الاحكام المسبقة ، كفأة ، نافذة . تلك هي نقطة انطلاق اتجاهي

البرجوازية الثورية . بعض الاذهان الجسورة واللامعة اطلقوا شعار : « Sapere aude » ، تجرأ واستخدم ذكاءك ! كنط في وقت لاحق صاغ هذه الفكرة على النحو التالي : « العقلانية (« Aufklaerung » ، حركة التنوير) هي تحرر الانسان من الوصاية التي يحمل هو نفسه مسؤوليتها » . لكن كيف العمل من اجل التحرر بعزم من هذه الوصاية ؟ يجب اكتشاف وسيلة الاستفادة من ذكائنا . والحال ، لقد اقترحوا سبيلين . الاول هو طريق بيكن : فحواها الحصول على صورة مطهرة ، خالية من الاضافات ، لما يجري في العالم الخارجي المستقل عن الذات . العقلانية تسلك مسلكا آخر : ديكارت يضع في البداية الشك ، سبينوزا كتب مؤلفا عن تحسين العقل . كلاهما يشترطان ان يغرق العقل في هوة نفسه بغية انضاج تمثيلات واضحة ومحددة ، تنال من ذاتها نورها ؛ يشترطان ان يرحل العقل الى عين المكان الذي تولد فيه هذه التمثيلات ، ان يتأمل انطلاقا من هناك العالم الخارجي ، بعد ان تخلص من كل وهم ومن كل حكم — مسبق ، الوهم والحكم المسبق اللذين ينفذان اليه مع عناصر غريبة . العقل يطرح الافكار الغامضة المشوشة ويكتشف بالطريقة الرياضية ، الافكار المطابقة التي ينتجها بنفسه ، العقل الخالص . والحال ، ان الافكار المطابقة ليست ، كما قد يعتقد الناس ، افكارا مطابقة للواقع بل هي افكار ، منزوعة التشوش ومطهرة بذاتها ، تتوافق ان صح القول مع فكره . ثمة فكرات رياضية ، اخلاقية ، ميتافيزيقية ، تمثل جميعا حقائق ازلية : « اثنان في اثنين يساوي اربعة » ، اقصر خط يصل نقطتين هو المستقيم » ، تلك حقائق ازلية يستطيع عقلي ان يبصرها . الخبرية لا تخص سوى الناس المتحلين بعقل اقل متانة ؛ بامكانها ، عند الاقتضاء ، ان تخدم في شرح او ايضاح الحقائق الازلية ، لحاجات التربية والتعليم . في الواقع ، لا يوجد مستقيم يعادل في الاستقامة المستقيم الذي اتصور ، لا توجد اخلاق او حقوق طبيعية .

على هذه العقلانية يطبق بيكن مثل العنكبوت الذي يستمد كل شيء من ذات مادته . هذه الملاحظة صحيحة ، لكن ما القول عن الكلاب المتائين بالخبرية ، الذين يتبعون على الدوام معلمهم الوجود خبريا ، الذين يلحسون جزمات كل الخبريات ؟ العقلانية تشتمل على عنصر ايجابي يتظاهر بشكل خاص في الحقوق الطبيعية : الف سنة من الظلم ليس بمقدورها ان تقيم حقا . هكذا يبدأ نقد للموجود سوف تمارسه البرجوازية الصاعدة في اوجها . انه لا ينحني امام الوقائع ، ولو كانت مكرسة بتقليد اجيال وقرون . « تبا للوقائع ! » اذا كانت هذه الوقائع تصادق على مظالم اجتماعية ، على الاستبداد ، البلاطات الاميرية الصغيرة ، الطغيان ، القمع : البرجوازية تثور ضد كل هذه الوقائع ، التي تنتسب الى استبدادية القرن السابع عشر والثامن عشر . الامر مختلف تماما فيما يتصل بالوقائع المنتسبة للطبيعة : حين تكون القضية هي الظاهرات الطبيعية ، فان جملة « تبا للوقائع » (وا أسفاه عليها ! الوقائع هي الخسرانة !) تنتسب لصدرة المجانين . لكن حين تكون القضية هي اختبار الطبيعة او معرفة نمطيات التطور

التاريخي ، فان « العقلي » يكون مقولة غير صالحة للتطبيق ، بل ولا « عقلية » ، ما دامت خبرة آلاف السنين تعلمنا انها طبعت اجسادنا وعاداتنا كما وعقلنا سواء بسواء . ازاء الوقائع القائمة ، ولدت « لا ـ خبرية » ثورية ، « لا ـ خبرية» لا تستسلم للمكتسب ، للقائم ، بل تجهد لمكافحته ، لتحويله . هنا العقلانية ، علما بأنها مثالية بغير دواء ، تبنت احيانا لغة ثورية .

ان خبرية بيكن ، التي سيأخذها من جديد لوك Locke والماديون الفرنسيون ـ بمقدار ما هم لن ينضموا الى مذهب الحواس sensualisme الذي هو شكل دوني للخبرية اذ لم يعد ينادي العقل او تقريبا ـ ، تقدم وجها مختلفا فعلا . بفضل خبرية بيكن تجلى المرآة بتجربة الطبيعة : ما ينير الذكاء ليس الاجترار البديهياتي بل التجربة . لذا يجب معرفة الاصنام الاربعة ، فهي تشوهات للتجربة ويمكن ان تصحح بالتجربة . نجد اذا عند بيكن نظرية مادية للمعرفة مفقودة حكما عند العقلانيين . هذه النظرية المادية للمعرفة تحركها نية اصلاح ترفض كل صلح مع العالم . ان خبرية بيكن لا تقنع ببقاء ما هو كائن ، بل لها كهدف تسيير العالم الى المعرفة ، الى المنفعة ، الى المنفعة في خدمة الطبقة البرجوازية ، اقامة القوة على المعرفة بغية الفعل في مسيرة العالم ، تحويل العالم . لذا فـ بيكن هو ايضا اول مفكر ، او تقريبا ، يحتفل بالتقنية البشرية ويضعها في خدمة يوتوبيا ، ذلك اعلى هدف يعينه لـ « فنه الاختراعي » (« ars inveniendi ») الجديد ؛ هذا الفن ينحفر ، عند بيكن ، في ملاحقة مشروع نافع ويجب ان يمارس على قاعدة معرفة استقرائية وامبيريقية مرضية .

بيكن يسعى الى غرس طريقته الجديدة في الوجدان مرة واحدة ونهائية ؛ لكن لطريقته نقيصة خطيرة: بالفعل ان تحريره للعلوم الطبيعية التجريبية حاصل بدون أي لجوء الى الرياضيات ! ذلك عيب الطريقة محض الخبرية مـا دامت الرياضة ، الذهنية الجوهر جوهريا ، تتقدم على مسافات طويلة متبعة مسيرة منطق صوري . في بنية فكر بيكن ليس الرياضة مكان جيد التحديد ، انها لا تبدو قادرة ، في أعين هذا المعاصر لـ غاليله وكيبلر وتقريبا لـ نيوتن ، على اضاءة معضلات الطبيعـة ، ولا نذكر واقع أنها على الارجح ترجيحا كبيرا لم تكن جد مألوفة له (٦) . في محل ذلك وبدلا عنه ، بيكن ينضج نظرية الاستقراء ـ وهي نظرية جد انكليزية ، لنقـل ذلك مرورا ـ بأسلوب شخصي ومثير للفضول . الاسمانية nominalisme ، المذهب الذي يحتقر وينكر قيمة الكلي المستقلة ذاتيا والمشعة ، هي في بيتها جيدا في أنكلتره ؛ الاستقراء أسلوب برجوازي جيد في الرجوع والاستناد الى الواقعة المعزولة والعالم الحاضر . بيكن يورد بضع قواعد لقيادة هذا « التحسين » للعقل الى نهاية جيدة : يجب التخلي عن جميع المفاهيم ـ المسبقة pré - concepts الكلية التي يخشى ان يكون لها مكانها في مقولة الاصنام ؛ يجب على العكس من ذلك أن نضع كل انتباهنا على الوقائع المعزولة ، الامثلة المفردة ، التفاصيل الاكثر تواضعا . مـن المهم ان نجمع الوقائع حسب مخطط من أجل اكتشاف القانون الذي بموجبه تتسلسل على هذا النحو أو ذاك . هذا القانون لا يمكن ان يكون ، حسب بيكن ، سوى قانون

محض سببي . لا توجد بالنسبة له مقولات أخرى قادرة على تفسير الظاهرات الطبيعية : التفسير الوحيد هو علاقة سبب الى أثر ، سبب الى نتيجة ؛ الوسيلة والغاية هما من المقولات غير العلمية ، من الاصنام .

في « فنه الاختراعي » ، يقترح بيكن علوماً جديدة . هذا المخطط العظيم ـ الذي لا يقتصر بتاتا على الصعيد التقني ـ ، هذا الباحث المستقبلي العلمي ، هذا المنقب الى أمام ، يلاحظ باديء بدء وهو أمر مثير للاهتمام ، غياب « علم تجارة » (« علم مقاولات ») ، علم موضوعه الاعمال التجارية ، أو كما نقول اليوم ، «اقتصاد سياسي » . ذلك علم ، يؤكد بيكن ، يجب اختراعه بفضل الطريقة الجديدة (٧) . ويطلب الفيلسوف الانكليزي عدا ذلك علما للفراسة ، للتعبير ولتأويل الاشارات والحركات ، تقنية يجب أن تمتد أيضا الى تأويل الاعمال الفنية ؛ يطلب نظرية الهيجانات والعواطف ، علما للفن (٨) ؛ بعض فروع المعرفة من التي لم تزل في زمنه خارج البصر يقدمها بيكن بوصفها مرغوبة وضرورية . يجب أن تخلق انطلاقا من الطريقة الاستقرائية الجديدة التي لا تعترف بأي شيء خارج السبب والاثر ، التي تجعلهما المبدأ الوحيد الصالح للتجربة العلمية . صحيح أن بيكن ، في حديث الاسباب ، يدخل عنصرا على ما يكفي من الغرابة : أصلا ان علم الفراسة الذي قال به كمسلمة يتدبر أموره على نحو سيء مع السببية وحدها التي سيؤيدها فيما بعد هوبز Hobbes والعلم الميكانوي mécaniste للبرجوازية الصاعدة . نلاحظ لدهشتنا الشديدة أن بيكن يدخل ، حين يتكلم عن « الأسباب » ، أيضا « الاسباب الشكلية » (« causae formales ») . المصطلح مستعار عن أرسطو ؛ وهو لا يعين أي شيء خارجي ، أي شيء يرتبط من قريب أو بعيد بالشكل أو بالشكلية . الشكل هو كمالية (entéléchie) ، « غشتالت » (« Gestalt » ، صيغة) شيء من الأشياء ؛ عند بيكن ، انه يعين « طبيعات » الاشياء . بيكن يقصد ب « الاسباب الشكلية » أسبابا مؤلفة من عناصر سببية من نوع أدنى ، يمكن القول « غير كيفية »، من جزئات مادة ، لكنها تؤلف كيانا ذاتيا نهائيا ، خاضعة للتفاعل .

بين الأشكال ، البنينات النوعية من عناصر التي ليست بنينات محض تراكمية وعرضية لكنها هي نفسها أسباب وتمارس مفاعيل ، يذكر بيكن الحرارة ، الابيض ، الاحمر ، الاخضر ـ اذن ظاهرة اللون ـ ، الهرم والموت : تلك بالنسبة له « أسباب شكلية » ، « causae formales ». هكذا فان بيكن يسلم من جهة بمبدأ التحليل العلمي للموضوعات من أجل معرفة علل وأنماط تأليفها ـ صحيح انه أحيانا يضيع الخيط الذهني للعملية ـ ، ومن جهة أخرى يقدم بعض البنينات التركيبية بوصفها قوى مستقلة بذاتها . لسنا هنا أمام « قشرات بيض » العصور الوسطى بقدر ما نحن أمام ذكريات كيف من الفلسفة الطبيعانية ، اصداء ضعيفة من باراسلس وبوهم . بوهم أيضا يتأمل عن الحرارة ، الرعبة حين تبرز كنار ، كجمر مخيف ، كشعلة حب . اللون في نظره روح منتفخ . الهرم والموت لا ذكر لهما . لكن بيكن يعرف كيفات أخرى تدخل في خط الواقعية الساذجة . ما يحرك هنا الفيلسوف الانكليزي هو اللذة التي يشعر بها رجال عصر النهضة في استدعاء كيفات (صفات) ؛ تلك حركة

من الفكرة تذهب في الاتجاه المعاكس للفكر الاستقرائي الميكانوي وتشكل عند بيكن موقف عدم انسجام أصله لا ريب ليس لاهوتيا . بالواقع ، نكتشف هنا لاول مرة محاولة لتوفيق ديموقريط وارسطو . ان فكر ديموقريط يفك المادة الى ذرات يعتبرها العناصر الاكثر بساطة ؛ بعضها يرتبط ببعضها الآخر بواسطة رابطة ال « أنانكه »« ananké » الميكانيكية التي يمكن تشبيهها ب « قانون السببية » ؛ ديموقريط يجهل التيليولوجيا ، يجهل المثالية الموضوعية . هذا التصور يعارضه أرسطو ، كبير مفكري التطور ، تدرج قابليات الكمال ، ال « غشتالتات » الكيفية ، « الأشكال » ، حيث ينشاد شكل على آخر ذهابا من عناصر ، لكن ما ان تتكون حتى لا تعود قابلة للخفض بل تملك وجودا مستقلا . « أشكال » كهذه الهيليني ، الأسدي ، ما يجعل أن نخلة هي نخلة ، والوضوح هو الوضوح ، والمتبذل مبتذل . تلك ليست فكرا ستاتيكية ، مثلا سكونية ، كمثل أفلاطون ، بل أسباب غائية هي قيد التوقعن ، « أشكال مبنينة ، بما أنها حية ، فهي تنمو وتنبسط » ، ونستخدم صيغة ل غوته . أنه عنصر الكيف ، الصفة ، ومن حيثيات عديدة لم تكن هناك في يوم من الايام مصالحة بين ديموقريط وأرسطو . على العكس تماما ، ثمة تناف يفصل المفكرين العظيمين ، ديموقريط ممثل المادية الميكانيكية ـ غير الميكانيكية تماما مع ذلك ـ وبالتأكيد غير « الميكانوية » ، وارسطو المنظر الكبير للتطور الكيفي ، للكيفات الواقعية ، غير الثانوية : تناف لم يمكن حسمه الى هذا اليوم موضوعيا (٩) . عند بيكن ، لا مجال بعد لتمييز بين كيفات أولية وكيفات ثانوية ، بين صفات أولى وصفات ثانية ، التمييز الذي هو جزء من صورة العالم الميكانوية والذي يجعل من اللون ، من الاصوات ، من الهرم وحتى من الموت ، المنظور اليها كصفات خاصة ، انعكاسات ذاتية مثالية بلا توافقات في مستوى الواقع (١٠) . هذه الصفات لا تحتاج الى تفسيرات ، على العكس هي بمثابة تفسيرات لانها « أسباب شكلية » « causae formales » ، أسباب قطعية) . ان الشاغل الرئيسي لبيكن هو في النهاية الاكتشاف وبالاخص اكتشاف الحقيقة . ان اكتشاف الحقيقة يمثل تحت هيئتين مختلفتين : أولا ، العالم الخارجي هو الذي يقدم مقياس كل شيء ؛ الصورة يجب أن تصحح تبعا العالم الخارجي ؛ لا يمكن ان تصحح في المرآة ، لكن المرآة تصحح نفسها بمقارنتها ما يحدث فيها مع ما يحدث في العالم . في المقام الثاني ، يجب ان يكون لدينا معرفة واضحة دقيقة لقوانين السببية كي نفعل على العالم ؛ تلك هي الغاية الاخيرة المنفعية البيكنية . نلمس باصبعنا ما يجعل بيكن قريبا لطوباويي زمنه ، ل توماس مور و ـ تقنيا ـ أيضا ل كامبانلا . بالتقنية يستطيع الانسان ، حسب بيكن ، تخفيف عبئه ، وعلى التقنية تتأسس سعادة الجميع على الأرض .

اليوتوبيا التقنية : اطلنطيس الجديدة

بيكن يقدم لنا هذه السعادة في يوتوبيا من اختراعه ، يوتوبيا من نوع جديد لم يكن معروفا في زمنه . نعرف عددا من اليوتوبيات الاجتماعية . نادرا ، عند كامبانلا

في « الدولة ــ الشمس » أو عند روجه راكو Roger Raco الذي رسم غواصة ، تحتل أحلام تقنية مقدمة المسرح ، بيكن هو الوحيد الذي كرس دراسة خاصة لهذا الموضوع : البحث الصغير المعنون « Nova Atlantis » (أطلنطيس الجديدة ، « la nouvelle Atlantide ») ظل زمنا طويلا الكتاب الوحيد في «العلم ــ الخيال» « science - fiction » ، اليوتوبيا التقنية الاولى والتي طالما أصابها الاهمال . أطلنطيس (الاطلنطيد) : هكذا كانت تدعى قارة غرقت في قديم الزمان تحت المياه وأعطت اسمها على ما يبدو للمحيط الاطلنطي . وتكون الجزيرة بلغت مستوى حضاريا عاليا واختفت ، حسب « كريتياس » أفلاطون ، قبل تسعة آلاف سنة . بيكن ينصب مخططات « أطلنطيس جديدة » لكي لا يكون لنا حاجة بعد ذلك الى مناداة هذا البلد الخرافي حيث كان كل شيء أفضل ، لا سيما على الصعيد التقني، بأحلامنا . « أطلنطيس الجديدة » جزيرة سعيدة . انها مزودة بتنظيم للبحث ، للاكتشاف ، للاختراع ، باختصار لـ « الفن الاختراعي » . أن عددا كبيرا من الاختراعات يقدم لنا في عملية استباق خيالية رائعة . أن أشياء مشابهة تصادف في كتاب « ألف ليلة وليلة » حيث نجد وصفا مفصلا لـ « الحصان السحري » ، ذكر فيه انه يحمل على جنبه رافعة يرتفع بفضلها في الجو : فهو اذا هيليكوبتر خيالي . بين التقنيات الجديدة يمثل التلسكوب ، التغيير الاصطناعي للطقس الذي يحصل عليه بواسطة منظومة حبال تسمح بتقريب او أبعاد الغيوم . الحكايات الالمانية تتحدث عن حمير مليئة بالذهب ، عن طاولات تنتصب لوحدها ، وعن أجهزة أخرى من هذا النوع . لكن هذا كله شيء قليل جدا بالمقارنة مع اختراعات بيكن : لهذا السبب يصف دالمبر d'Alembert ، الرياضي الكبير وموسوعي القرن الثامن عشر ، يصف « أطلنطيس الجديدة » بانه « كاتالوج هائل لما يبقى علينا اكتشافه » . الجزيرة تضم « هيكلا سليمانيا » ، « بيت سليمان » ، يمكن أن نسميه بمصطلح أكثر دنيوية « جامعة تقنية » . في هذه المؤسسة التقنية الكبيرة ، الاسطورية وخصوصا اليوتوبية ، صنعت وما زالت تصنع أشياء مدهشة . فهي تضم معهدا لعلم توليد النباتات ، مركزا لتربية الحيوان العلمية ، يمارس فيها التشريح الحي ، تختبر على حيوانات طرائق طبية جديدة ، فرع للبيوكيمياء يفحص نوعية الاطعمة ، نوعية اللحوم ــ لكن لا ذكر لخلايا ؛ أطالة الاعمال موضع تنقيبات علمية ؛ اعدت متفجرات قوية تسهل أعمال الحفر وتستطيع ، يقول بيكن ، نقل جبال . نجد فيها محركا انفجاريا ، وصفا للآلة البخارية على ما يكفي من التفصيل ؛ توربينات ضخمة حلت محل الطاقة الحيوانية ، قوة البشر العضلية ناقلة . توجد أيضا أدوات موسيقية تنتج أرباع ــ الاصوات (الموسيقار الويس هابا Alois Haba ، وهو مؤلف موسيقا عيانية ، يقترح كآخر بدعة أرباع وأثمان الصوت محل سلمنا الكروماتي) . نجد في يوتوبيا بيكن الميكروسكوب والتلسكوب والميكروفون . يشرح لنا أن بتصرف الاطلنطيين أجهزة غريبة تسمح بنقل الصوت الى بعيد . بيكن يتخيل تلفونا (هاتفا)، هو شبكة أنابيب تحت الارض خاضعة لضغط هوائي يسهل انتشار الاصوات . لا ذكر للكهرباء ، لا مجال لذلك ، لكن مسألة نشر الاصوات على مسافة مئات

الكيلومترات مطروحة بشكل واضح ومذكورة لانتباه المخترعين . هنـاك طائـرات ، وللاسف أيضا أجهزة « حركات دائمة » من أنواع مختلفة ، الامر الذي يفتـح الباب للتطير والباطل . تلكم هي باختصار يوتوبيا بيكن التقنية العظيمة ، التي فيها يعرض المؤلف عيانيا ثمار « فنه الاختراعي » المطبق بانسجام ومنهجية . تلك هي في نظـر بيكن أسس « مملكة البشر » ، « عهد الانسان » : اليوتوبيا التقنية كانت ستتبـع بيوتوبيا اجتماعية ، بقيت لسوء الحظ في حالة مشروع .

بيكن تذكر شخصا من العصر القديم : انه يؤوّل صورة بروميثيوس على نحـو آخر غير تأويل الاغريق . بالنسبة لهؤلاء ، بروميثيوس — وافلاطون يذكره بشكـل صريح — هو جوهريا لص — أستاذ سرق النار من السماء . يتبدى لنا على نحو آخر في ثلاثية اسخيلس التي وصل الينا قسم منهـا فقـط . فـي نظـر اسخيلس ، بروميثيوس هو المارد Titan الذي أمر زيوس Zeus بتقييده على جبـل القوقاس حيث يلتهم عقاب كبده . هذه أسطورة **بروميثيوس مقيدا** : العقاب أو النسر همـا منذ العصر القديم رمزا الاستبدادية ، بتعبير آخر رمزا زيوس ، سيد الآلهة . فـي نهاية الأزمنة ، بروميثيوس يحرر ؛ هذا هو **بروميثيوس طليقا** . بمـا أن المجتمـع اليوناني الرقي كان يجهل الوعي الثوري ، فبروميثيوس بطـل تراجيدي عظيـم ، لكنه لا يسكن خيال الاغريق ، لا يعتبرونه ثائرا . هكـذا تعلـل الواقعة المدهشـة والمفهومة بآن معا ، واقعة أن بروميثيوس لم يحتف به خلال قرون — حتى بدون أن نتكلم عن العصر الوسيط — بوصفه أنبل جميع قديسي الرزنامة الفلسفية ، وهـو اللقب الذي منحه اياه كارل ماركس في أطروحته لشهادة ةالدوكتوراه . قديسا يظهر لاول مرة عند عـالم الفيلولوجيـا والاسماني الايطـالي جـول سيزار سكاليجـر Jules César Scaliger . فهو يقارنه بالشاعر الذي يتميز عن الممثل ، عـن المهرج، في كونه لا يقلد أشخاصا معروفين بل يبدع آخرين . انه « alter deus » ، « الـه آخر » ؛ وهذا « الاله الآخر » لا يمكن أن يكون هو سوى بروميثيوس خالقا الانسان، على طريقة الشاعر . ما من نفحة ثورية تجتاز هذه الصورة ؛ فبيكن هو الاول الذي تكلم عن بروميثيوس كما عن متمرد تقني جسور بمـا يكفي ليتداخـل فـي شؤون السيد ؛ بل ، ليعيد عمل السيد بكفاءة وعبقرية أكبر ، وهو نشـاط يملأ غروره . البشر الذين شكلهم بروميثيوس متفوقون على مخلوقات زيوس . بيكن اذا يستخدم، من أجل موقعة التقنية ، صورة أو مثال بروميثيوس : « بروميثيوس ، على حد قول بيكن ، هو روح البشر المخترع الذي يؤسس المملكة الانسانية ، الذي يضاعف الـى ما لا نهاية القدرة البشرية وينصبها ضد الآلهة ! » . لن يضع أحد موضع شك قـوة هذه الجملة ووعيها الثوري . بيكن كان يفهم نفسه بوصفه الممهـد ، الذي مـا زال متلمسا ، لمشروعات بالغة الجرأة .

غير أننا نميز أيضا حدود هذا الرجل العجيب : ما ينقصه هـو الدقة ، هـو العمق ، وان كان أحيانا يتجه اليهما . انه مخطط ذو مشية عظيمة ، كما أنتج عصر الباروك baroque كثيرين منهم : القول عن فلان من الناس أنه « صانع مشاريع » لم يكن شتيمة ؛ فيما بعد فقط صار الحديث عن « صانعي المشاريع » حديثا تحقيريا .

في زمن بيكن ، كان « صانع المشاريع » رجلا مبتكرا ، مهتما بتكييف العالم لحاجاتنا بواسطة اختراعات . « أطلنطيس الجديدة » لـ بيكن وضعت معالم على الطريـق ؛ واذا لم يكن بيكن نفسه فاتحا ، الا انه كان منقبا ورائدا مستطلعا كان يسجل بشكل جيد الأماكن التي سيكون ممكنا ذات يوم احتلالها .

ذلك كان بيكن، شخصا عجيبا كان يتميز، بايقاعه وحرارته، عن مفكري النهضة الالمان الذين كان يشاطرهم مع ذلك « مبالغة » (« plus ultra » ، ابعد ! ، تجاوز!) عصر النهضة ، حس « الكيفي » (qualitatif) في الطبيعة ، ذوق الحقيقـة التي يسعى اليها لا من أجل ذاتها ، لغايات محض تأملية ؛ بالنسبة لبيكن ، مفتاح المعرفة هو أداة تحسين العالم ، أداة « مملكة البشر » ، اداة « أقصى النفع » ، « أنفع شيء في العالم » . الطبيب باراسلس يضع أيضا المعرفة في خدمة الشفاء ؛ عند ياكوب بوهم « المملكة البشرية » فردوس صـار دنيويا ؛ وطوباويون آخرون يجعلون مـن الارض مكان اقامة أفضل ، يعطونها على الاقل بعض الشبه مـع السماء المنشودة ، لدرجة يمكن معها الاستغناء عن السماء . ان يوتوبيات بيكن تلاحـق هدفا مشابها ، خبريته غير المحلقة ، تجربيته الـ أرض ـ أرض ، ترى الاشياء كما هي ، لكن مع نيـة عازمة على تغييرهـا .

٨ ملاحظات على مواد العلم الطبيعي الرياضي
غاليله ، كيبلر ، نيوتن

« Renaissance » (ميلاد جديد) تعني احياء العصر القديم . كانوا لا يكتفون بجمع تماثيل . الآلهة القديمة في الفاتيكان ، وباعادة العمود القديم والخط الافقي القديم الذي لم يكن قد اختفى تماما في ايطاليا في يوم من الايام ، بل شرعوا في اكتشاف مفكرين آخرين من العصر القديم غير أرسطو . هكذا تواصل ، بمقاييس لم تعرف في العصر الوسيط ، اسهام علم الأقدمين . في القرن الخامس عشر ، أعيد في فلورنسا ، بفضل العلماء البيزنطيين اللاجئين في هذه المدينة ، اكتشاف أفلاطون بل وأفلوطين ؛ عادوا الى ابيقور ، وهو أمر مثير للاهتمام بشكل خاص اذ أن ابيقور كان منسيا بالتمام أو منفيا على رف فزاعات الاولاد . أنعش الرواق portique وكانت لديهم عنه فكرة عظيمة .ابيقور أعيد اكتشافه على يد غاسندي Gassendi والرواق على يد الفلامانذي ليبس Lipse بين آخرين ؛ سبينوزا من غير الممكن أن نتصور بدون الرواق (١) . نبش لوكريس Lucréce من قبره ؛ في ما ـ وراء المثالية والروحانية القديمة التفتوا أيضا الى خبرية ومادية الاقدمين . أعادوا اكتشاف فيثاغور Phythagore ـ الذي يرتبط مباشرة بموضوعنا .

الرغبة المتولدة من مصالح تجارية في الحيازة ، ازاء أعراض اقتصاد سوق ، على عدد من الاحصاءات ، وفي عدم الاكتفاء بميزان بسيط يراصف عمليات دخول وخروج المال ، كانت قد تظاهرت أيضا في زمن الرأسمالية التجارية القديمة ، لكنها توضحت بشكل حاسم في بداية العهد المانيفاكتوري . من هنا الاهتمام الذي خصوا به الحساب ، التناول الحسابي الأريطميطيقي للواقع . هذه الرغبة وقد صارت منعكسا اقتصاديا كانت تدوم في الحساب وفي الاحترام الذي كانوا يخصون به نظرية الاعداد ، النظرية التي كان العصر الوسيط قد اعتبرها بمثابة سحر تقريبا ؛ على الرغم من ادخال الارقام على يد العرب والصفر على يد الهنود ، لم يكن ثمة علم رياضة وسطوي . وفي العصر الذي عرفت فيه فرنسا ، الآخذة في التطور نحو الرأسمالية والوحدة القومية ، ازدهارا خارقا للعلم الرياضي ، لم يكن يوجد في اسبانيا ، التي كانت قد قطعت نفسها عن التقدم الرأسمالي ، سوى كتب حساب بسيطة مكرسة للسمانة الذين كانوا يسجلون ديونهم . الامر الذي يبين الى أي حد

الرياضة تابعة للاقتصاد البرجوازي . هكذا فقد اكتشف غاليله فيثاغورا معلمنا من أجل حاجات العلم (٢) . حصل عندئذ زواج تخفى علينا جرأته ، زواج بين الطبيعة والرياضيات ، حيث أن الظاهرات الطبيعية تنكتب في النظام الرياضي . بالنسبة للفكر الوسطوي ، كانت الطبيعة محط خض وفوضى وبلبلة وخواء ؛ المذنبات هي التي كانت تمثل الطبيعة . كانت الطبيعة ساقطة ، مسلمة للشياطين والأبالسة ، للتشوه، للصدفة، للفوضى ؛ ما كان يمكن لاي «قانون طبيعة» (lex naturae) أن يكون سوى الاستثناء . والحال ، ان « النظام » (ordo) و « قانون » ، (lex) كانا هما بالذات ، حسب العقيدة التومائية (مذهب توما الأكويني) ، شأنهما شأن الطبيعة الانسانية ، ان ليس ساقطين تماما وفاسقين ، فبالاقل مضعفين بالسقوط ومعاكسين بعمل الشياطين . في المنظور السكولا ستيكي ، التاريخ وحده ميدان سليم ومنظم، التاريخ الذي يبدأ بخلق العالم وينتهي ، مرورا بالطوفان وميلاد المسيح ، الى الدينونة الأخيرة ؛ هذا التصور صاغه بشكل صريح أوغسطين . عصر النهضة يرسم لنا لوحة عن التاريخ مختلفة جدا : التاريخ هو الذي يشوه ويحرف ، التاريخ هو الذي لم يجد « نظام » ، أمام الطبيعة الصافية في وضوحها الرياضي . الطبيعة تؤلف كتابا ، هو كتاب الطبيعة ، حسب التعبير الهرطوقي للطبيب ريموندو سابونده Raimundo Sabunde ، وهذا الكتاب يقع فوق كتاب الكتب ، فوق الكتاب المقدس والسوتيرولوجيا (علم الخلاص) التاريخية التي استخلصها أوغسطين منه. الحروف التي خدمت في تحرير « كتاب الطبيعة » حيث تنكتب المذنبات والبراكين والزلازل والعواصف والمحاصيل السيئة وكل الظاهرات الاخرى غير المتوقعة ، هي الاعداد ؛ الرابطة أقيمت هكذا بين عالم الاعداد وموضوعات الطبيعة : لم يكن الامر سهلا فهمه.

غاليليو غاليلي Galileo Galiléi (المعروف بـ غاليله Galilée) (١٥٦٤ — ١٦٤٢) كان أستاذ رياضيات ذا شهرة أوروبية . كي يسير بأبحاثه الى نهاية جيدة، توجب عليه أن يخوض قتالات عديدة على الصعيد المالي ضد طبقة أسياد (signoria) غبية ومتبرجزة . في أواخر حياته رأى نفسه مهددا بالموت حرقا على كونه أيد المنظومة الكوبرنيكية . يكون حسب الرواية قد دمدم ، بعد رضوخه لعقيدة الكنيسة ، عبارته الشهيرة « ومع ذلك فهي تدور » (هي : الارض) . هل كان له الحق في أن يتراجع كي ينهي مؤلفاته الكبيرة ، « خطابات » ؟ ذلك سؤال دقيق جعله برشت Brecht موضوع مسرحيته « حياة غاليليو غاليلي » . لكن لنر كتابات غاليله : أهمها يحمل عنواني « خطابات وبرهنات عن علمين جديدين » ، ١٦٣٨ ، و « محاورات عن العلوم الجديدة » ، ١٦٣٢ . الـ « خطابات » ، وهي مؤلفه الاكثر ماهوية ، الذي يسعى جوهريا الى عرض نظريته الرياضية عن الحركة، كتبت بعد تراجعه . لنلحظ انه لا يوجد ، بين رجال العلم ، الخبريين أو الماديين ، الذين استعرضناهم لتونا ، حواسيون sensualistes ضيقوا العقل . كل الرجال الذين درسناهم يمارسون ، فضلا عن الملاحظة والادراك ، فن الفكر : لا يمكن

الاستغناء عن وظيفة الفكر الهامة . فكل هؤلاء العلماء يعلمون تماما أن النظر وحده لا ينير ، وأنه لو كان الامر كذلك لامكننا الاستغناء عن التفكير . الاستقراء ، يؤكد غاليله ، لا يكفي ، انه ضروري ، ولكنه لا يستطيع استنفاد مجموع الحالات ، انه لا يقود الا الى احتمال كبير بدرجة ما . يجب اذا الاستنجاد بالذكاء الذي يجب ان ينتشر في اتجاهين مختلفين : يجب أن يستهدف الطريقة والهدف المنشود : اذ يعمل بمنهجية ، يحصل العقل بالتجربة على معلومات صحيحة جوهريا عن الطبيعة ؛ ان هدف كل تحر علمي هو ، حسب غاليله أيضا ، اكتشاف قوانين تسمح بتعريف الظاهرات في حدود رياضياتية . **التجربة** ان هي الا سؤال يطرح على الطبيعة ، سؤال صيغ بطريقة مفكرة ومحسوب جيدا .

في الصعيد العلمي ، التجربة تقوم باديء بدء على عزل مختلف عناصر عقدة ما بحيلة من الحيل ، على قطع مجرى الحوادث عمدا . نخلق شروطا مصطنعة لكنها تنكتب في خط الأسباب التي نفترض انها في أساس الظاهرات المفحوصة . هذه الشروط تنوع كيفما يراد بغية السماح للملاحظ بأن يميز بين شروط هامة وشروط أقل أهمية ، جوهرية وثانوية . اذا ما توصلنا الى ذلك بتجربتنا وفهمنا ما سبق وعلمتنا اياه الملاحظة البسيطة ، تكون التجربة بلغت هدفها العلمي . لم يكن واردا في زمن غاليله الحصول على شيء ــ ما جديد ، جمع عقدة من شروط ـ تنتج مفاعيل غير معروفة من قبل . هذا النوع من العمليات كثيرا ما حقق عند عتبة عصر الاختراعات وتقنيتها . في هذه الحال ، النتيجة لا يمكن ان تكون متفقة مع الشروط القديمة اذ أننا ندفع التجربة أبعد : لكن في حال التجربة البسيطة نقطعها لكي نقبض بشكل أفضل على السياق الطبيعي . حين تكون القضية هي الحصول على شيء جديد ، نوسع ميدان الطبيعة بالاستثمار الحذق للعلاقات ، باضعاف هذه وتقوية تلك ، باقامة تراكبات بين ثلاث أو أربع علاقات ملحوظة . ان هذه التراكبات لمفاعيل قوانين لا تصادف في الطبيعة غير المعالجة، انها تفضي الى فتح نوع من طبيعة ثانية يستحيل وجودها بدون تدخل الانسان . هذا يترجم أحيانا عن غايات ذات طابع تمديني دخلها الانسان في الطبيعة، غايات لا تجني فقط كسبا من الطبيعة بل تسيء وتتجاوز عليها خالعة اياها ضد غايتها الخاصة .

منذ غاليله ، أغنى الانسان على الدوام معرفته للطبيعة ، اقتفى أثر العلاقات الطبيعية وانتهى الى استخدام هذه العلاقات من أجل تراكبات تقنية . ضد اغتصاب الطبيعة كانت تنتصب هذه الجملة لـ بيكن التي كان بامكانهم أن يراعوها على الاقل الى حد ما : « الطبيعة تهزم بالطاعة » . القضية هي دراسة القوانين العلمية للظاهرات الطبيعية دراسة جيدة لدرجة تمكن من التنبؤ بهذه الظاهرات بل ومن اثارتها : **نرى كي نتنبأ** ، حسب صيغة أحدث عهدا . عند غاليله ، لدينا مسيرتان منهجيتان : الفك الى عناصر الذي يجعل التجربة ممكنة ، « تشريح الطبيعة » الذي يسمح باكتشاف أبسط عناصر الحركة ، العناصر التي بفضلها سنتمكن من تقرير سيرورات الحركة . غاليله يدعو هذه الطريقة الاولى التي قوامها تقسيم ، تشريح ، فك ، تفكيك الواقع : **الطريقة الحالة** : انها « تقسم وتحل » . العملية الثانية ،

وهي التي تلجأ الى التجربة ، نالت اسم **الطريقة التاليفية** . هذا يعني : ذهابا من أبسط عناصر الحركة ، يجب التوصل بالتمثيل الرياضي للظاهرات الى النتائج التي بينتها لنا التجربة اليومية ؛ نحصل بمسلكنا هذا على تجربة ذات مؤلفة علمية ، على التجربة الوحيدة الجديرة حقا باسم تجربة . اذ أن ما يدعى عادة تجربة (خبرة) ليس تجربة بل هو واقع معاش يؤوله المرء بقدر طاقته ، لا يفهمه حقا ، ويمكن أن يوصف بأنه « وعي سابق للعلمية » . نصب هكذا على نظرية رياضية لعناصر حركة العالم ، نظرية أنضجت ليس فقط على قاعدة بضعة معطيات عددية ، بل اعترف بأنها جوهريا كمية . في نظر غاليله ، الحركة هي بذاتها « تأليفية » ، وطريقة معرفتها ليست سوى انعكاس ذلك . الحركة وحدها هي التي تقيم الروابط بين الأجسام وحالات الاجسام ، الكمي هو أيضا ديناميكي ، روح المبادرة تحرك هذا العالم ، الاولوية ملك لحركة الاجسام وليس لل « أنواع » الجامدة والسكون . الفكر المجمد في مقولات أنواع والمنطق الستاتيكي يتركان مكان الصدارة لفكر وظيفي منذار نحو علاقات الجدوى والتغيير .

في صورة العالم الستاتيكية التي كانت غالبة في العصور الوسطى ، الصورة التي كانت تعكس بأمانة مجتمع « الطبقات ــ الحالات » الستاتيكي ، سلم القيم مقلوب : حالة الجسم الطبيعية هي السكون ، الراحة . الحركة شذوذ ، كل حركة جسم تستنفد ذاتها ، الجسم يبطيء ركضه بعد تنقله فترة من الزمن ، دفعة البدء ــ وهي بطبيعتها غير سوية ــ تتبدد ، الجسم يتوقف ويجد أخيرا السلام في السكون . ثمة لزوم ل « شذوذ » آخر ، ألا وهو دفعة خارجية ، كي يتحرك الجسم من جديد ، نوعا ما مكرها . الحالة الطبيعية هي السكون ، الاندراج في بنية ، الاقامة في مكان : الارض الساكنة بالضرورة هي مركز الكوسموس . على لوحات جيوتو giotto ذات الوجوه التي لا تعد والموزعة في المكان ، كل منها حسب مرتبته في التسلسل الهيبرارشي ، لا شيء يتحرك ؛ كل الامور بلغت نهايتها : انه السكون المقدس ، العادل ، الحق ؛ كل شيء انتهى نهاية جيدة ، كل شيء في موقعه . تلك كانت رؤية ــ العالم لمجتمع غير برجوازي ، غير رأسمالي ، غير ديناميكي ، ذي أسواق مغلقة ، مجتمع كانت طبقاته ــ هيئاته العليا تبرز حيال العمل ازدراء موروثا عن العصر القديم ، في حين أن العالم البرجوازي يقدره تقديرا عاليا ويعيد وضع كل شيء في حركة ، الانتباه تأسره ظاهرة الدفعة ، الامر الذي يعلل تاريخيا واجتماعيا ببدايات المشروع ؛ الدفعة عند غاليله تحدد أولا الكتلة : لجسمين نفس الكتلة اذا كانت لهما بسرعات متساوية نفس الدفعة . لقد اكتشف غاليله عددا كبيرا من القوانين الديناميكية ، قوانين حركة النواس ، قوانين التسارع الوحيد النمط ــ وهي قوانين قدرية لكنها خصوصا قوانين كمية . الاسنادات الى القيم ليست مع ذلك غائبة من عند غاليله : فهو يشير الى تناسق ووحدة وبساطة الطبيعة . من أعتقد علم أن قوانين الطبيعة بسيطة ، أنها تتناسق وينسجم بعضها مع بعضها الآخر ، أن مبدأ وحدة يحكم الطبيعة ؟ نحن هنا أمام بقاء واستمرار عناصر كيف في التفسير الميكانوي للعالم من جانب غاليله . ان « كتاب الطبيعة » ينعرب في اعداد ، وافضل ،

ان الطبيعة هي أيضا فنان . لقد شادت أبنية فنية، والقوانين الرياضية ــ الميكانيكية تكشف التناسق الفني لعملها .

الطريقة الرياضية أنميت في نفس الحين تقريبا على يد الباحث والفيلسوف الطبيعاني الالماني **يوهانس كيبلر**، Johannes Kepler (١٥٧١ ــ ١٦٣٠) . انه مؤلف المؤلفات التالية : « Nova Astronomia » (علم الفلك الجديد) ١٦٠٩ ، « Mysterium Cosmographicum » (أسرار الكوسموغرافيا) ١٦١٩ ، « Harmonia mundi » (تناسق العالم) ١٦١٩ . أسلوبه، كأسلوب غاليله، يمتاز، رغم اللجوء الى الرياضيات ، بوضوح جميل . العالم ــ موضوع أبحاثه ــ لا ينحل في معادلات رياضية ، بل يظهر مرتبا حسب بعض التناسبات الرياضية . انه لا يتقلص الى هيكله أو تسليحه الرياضي ، بل يضاء في ضوء الرياضيات . موضوع كيبلر هو المنظومة الكوكبية ، الميكانيكا السماوية . كيبلر يشرح بأسلوب عظيم ومقنع أن « كتاب الطبيعة » مؤلف من أعداد . بحملنا نظرنا والقائه على صورة هذا الباحث العميق ، المتأمل ، الفاوستي حقا ، ندرك حقا ان كل العلم الطبيعي الرياضي مشتق من فيثاغورية خبرية . كيبلر فيثاغوري لدرجة اعتقاده التعرف في المسافات التي تفصل الكواكب عن الشمس على العلاقات العددية للأوتار المهتزة، اذا للقيثارة . يدعو المنظومة الشمسية « قيثارة أبولون » ، حيث أن كل كوكب يحدث على محركه صوتا من سلم السبعة أصوات ، والمجموع يؤلف **الوفاق الكوسمي** . لمفكرا في فيثاغوريي زمنه يناشد شيكسبير على النمط الشاعري تناغم الكرات السماوية حين يضع في فم لورنزو ، في **تاجر البندقية** (الفصل الخامس ، المشهد الاول) ، الاقوال التالية التي يخاطب بها الشاب حبيبته ، جيسيكا الحسناء ، ابنة شيلوك :

« لكم بهدوء ينام ضوء القمر على التلة !
نحن هنا جالسان وندع تنسكب في آذاننا
الموسيقا ؛ الصمت والليل
هما مثل بيان مليء بتناغمات عذبة .
تعالي يا جيسيكا ! تعالي شاهدي حقل السماء
مغطى بموزاييك من أقراص ذهبية .
لا توجد كرة من التي ترين ، مهما صغرت ،
الا وهي تشدو ، في سيرها ، مثل ملاك ! »

غوته ، كذلك ، لا يكتفي ، لمطلع **فاوست** ، بوميض صامت :

« الشمس تطن ، على الطريقة القديمة ، بغناء الكرات الاخوي والموحد ... »

من المهم ان نلاحظ ان كيبلر ينتهي ، متخذا كنقطة انطلاق ميثولوجيا ذات جمال لا شك فيه ، الى فهم رياضي ومتناسق للكون المتصور كلا واحدا ، انه لا يرتضي تقليصا كميا على سبيل الحصر موسوما بزهد رياضي . بالنسبة لـ غاليله

أيضا ليست القضية تقليصا رياضيا لا غير ، ما دام يرجع الى البساطة والى الوحدة كما الى قيم استيطيقية ؛ ولا ننسى برونو وفكرته عن كمال الكوسموس . لم يعتبر دوما بمثابة أمر بدهي أن كل شيء في الطبيعة يتم بأبسط السبل ، وأنــه يكفي أن نطبق بمنهجية القاعدة القائلة : « simplex sigillum veri » (« البساطة طابــع الحقيقة ») . العصور الوسطى عودتنا على صورة جد مختلفة عن الطبيعة . سبــق وقلنا ان الطبيعة الوسطوية كانت تخفي أهوالا تبرز على نحو مفاجيء كأنها مذنبات ؛ الطبيعة الباخوسية لـ هيغل كانت لا تروض ولا تمسك رغم الثناءات التي يوجهها الفيلسوف لقوانين كيبلر . كذلك لم يكن كمال الطبيعة المزعوم يفرض نفسه كبداهة جلية : خلال مدة طويلة ، كان يقال عن الطبيعة أنها مسكونة بشياطين ، ينظر اليهــا بحذر ويحذر من الذين ينحنون عليها .

كيبلر لم يرجع الى فيثاغور فقط والى القبالة Cabale ، بل أيضا الى **تيمــاو** أفلاطون ، الى تأملاته الرياضية عن بنية الكون . عنده ، العالم مندرج في أجســام مجسادية stéréoscopiques ، والكون يقترب مــن شكــل ذي الاثني عشر وجهــا dodécaédre . لقد درس كيبلر بعناية الـ **تيماو** ، وأضاف تأملات أخرى من نوع ، أجل ، أسطوري بنفس المقدار . الصور المثالية للكوسموس التي صاغها كيبلر كثيرا ما تحمل أثر أحكام قيم ذات جوهر ميثولوجي . هكذا فهو لا يتخلى الا بعد قتالات ضارية عن الاطروحة التي بموجبها تتبع الكواكب مدارات كاملة ، أي دائرية ، حــين أجبرته على ذلك ملاحظات تيشو براهه Tycho Brahé على مــدار المريخ (٣) . صحيح انه ، وقد أدخل سقوط آدم في الطبيعة ، يعزو للكواكب الساقطة المحرك الاكثر كمالا بعد الدائرة ، الا وهو القطع الناقــص . ولأمر مرمــوق أن تستطيــع مضاربات أسطورية من هذا النوع أن تفضي الى نتائج صحيحة ، هنــا الى القانون الثاني لـ كيبلر عن المدار الاهليجي للكواكب . ان صورة مثاليــة اخــرى ، جامحة بنفس المقدار ، مستعارة أيضا من ترسانة فيثاغور و**تيماو** الفلسفية ، تقيــم بــين السرعات المتغيرة لنجم من النجوم ، بين السرعات المتوسطة للكواكب ، علاقــة مشابهة لتلك التي تحكم بين ذبذبات الاصوات المنسجمة . بتنقيبه في عواقب هذه المشابهة التي ليس لها اي اساس واقعي ، ينضج كيبلر دليلا امبيريقيا جديــدا ويكتشف قانونه الثالث الذي يفيد بأن زمن دوران كوكب من الكواكب تابع لبعده عن الشمس . لنشدد ، رغم كل ميثولوجيا ، على اقتناع كيبلر الحازم بأن كل شيء يمكن ان يقاس ، بأن الكون يحكمه عقل مولد لتناسقات . ذلك اكثر مــن بقية من الكيف الموضوعي الذي بقي تجاه وضد كل شيء في العلوم الطبيعيــة الاكثر تحويلا الى كم ، الاكثر شكلنة . نجده في معادلات نظرية الضوء الكهرطيسية لـ ماكسول ، في نظريــة النسبية الضيقــة لـ اينشتاين ، التي استــدح بلانــك Planck تناسقها الرائع — وان كان العالم بعد بعيدا عن التناغم الموسيقي .

نحن مدينون لـ **أسحق نيوتن** Isaac Newton (١٦٤٣ — ١٧٢٧) بتفسير

قوانين كيبلر باكتشافه الجاذبية . اعماله الرئيسية ، وهـــي . « optica » (« البصريـات ») سنـــة ١٧٠٤ ، و Naturalis philosophiae principia » mathematica » (« المبادىء الرياضية للفلسفة الطبيعية ») سنة ١٦٨٧ ، تعرض بشكل خاص نظرية الجاذبية (gravitation) الثقالة (gravité) كانت بالنسبة لـ نيوتن بعد قوة ، فاعلا مستقلا مثل الضوء ، كما ، في مداول ميكانيكي اكثر حصرا ، الضغط والدفع . كان يفكر بأن هذه « القوة » (force) تنتشر كالضوء او الصوت ، حتى في الفراغ . مبدأ الفعل عن بعد كان مقرا به هكذا . المكان الفارغ مكان ستاتيكي ، سور او طوق مفرغ من كل موضوع . هذه الفكرة مشتقة من مفهوم « فراغ » فلاسفة العصر القديم الطبيعانيين ، السابقين لزمن سقراط ، المفهوم الذي نصادفه ايضا عند افلاطون الذي يرى ان المكان ، حين نجرده من كل ما يملؤه ، يمثل في شكل وعاء . هذه الصورة تفـرض نفسها على الذهن بالمشابهة مع حوض او ابريق او علبة فارغة مملوءة بهواء لا يرى . نيوتن يبقى عند هذا التصور للمكان : انه المكان السرمدي ، المستقل عـن جميع الحركات التي تحصل في داخله ، مكان الهندسة الاقليدية . هذا التصور للمكان طغى في الفيزياء حتى ظهور نظرية النسبية الاينشتاينية ، ولم يوضع في يوم من الايام موضع سؤال في عالم تجربتنا اليومية المتوسط الذي ليس دون ــ الذرة ولا فلكيا ، كان له قوة قانون في الكون بأسره .

من الصعب تكوين فكرة عن جسارة نيوتن معللا الاجرام السماوية ــ المثقلة بكل ضروب الخرافات والتطيرات ، والتي كان يقال انها مخلوقة مـن الله ومحمـلة جلالا ازليا ــ بقوانين محض ميكانيكية . ان تراكب القوة المبعدة عن المركز والقوة الجاذبة اليه هو الذي يعين للكواكب مسارا اهليلجيا . كل شيء يجري بدقـة ونظامية حركة ساعة ، اذن جهاز ارضي . هذا التحليل الارضي فتح ثغرة هائلة في فكرة السماء . الالمان (وكذلك الفرنسيون ــ ملاحظة من المترجم الفرنسي) ليس عندهم سوى كلمة واحدة لـ « سماء » ؛ الانكليز يميزون بين « heaven » (السماء ــ الجنة) و « cky » (سماء النجوم) . « heaven » هي السماء المسيحية ، الما ــ وراء ، « cky » هي القبة الزرقاء ؛ بحكم هـــذا الاختلاط اللغوي ، قرن الناس من البداية بمفهوم « السماء » افكارا لاهوتية وعليانية . منذ نيوتن ، الفصل تام . نيوتن ارسى اسس المادية الميكانوية الفرنسية ، التي لم تلغ العرش والمذبح الارضيين فقط بل فتحت الطريق لـ « تاريخ الطبيعة الكوني ونظرية السماء » لـ كنط Kant (١٧٥٥) ؛ تلك كانت طلقة الرحمـة علـى الكوسموغونيا الخلقية .

لقد ذكرنا مرورا نقطة الضعف في الفيزياء النيوتنية ، التي جرى ادراكها في وقت لاحق فقط : الا وهي فرضية مكان اقليدي صارم ينطبق على جميـع مظاهر الكون . المكان النيوتني ، الميكانيكا النيوتنية ، يحتفظان اليوم ايضـا بصلاحهما في العالم « الميزوكوسمي » المتوسط ، اي في مجال خبراتنا اليومية. الاخطاء التي تنبع من ذلك في هذا المستوى هي تافهة بحيث يمكن اهمالها في

النشاط العملي — وفي اغلب الاحيان في النظرية ايضا . لقد ظهر قصور المكان النيوتني في المجال (المكان) تحت — الذري ، الذي اكتشف بعد نيوتن بكثير ، اي في المجال (المكان) الذي تتحرك فيه الالكترونات والنيوترونات والبروتونات وجزيئات اخرى . المكان النيوتني انكشف عن كونه غير كاف ايضا في السلم العملاق للمسافات الفلكية ، وبوجه اخص في مستوى المجرات ، في اليوم الذي اخذوا فيه يطبقون على الماكروكوسم (الكون الكبير) الهندسة غير الاقليدية ، التي أحكمها ريمان Riemann في القرن التاسع عشر ، ونظريته عن توابع المتغيرات المعقدة . في سلم الميكروكوسم والماكروكوسم ، ليس المكان « وعاء » فارغا ، انه وثيق الارتباط — شأنه شأن « الكتلة » وبنفس اللقب — بظاهرة الحركة التي تملؤه والدفعة . المكان يمثل اذا في مستوى اللامتناهي في الكبر واللامتناهي في الصغر بوصفه كيانا متغيرا ، مرنا ، معقوفا . لحساب مكانات كهذا تستخدم الاداة الرياضية للهندسة الريمانية . لنوضح فكرنا : اذا اسقطنا الكرة الارضية بثلاثة ابعاد ، حسب نظمة مركاتور Mercator ، على خريطة جغرافية ببعدين ، لاحظنا تشوهات هامة . عند خط الاستواء . كل شيء يبقى في موقعه على نحو جيد ، لكن كلما ابتعدنا عن خط الاستواء نحو القطبين الجنوبي او الشمالي ، توسع الرسم بشكل كبير . شمالي كندا ، الرأس الشمالي ، سيبيريا الشمالية تجد نفسها مكبرة بشكل مفرط . هذا الوهم الذهني والبصري نوعا ما يصادف ايضا في اسقاط خطوط الثقالة في المكان (الفضاء) ، اي الدوران حول الشمس في مكاننا التجريبي . ان مكاننا التجريبي ذا الثلاثة ابعاد هو الى المكان الكوسمي تقريبا ما المكان ذو البعدين في الخريطة الجغرافية الى مكان الكرة الارضية ذي الثلاثة ابعاد . اذا ففكرة الثقالة قد استفادت ، بموجب نسبية اينشتاين ، من تصحيح يعادل نفعه اهميته . من المعلوم ان الابحاث في هذا الميدان بعيدة عن ان تكون بلغت نهايتها . يبقى مع ذلك ان قوانين نيوتن ذات دقة كافية في العالم الميزوكوسمي ؛ اما فيما يخص حدودها الدنيا والعليا ، فان نيوتن نفسه هو الذي حاول ، في مؤلف متأخر ، ان يتجاوز بطريقة عجيبة العالم الميزوكوسمي . امر مدهش ! التجاوز الذي يتصوره ابوكاليبتي ، رؤيوي : صحيح انه احتفظ به كسر . نص نيوتن نشر في ١٧٣٣ ، بعد موت الفيلسوف ؛ انه يحمل عنوان « رؤيا القديس يوحنا » ويعرض آخر الشطحات الطبيعية والآنتي طبيعية للنهضة : المؤلف هو عالم الطبيعيات الاكثر دقة في عصره (٤) .

٩

ملاحظات على فلسفة الحق والدولة في البرجوازية الصاعدة

التوسيوس ، ماكيافل ، بودان ، غروتيوس

لنمض الى السلسلة الثانية من المواضيع التي، تحت نفوذ المفاعيل الدائمة للنهضة، شغلت البرجوازية الصاعدة ، الحريصة ، وسط الغليان والصراعات ، على فهم ليس العالم الفيزيقي فقط بل ايضا العالم الاجتماعي ــ الحقوقي . واقعه مميزة : كل شيء ، في هذا الميدان ، يجب ان يخضع للعقل ، الايمان والعقل الذي يجهل الشك وغير محدود تقريبا . بانحنائنا على مثال غاليله ، تعرفنا على طريقة تعيد كل شيء الى تعبيره الابسط ، طريقة تسمى تحليلية وتركيبية . والحال ، ان الطريقة نفسها تطبق الآن على المواضيع التاريخية والاجتماعية ؛ في هذه الميادين ايضا ، يمارسون « تشريح الطبيعة » . هنا ، ليست الدفعات هي عناصر الحركات الاكثر بساطة ، العناصر التي ستدعى فيما بعد بـ « المتفاضلات » (« différentielles ») ، التي انطلاقا منها سيعاد بناء الحركة في الفكر والفعل ــ بعد تطبيق الطريقة الحالة ــ ، بل نجد في مكانها هيجانات (عواطف) ، مراكز اهتمام ، افرادا . الافراد ، هيجاناتهم ، مراكز اهتمامهم ، حاجاتهم ، طموحاتهم الديناميكية ، توازي الذرات الاندفاعية . لبمساعدة هذه العناصر البسيطة يسعون الى القبض ، ايضا بالطريقة التحليلية ، على الحياة الاجتماعية والعامة ، بغية اعادة بنائها وبشكل خاص تدبيرها تبعا لمصالح البرجوازية .

انعرض سبيلان : اما يلقون ، وهذا ما فعله ماكيافل ، نظرة كلبية او بالاصح موضوعية على الحياة العامة كلبية بالقدر الذي فيه الواقع نفسه كلبي (واقع المدن ــ الدول الايطالية في القرن السادس عشر كان كلبيا) : اما السبيل الآخر فهو طريق غروتيوس وهوبز ، وهما من مذاهبة « عقد اجتماعي » مزعوم يوتوبي بقدر ما هو سابق للتاريخ ؛ بالفعل ، هذان المنظران للحق العام يذهبان من فكرة ان الافراد قد اتفقوا ، بحكم ميولهم وحاجاتهم ونبضاتهم ومصالحهم الاساسية ، على ان لا يعيشوا بعدئذ وحيدين كالذئاب حتى لا يأكل بعضهم بعضهم الآخر او يؤكل . هذه العناصر والعقد الاجتماعي الاولي المزعوم الهادف الى تحقيق اعتدال

وتوازن الانانيات ، هي التي تخدم كمحك للحكم على الدولة الموجودة تبعاً للحق الطبيعي . يلاحظون عندئذ ان الدولة مزيفة في كثير أو قليل لان الناس لم يبقوا عند العقد الاجتماعي . الحق الطبيعي الكلاسيكي قد ترك مكان الصدارة لنظرية الثورة الاجتماعية . هكذا يظهر نقد للظاهرات الاجتماعية مؤسس على مفهوم كائن اجتماعي موافق للطبيعة الانسانية . يؤيدون عندئذ فكرة وجود تباين بين الظاهرات الاجتماعية والكائن الاجتماعي المتوازن ؛ الحق الطبيعي لا يفتأ يشدد على رفض الخبرية الموجودة لفي هذا يتميز الفكر الدولتي والاجتماعي عن العلم الفيزيائي البرجوازي في بداياته . في العلم الفيزيائي يؤكدون : اذا ما حدث ان نظرية للحركة ، مثلا للحركة الشلجمية أو للسقوط الحر ، نظرية أنضجت على ركيزة اكتشاف عناصر الحركة ، لا تتأطر مع المعطيات الواقعية ، وانها رغم انف كل المشابهات الاخرى لا تقدم تعليلا علميا حقا عن هذه المعطيات الواقعية ، فهي باطلة. والفيزيائي الذي قد يقول : تبا للوقائع ، ليس رجلا جديا ، انه يعلق على فرضيته اهمية اكبر مما على الظاهرات المستقلة عن الانسان التي تريد النظرية تعليلها .

الامر على نحو آخر في نظرية الحق الطبيعي ، التي لا تكتفي بالملاحظة الامبريقية بل ترمي الى التحويل المعياري : بامكانها ان تؤكد في حال تباين بين النظرية والمعطيات الواقعية : « تبا للوقائع الاجتماعية المعاينة ! » . بعقدهم العقد الاجتماعي ، المتعاقدون كانوا يقصدون بالدرجة الاولى تأمين سعادتهم وامنهم . اذا كانت الدولة التي نعيش فيها لا تلبي هذا الاشتراط ، فان كونها موجودة ونعيش فيها لا يجعلها مبررة . على العكس تماما ، اذا تكيفنا مع الدولة المنحلة ، دللنا على انتهازية ، دافعنا عن ايديولوجيا بخسة ، ربما فاسدة ، كما شوهد ذلك ايضا في ميدان الحق الطبيعي ، بخاصة في القرن الثامن عشر في المانيا . يكفي ان نذكر فولف Wolff وبوفندورف Pufendorf ، اللذين كانا يرتضيان حالة تمنها ايديولوجيا برجوازية وسبعة اثمانها اقطاعية ولا يشترطان سوى بضع تحسينات وتسويات تافهة . اذا اغفلنا امثلة الدناءة هذه ، فان الحق الطبيعي يعلن بالاجماع انه اذا كانت الحالة السياسية غير متفقة مع الحق الطبيعي فان الدولة – برأي اخصائيي الحق العام – هي المذنبة . اذا ان الحق الطبيعي قد سعى دوما الى الوفاق مع نفسه ، ولكنه لم يكتف في يوم من الايام باشتراطات معيارية غائمة . على العكس تماما ، لقد فعل دوما في وفاق مع الاتجاه الموضوعي، الا وهو التحرير واخذ السلطة المبرمج على يد البرجوازية الصاعدة ، المصارعة ضد الاقطاع .

اولا بأول سندرس الآن احد مؤسسي مذهب الحق الطبيعي (الحقوق الطبيعية) ، ألتوسيوس Althusius . لكرد فعل ضده نسي التوسيوس ومذهبه ، لصالح اطروحة ماكيافل الذي سبق ان ذكرناه . سننقل انتباهنا بعد ذلك على منظر للحقوق ، الفيلسوف الفرنسي جان بودان Jean Bodin ايديولوجي السيادة . كان مفهوم السيادة (souveraineté) يعين بادىء بدء سيادة الامير ، الـ « majestas » ، « الجلال » (الجلالة) : اهمية هذا المفهوم

تكمن في كونه بقي ونقل الى الشعب ، فالشعب صار « السيد » (« الملك » او العاهل او الامير ، « le souverain ») . ليس ذلك محض كلام : فالمصطلح له محتوى حقوقي وفلسفي واضح التحديد ، عرفه بودان ، المفكر الامبريقي الذي هو اول من وضع مسلمة (مصادرة) تاريخ للحقوق كأساس او ركيزة لفلسفة الحق . حين لاحت تباشير الثورة البرجوازية في هولندة ، بلد القارة الذي كانت فيه البرجوازية قد غرست نفسها على النحو الاكثر متانة ، بلد البحارة والتجار والمانيفاكتوريين الرأسمالي الذي بقي في مأمن من الاتجاهات النيو ـ اقطاعية ، اعيد اكتشاف ألتوسيوس وظهر غروتيوس Grotius ، مؤسس الحق الدولي (الاممي) واول منظر كبير للحق الطبيعي .

ان بدايات الحق الطبيعي تقع ، لحسن الحظ تماما ، في المانيا : مخترعه هو **يوهانس ألتوسيوس** Johannes Althusius ، الذي عاش من ١٥٥٧ الى ١٦٣٨ . قبل حرب الثلاثين عاما، انهالت موجة حياة رأسمالية على المانيا الغربية. ألتوسيوس نهض ، بعد طول خسوف ، كأول مدافع عن حق الشعوب في وجه التاج . مؤلفه الرئيسي يحمل عنوان « politica » (« سياسات ») ، سنة ١٦٠٣ . كان ألتوسيوس هوغنويت Huguenot ، اي كالفينيا . بعد مجزرة السان ـ بارتيلمي الفظيعة ، « ليلة كريستال » الكاثوليكية ، التي خلالها مر حد السيف على جميع الهوغنوت في باريس ، شوهد في فرنسا مولد حركة مقاومة ضد الملكية الكاثوليكية والقمع المناهض للكالفينية . كانت هذه المقاومة قد وجدت من قبل لسانا ناطقا باسمها في شخص **تيودور دو بيز** Théodore de Béze تلميذ وخلف كالفن ، الذي أعلن بصدد يوم السان بارتيلمي أن الرعايا غير ملزمين اطلاقا بطاعة غير مشروعة للسلطة التي اقامها الله (١) . حسب هذه الاطروحة ، السلطة لا تبقى معتبرة من حق الهي اذا كانت لا ترضي فريقا ما من المؤمنين (ولنسجل ان بعض اليسوعيين من امثال روبير بلارمن Robert Bellarmin وماريانا ده لا رينا Mariana de la Reina كانوا يناقشون منذ ذلك الحين مشروعية « مبدأ قتل الطاغية » ، طبعا لصالح مجلس الادارة البابوية وحده ؛ اذن فأول نظرية عن « قتل الملوك » صاغها يسوعيون) . حسب بيز Béze ، الشعب ، وفي الحالة التي تشغله الهوغنوت ، هو مصدر جميع الحقوق ؛ والحال ، كان المنشأ الاجتماعي للهوغنوت في فرنسا يختلف عن منشأ الكالفينيين في البلدان الاخرى واكثر ايضا عن منشأ اللوثريين في المانيا : في فرنسا ، كان الزعماء الهوغنوت بوجه عام من النبلاء كانت الحركة الهوغنوت تجهل هذا المزيج الغريب من مصالح تجارية واميرية الذي كان يطبع الكالفينية واللوثريانية . الحركة الهوغنوت ما زالت تجر في عربتها مخلفات اقطاعية عجيبة من طراز حركة القلاع ضد المونارشية (٢) . هذا الامر اعطى بعض الدفع لحركة المقاومة التي في اطارها كان بوسع فرسان نزعت حيازتهم ان يتمردوا ، وبيدهم السلاح ، ضد السلطة

القائمة . صحيح أن بيز كان قد حمل اطروحته سلسلة من تحفظات . هكذا ، لم يكن حق التمرد ملكا للشعب بل للدول « etas » . السلطة ليست بعد معرفة على نحو عقلي ؛ لم تعد لاعقلانية الى درجة الانتساب للحق الالهي ، لكن بيز ما زال يناشد « المسحة السماوية » وان كان يضيف ان « الذين استفادوا منها غير جديرين بها » .

هذا كله يتغير مع **التوسيوس** ، الذي يذهب ابعد بكثير في التأويل العقلاني للدولة والمجتمع بوجه عام . ان فكرة هامة تنفرض للشعب نفسه ، وليس فقط لممثليه ، حق اسقاط السلطة اذا لم تعد تعمل لصالح الشعب ؛ « الشعب » ، هو في هذا السياق دوما « البرجوازية » . الدولة ليست الا منتدب الشعب ؛ هكذا يعود الى الظهور مذهب صاغه ابيقور ، بموجبه الدولة مدينة بوجودها لعقد معقود بين افراد . اذا لم يحترم احد المتعاقدين ، هنا الدولة ، بنود العقد ، يكون الشعب مجابها بحالة جديدة ؛ هذه الحالة هي الثورة التي بها يرفع الشعب حقوقه كسيد . بمصادرته عن سيادة الشعب ، أي بوضعه هذه المسلمة ، يعقد التوسيوس الصلة المقطوعة مع تقليد يعود تأريخه الى اواخر العصر الوسيط . الفقيه الكبير ومؤرخ الحقوق غيركه Gierke هو الذي اكتشف هذا النسب ؛ اكتشف ايضا أن هذه الاطروحة كان قد دافع عنها اسمانيو الحقوق في نهاية العصر الوسيط ، وبالاخص الاسماني الكبير غيوم أوكام Guillaume d'Occam . مارسيل دو بادوا Marsile de Padoue ، وعنوان مؤلفه الرئيسي « Defensor pacis » (« المدافع عن السلام ») سنة ١٣٤٦ ، كان صديقا لـ غيوم أوكام او على الاقل واحدا من الفاء فكره . كانت القضية بالنسبة له الدفاع عن الامراء ضد البابا ؛ لم تكن سلطة البابا معتبرة الهية ، كان يجب مكافحتها ليس بمجلس كنسي بل بحشد المؤمنين الكاثوليك . هذه الاطروحة جمعتها ودونتها البروتستانتية وكانت تتعادل مع ضرب من ثورة دينية كبيرة ؛ اثناء حروب الفلاحين ، استخدمت ايضا ضد الامراء .

سرعان ما نسي التوسيوس وظل مذهبه بلا اثر . كانت سيادة الشعب قد فقدت كل وكالة في زمن الحكم المطلق الآخذ في الولادة ؛ ما كان ذا اهمية هو سيادة الامير المدعو لتسهيل نمو الرأسمالية . البرجوازية عقدت حلفا مع المونارشية ، او المونارشية عقدت حلفا مع البرجوازية ضد الاقطاعية ، الامر الذي ولد النيو اقطاعية ، اذ ان الملك ظل « النبيل الاول » بينما كانت زمر البلاط تدير الاعمال . هذه الاقطعة للرأسمالية ، عاقبة الاسبنة ، كبحت ان ليس النمو الاقتصادي فعلى الاقل النمو السياسي للبرجوازية . لكن العقلانية البرجوازية تنفذ ايضا الى المونارشية المطلقة ونشهد مولد وظفر مفهوم « عقل الدولة » (علة الدولة ، دواعي مصلحتها العليا ، حجتها ، « raison d'Etat ») : انه في امر اليوم حتى قبل رجوع فكرة « سيادة الشعب » الى السطح . هنا يتدخل الشخص

اللامع ، المثير للقلق ، المتناقض ، ومع ذلك المنسجم ، شخص **نيكولو ماكيافل** Nicolo machiavel ، رجل عصر النهضة ذي هيئة الكوندوتيير (قائد مرتزقة condottiere) . سمحنا لانفسنا هنا ببعض الحرية مع التسلسل الزمني ، فقد عاش ماكيافل قبل ألتوسيوس بكثير ، الامر الذي لا يمنعه من ان يكون مقابلا له . ليس التعاقب الزمني هو الذي يهم هنا ، اذ ان ما يقرر سير الحوادث ، ليس التواريخ بل مستوى التطور التاريخي للمكان الذي يمارس فيه رجل نشاطه . ولقد كانت المدن الكبرى في ايطاليا قد بلغت في القرن الخامس عشر نضجا تاريخيا واجتماعيا اكبر منه في المدن الاخرى في اوروبا .

عاش ماكيافل في فلورنسا من ١٤٦٩ الى ١٥٢٧ . حتى سنة ١٥١٢ كان سكرتيرا في خدمة الجمهورية الفلورانسية وحرر مؤلفا عن الكتب العشرة الاولى لـ تيت ـ ليف Tite - Live . تقريبا في نفس الوقت مع مؤلفه عن تيت ـ ليف (١٥٣٢) صدر كتابه الشهير « il principe » (« الامير ») ، وهو كتاب مونارشي الاتجاه ، مهدى الى بيت ميديشي الذي كان قد اخذ السلطة في فلورنسا بعد انهيار الجمهورية . اول وكالة ماكيافل كانت تمهيد الطريق للبرجوازية ـ لم يكن يعي ذلك . الوكالة الثانية ، الواعية ، كانت توحيد ايطاليا . لامر ذو دلالة ان يستيقظ الشعور القومي الاولي عند ايطالي في بلد مجزأ ، تحتل وسطه الدول البابوية . كان ماكيافل كأنه مهووس بفكرة ان توحيد ايطاليا ربما يتحقق انطلاقا من فلورنسا ، على يد غاصبين ، فاتحين ، كوندوتييري . الغرض الذي لم يكن هو نفسه يعيه ، غرض التوحيد كان خلق جملة اقتصادية موحدة كانت الراسمالية الايطالية بحاجة اليها : ذلك اذا كان تفويضا اجتماعيا .

لنفحص عن مزيد من قرب عقيدته العجيبة في تقنية الحكم . سبق وقلنا انها كلبية ، لكن الواقع الحكومي ، الذي كانت لا تقدم له وصفات فقط بل ايضا ايديولوجية ، كان كلبيا : الجميع يعرفون وحوش عصر النهضة . اذا كان انجلز يؤكد ان النهضة كانت عصر العمالقة ، فهو محق تماما ، لكنها لم تكن فقط عصر عمالقة الروح والعلم ، الفلسفة والفن ، بل ايضا عصر عمالقة الجريمة ، عصر قيصر بورجيا الذي يستلهمه ماكيافل بدون ان ينقده ، لان الغرض الذي يلاحقه ليس كلبيا : انه توحيد ايطاليا واقامة حكومة وحدوية متصورة عملا فنيا محسوبا ومحاكما ، ومفكرا بامعان ، وليس البتة حيوانيا . العزف على بيان (مفاتيح) القوة الغاشمة وانتاج مقطوعة جميلة مع ذلك ، هكذا كان ماكيافل يتصور السياسة ! بالتأكيد ، يجب التحلي بمهارة الاصابع ، استخدام الدواسات ، تحويل خطيئة الى التباس هارموني ، الغش ايضا اذا لزم الامر ، لكن الولاية ، اي الغاية ، تضفي القداسة على الوسائل . والحال ، يوجد مذهب عملي الى اقصى حد : الهيجانات لا يمكن ان تغلب الا بهيجانات اخرى ، وليس ابدا بنظريات ، يجب استخدام اهواء ضد اهواء اخرى . يجب استثارة الطمع ، الحب ، الخوف . حين نكون بحاجة اليهن ؛ من اجل هزم الطمع ، يجب اثارة الخوف ؛ من اجل هزم الخوف ، يجب اثارة الحب . هذه النظرية تترجم عن

احتقار تام للانسان : تطبيقها العملي الاخير كان ـ الى الآن ـ الدولة الهتلرية ، التي كانت ايضا تلعب بالهيجانات وان البواعث ليس لها شيء مشترك مع بواعث ماكيافل . توجد عند ماكيافل « علة دولة » ؛ ليست ، في نية ماكيافل ، لاعقلانية، لكنها هي التي توحي كحل عملي في احيان كثيرة وممكن التحقيق باللجوء الـى الهيجانات بوصفها ابسط عناصر التعايش الاجتماعي .

ماكيافل يوصي أيضا ، على سبيل « أركان السيطرة » ، بعدم عرض وبسـط اغراض الحكومة في العلن ، لانها في هذه الحالة قد تفقد جاذبها العام ، الـذي يجب ان يصيب ايضا اولئك الذين لا تتفق اهدافهم مع اهداف الطبقة العليا او حتى تعاكسها . لهذا السبب يلزم مظهر الفضيلة ، نقول اليوم **الايديولوجيا** ، الاخفاء ، الدسيسة ـ شرط ان لا تكون ركيكة ـ ، شجاعة الجريمة ـ لكن دوما وراء قناع فاضل ـ اذ ، يؤكد ماكيافل ، ان الناس (وهذا يعني عنده بوجه عام « الجمهور » او « الكتلة ») يحكمون على كل شيء بحسب الظواهر . مرة اخرى، نكتشف اتجاها يقود مباشرة الى الفاشستية ؛ ليس في ذهن ماكيافل مـا دام كان يعلم نفسه مكلفا بوكالة اجتماعية اخرى ، لكن النازية والفاشستية هما اللتـان تكشفان الطبيعة الحقيقية لهذا الاتجاه .

ان تحديدا آخر تقدمه لنا نصيحة ماكيافل بأن ننقـل موقفنـا عـن موقـف الاقدمين . تلك مصادرة (مسلمة) نموذجية لعصر النهضة : العالم القديم يقترح لنا كموديل ليس فقط من اجل تجديد فن العمارة وفن الرسم ، بل كذلـك في المضمار السياسي ، يجب العودة الى « الفضيلة » الرومانية ؛ هذه ليست الفضيلة المسيحية بل هي صفة رجال ، تناسب الرجال في عين منتصف مذهب رجعي ، « ماكيافلي » ، للدولة ، نصادف ـ في سياق جد مختلف ـ انحيازا سوف يقود جوردانو برونو الى المحرقة : ماكيافل يهاجم المسيحية بعنف متخذا كنقطة انطلاق « الفضيلة » ، انه يستبق نوعا ما حملة نيتشه nietzsche ضد اخلاق العبيد. ماكيافل يغضب ضد الفضيلة المسيحية بل وضد فكرة « الرعاية » المسيحية ما دام لا يرى اثرا لرعاية الهية في العالم : العالم يحكمه قدر أعمى ، « دولاب الحظ » المتصور تقريبا كأنه آلية ؛ ما هو فوق يسقط ، الدولاب يدور . الكنيسة تصاب هنا بالقدر الذي كانت النيو افلاطونية قد انزلته على الرواق : الـ eimarméné الرواقي ، القدر الذي كان يشمل « حب القدر » (« amor fati ») ، يتحطم ، العالم يضيع في الفوضى . ماكيافل يضع مقابل « القدر الأعمى » « الفضيلة » التي هي وحدها تستطيع ان تسحب منـه أفضل كسب . الرعاية فقدت رتبتها ؛ الله يفعل بالضبط ما يفعله الامير ، انه يضع يده في عجلة المصير المسننة ، انـه الرعاية providence .

قبل الذهاب ابعد ، احب ان اذكر جملة من **الامير** : « حيث ليس لدى البشر الا قليل من « الفضيلة » ، يعرض « الحظ » قوته . بما انـــه يتغير ، فالدول الجمهورية تتغير كثيرا . وسوف تستمر في التغير الى ان ينهض اخيرا رجل يحب العصر القديم لدرجة سيصحح معها سير الحظ » . هذا استدعاء لقيصر . الهدف

الذي يرمي اليه ماكيافل هو « حظ » مسيطر عليه ، مستعبد ، مراقب بواسطة « virtu » (« فضيلة » بالمعنى « الروماني ») مسيطرة ، ناظمة . او حسب صورة اخرى لماكيافل : السيدة « ثروة » (حظ ، نصيب) يجب ان تضرب وان تهان كالمراة ـ فهي امراة ـ كي تشعر بارادة السيد وترضخ لها . وعلى الرغم من ان ماكيافل لا يعلم شيئا عن انماط واصول السيدة « حظ » الاجتماعية ، الا انه يؤكد انه يجب ضرب واهانة المراة بكثير من الاحتراس والتبصر ، مع تقدير العواقب المحتملة بعناية . يجب معرفة تشريح وسيكولوجية المراة للضرب في المكان الجيد والحصول على انثنائها لارادتنا بدون ان يكون المرء مضطرا للضرب بقوة زائدة او تسبيب المتاعب لنفسه أو بعشرة قواه . ان عقـل الدولة (علتها ، داعي مصلحتها العليا) هو مع ذلك على ما يكفي للنمو كي يسجل ماكيافل ـ على سبيل الاختبار ـ الحالات التي يمكن فيها ان تلجأ سيطرة الـ « imperator » (الآمر ، الحاكم ، الامبراطور) الى المكر والخداع . السيدة « حظ » (« fortuna ») مخاتلة بقدر ما « الفضيلة » (« virtu ») شيطانية ، يقول ماكيافل ؛ وهكذا ينسل فـي « عقل الدولة » عنصر لاعقلي ينزع عقلها القفزة في اللامعقول تلفت انتباهنا اصلا في صورة المراة الغدارة والخائنة ، التي يجيبها كرباج « الفضيلة » . والحال ، يجب الا تنسى « الفضيلة » ابدا ان السيدة حظ ، في صعيد « عقل الدولة » ، ليست امراة فقط بل هي ايضا زوجة ممكنة ، معها « الفضيلة » مضطرة فعـلا للتعايش . هذه السيدة حظ الغدارة لها ، مع ذلك ، قوانينها ، انها تفعل تبعـا **للضرورة** ، هكذا ، تعود المذكورة وتدخل في اطار الضرورة . ماكيافل يعنـي بـ « الضرورة » (necessità ما يجب القبول به وعمله من اجل اعطاء السياسة مجرى ملائما او على الاقل مفيدا ، من اجل تسييرها الى نهاية جيدة . منطـق الضرورة النسبي يسبب دخول فطنة « الفضيلة » في الحلبة ـ والفطنة هنـا تجعل مماثلة لضرورات الدولة . بهذه الحيلة او الوسيلة ، تسترجع مسلمـة القياس والاعتدال وعدم الافراط موقعها الى جانب الشيطانية : يجب على الامير ان يكون متفكرا بصيرا بحيث يحد طموحاته ويقصرها على ميـدان الممكن ، وبحيث على سبيل المثال يسعى الى تسوية حين يرى ذاته مجابها بخصم قوي اكثر مما يجب . ماكيافل اذا يوصي الامير بسلوك متوازن ومعقول، تمليه **الضرورة** وحدها.

الدولة ـ وماكيافل يفكر على نحو خاص بالدولة الايطالية التي يريد انشاءها ـ لها كمهمة وطنية ان توفر للجماهير ، لـ « العامة المكلفة البائسة » ، شروط حياة يمكن تحملها ولو قليلا . ليس هدف الدولة جعل الشعب سعيدا ، هدف الدولة هو منع الاضطرابات . عقل الدولة يتطلب اذا نشرا لمظاهر ابهة ، وهم الامن الذي تغدقه أوليغاركية معترف بها ، ان أمكن أقلية ذات قـوة وبأس يشخصها دكتاتور ، قيصر . نرى مرة اخرى المثال الروماني ، « الخبز والعاب السيرك » (« pranem (« et circenses ») كوسيلة لتنويم الجماهير ، هـي شبح قديم لـ « مشاركة » (« partnership ») اجتماعية . كان توسيع هذا المبدأ فـي الوقت نفسه عملية تدوين قانوني لما دعي « اركان الهيمنـة » « Arcana (»

(« dominatunis » ، وهـذا تجديد مرده الى « سياسة الغرفة » (« politique
« de cabinet ») الشهيرة التي ظهرت لاول مرة في زمن ماكيافل وبلغت ذروتها في العصر الباروك (baroque) . كانت سياسة الغرفة مؤلفة مثل مقطوعة fugue موسيقية ، كلها توازنات وطباقات contrepoints حذرة كانت جهازا آليا معقدا يحتاج بالطبع الى تشحيم ولكن دواليبه المسننة يجب ان تتداخل وان تعمل بشكل مثالي . الايقاع كان تارة بطيئا وطورا سريعا ، ويمكن ان ندفع المشابهة ابعد وان ندخل فكرة « رقاص ساعة » مدعو لتأمين سير الحركة النظامي بلا مفاجآت ؛ هذا كله يشهد كم من الصعب نجاح التعاون بين الدول ، هذا الذي دعي في القرن التاسع عشر – بخلط وبخس المفردات – « الكونسير concert الاوروبي » ، وفي ميدان الاقتصاد « العمل المتناغم » « l'action concertée » العقل (« ratio ») له ايضا موقعه هنا (٤) ، وكذلك فن « المحاولة » (التحايل) ، وهو فن وقور تقريبا ، يصب على الدبلوماسية السرية والسياسة « الكبرى » ، فن مفتوح على العالم ويبلغ ذروته في الحكمة القائلة « الصدق ارهف شكل للخداع » : هذا كله نجده في خطاب مارك انطونيو عند شيكسبير . كل هذه المقولات اخترعت فقط في ذلك العصر ، ما كان ممكنا اختراعها في وقت ابكر ، اذ ان المعقد السياسي الروماني كان قويا بحيث كان تماما في غنى عن « السياسة الكبرى » في علاقاته مع حلفائه المزعومين . الماكيافيلية تعتبر مؤذية وهي كذلك ؛ لكنها ايضا تقيم حسابا لاعمال الغدر التي تخفي نفسها ؛ انها لا تجاهر بايمان تقي متعبد بالتقدم الذي لا يستحق الاستناد اليه او الاستشهاد به من اجل تفسير سبل العالم الصعبة وغالبا الخسيسة .

لقد اعطى ماكيافل لمعاصريه – وليس لهم وحدهم فقط ! – وصفة التأويل الواقعي للواقعة السياسية ؛ بهذا المعنى والاتجاه يجب استخدام مذهبه ، وليس من أجل وضعه موضع التطبيق . بتسميته الهر هرا ، يفعل ماكيافل بطريقة قليلة الماكيافيلية ، اذ ان الماكيافيلية تتطلب على وجه التحديد اخفاء بواعث الفعل السياسي الحقيقية . هذا هو السبب الذي جعل سياسيا ماكيافيليا حقا ، مثل فريديريك الثاني (٥) ملك بروسيا ، يعتقد ضروريا ان يكتب مؤلفا « آنتي–ماكيافل » (« ضد ماكيافل ») . بما ان الدولة هي لجنة ادارة الطبقة المهيمنة ، فان الادارة كادارة يمكن ان تعلل باعتبارات اقتصادية . لكن طريقة ادارة الاعمال لا تعلل بالاقتصاد وحده ، يجب ايضا اخذ حساب السياسات الماكيافيلية السرية التي تتخطى ومن بعيد كل ما يمكن أن نتصوره حين نبقى عند الذي يستشعره رجل الشارع بشكل غامض حين يقول ان « السياسة شغلة وسخة » . ان مسألة معرفة ما اذا والى أي حد الغاية تقدس الوسائل تحتاج هي أيضا الى فحص معمق ؛ وهي لا تنفصل عن هذا السؤال الآخر : الوسيلة الا تدنس الغاية ؟ ايجب أن يكون للسبب من القدرة والمحتوى – ليس فقط على الصعيد الفيزيقي بل أيضا على الصعيد الاخلاقي والمعنوي ، أي بالمقارنة مع الغاية – بقدر ما للأثر ، طبقا للحكمة القائلة : « causa aequat effectum » (« السبب يعادل الأثر ») ؟ أو أن بامكاننا أن

نسلك منعطفا ، باختيار الوسائل ، لبلوغ أهدافنا ؟ هل بامكاننا تسريع اقامة عهد الحرية بالحد من الحريات وقتيا ؟ لكن بشرط أن يكون الهدف الوحيد المقصود هنا وفيما بعد ، مع أخذنا آثار هذه الغاية سلفا في الحساب ، هو تأمين حرية أكبر بكثير للفرد ؟ ان معضلة الترافق والترابط بين الوسائل والغايات موجودة فعلا عند ماكيافل ؛ يمكن ان تناقش ، تحت سماوات أخرى ، في سياقات لا صلة لها بماكيافل ، كميراث من عصر النهضة . ان دراسة ماكيافل ، مشفوعة باحتقار صادق للماكيافيلية ، تقود لا الى تقليد الوصفات الماكيافيلية بل الى موقف مضاد . وهذا العكس، هذه المحاكمة المعاكسة التي ما كان يمكن تصورها لو لم يكن ماكيافل، قد شرحها الحقوقي الليبرالي الكبير أنسيلم فويرباخ Anselm Feuerbach بروح الثورة الفرنسية ، فهو يعرف في مؤلفه « ضد ــ هوبز » (« Anti - Hobbes » ، ١٧٩٨) التي كان من الافضل أن يدعى « ضد ــ ماكيافل » ، بلهجة نادرة في المانيا ، حدود سلطة الدولة وحق المقاومة . في هذا المؤلف ، يعلن أن الفوضى الناجمة عن هذه المقاومة ــ التي هي بالنسبة له مقاومة « سلبية » غير فاعلة ــ لافضل وأكثر تحملا من الاستبداد . في مؤلفه « نقد الحق الطبيعي » (١٧٩٦) ، يعرف ــ بجرأة لم تعرف الى هذا اليوم ولم توضع موضع التطبيق في يوم من الايام ــ الحق كجمع لحقوق وليس لتحريمات . اذا لقد أعطت سيادة الأمير أفضل اطار لضدها ، **سيادة الشعب** .

ان قواعد السلوك المقترحة على الأمير ترتكز بشكل حصري تقريبا على الخبرية وتعلم أسلوب اقتناص الفرصة من أجل تأسيس الحق على النجاح . ان فكرة « الحكومة » (« Herrschaft » ، « السيادة ») لم يصرح بها الا بعد ماكيافل بقليل ، على يد **جان بودان** Bodin (١٥٣٠ ــ ١٥٩٦) الذي يعين لها **العقل** كمنبع . مؤلفاته الرئيسية هي : « طريقة لتسهيل معرفة التاريخ » ١٥٦٦ ، « الكتب الست عن الجمهورية » ١٥٧٧ ، « كولوكيوم سباعي عن الأسرار الخفية ، ١٥٨٨ . الفقه يجب أن يتأسس على التاريخ والاتنوغرافيا ؛ بودان هنا سلف لـ مونتسكيو Montesquieu ، انه يبشر بنظرية البيئة واضعا التشديد ، في منظور رجعي ، على الظروف . القسم الاكثر فعالية في مذهبه كان نظريته عن السيادة ، التي تستأنف فكرة الحق الطبيعي ــ وان مع حرمانها من نصلها الثوري . الشعب ، الحر والمتوحش في البداية ، رضخ ، أو بشكل أصح وأدق ، الدولة تمثل على نحو يمكن معه الاعتقاد بأن الشعب يعتبرها بملء حريته سيده . في الواقع ، الدولة تعبر عن ارادة العائلات الغنية ــ بما فيها العائلات الأرستقراطية ــ تجاه الجمهور الذي لا راي له . ان تنفيذ هذه الارادة لم يسلم لهذه العائلات البلوتوقراطية القديمة أو الحديثة العهد ــ بل سلم لـ مونارك (رئيس واحد ، عاهل ، ملك) . فهو وحده له حق اصدار قوانين بدون ان يكون هو نفسه خاضعا لهذه القوانين ؛ ذلكم هو تعريف السيادة souveraineté ؛ المونارك monarque محاط بمكان فارغ

فيه يتوقف كل قانون ، وليس له أن يقدم حسابات لأحد ؛ اذ أن القانون لا يمكن أن ينطبق على أصل ومنبع كل القوانين . تلك ايديولوجية تأسيس شرعيـة الحكم المطلق تحت شكلين كانا موجودين أصلا في زمن روما القديمـة ، مـع القيصريـة césarisme ، وبقيا بعد زمنهما في البونابارتية ، وان في سياق اجتماعي مختلف تماما . أولا : « الأمير لا يخضع للقوانين » ؛ ثانيا : « السلطة autorité تصنـع القانون » . هاتان الاطروحتان تستأنفان الاسمانيـة السياسية للعصر الوسيـط الآخذ في الانتهاء، وهي الاسمانية التي دافع عنها غيوم أوكام Guillaume d'Occam في بلاط لويس الخامس ملك بافاريا ، امبراطور الغرب ، ضد الكنيسة . يجب أن نتذكر في هذا السياق أيضا دنس سكوت Duns Scot ، سلف أوكام ، ومذهبـه عن أولية الارادة على الفهم بالله ، في البشر وسيكولوجيتهم . دنس سكـوت لا يؤيد ، كما يفعل توما الأكويني ، خيرا بذاته ، بل يؤمن ويجاهر بمؤسسه الخير ، أي يعارض الـ « perseitas boni »(«الخير بذاته») بالـ « bonum ex institutione » (« الخير من التأسيس أو المؤسسة ») . لو أن الله قال لموسى على جبل سيناء : اقتل ، أزن ، اكذب ، اسرق ، لكان ذلك هو القانون ، يؤكد غيوم أوكام . الحـق لا يمكن استنتاجه من محاكمة ، يجـب أن يقبـل بوصفـه حقيقـة واقعـة : « regis voluntas suprema lex » ، ارادة الملـك هـي القانـون الأسمى . وبالتالي : « السلطة لا العقل تصنع القانون » . عنـد بودان ، الاسمانية تضطلـع بوظيفة جديدة ؛ تطبق على نظام الحكم المطلق الناشىء ــ خاصة في فرنسا . بعض التطبيقات التي تبدو لنا حمقاء كانت آنذاك تعبيرا عن ضرورة اجتماعيـة ، ضرورة كبح الاقطاعية وتأسيس البرجوازية .

والحال ، ان منظر السيادة المطلقة ، الذي يمكن اعتباره ايديولوجي الحـكم المطلق ، يشترط في مؤلفه المثير للاهتمام « كولوكيوم بـين سبعة أشخاص عـن الأسرار المخفية » ــ وهو عنوان ساخر ــ ، اللامبالاة حيال الخصوصيات الثقافية للأديان ؛ حسب بودان ، الحكم المطلق « يجب أن لا يكون له آلهة أخرى » ؛ هنـا تلوح ولايته الاجتماعية . يجب أن يكف الدين عن كونه شأنا من شؤون الدولـة ، يجب ان يجعل شأنا خاصا : هكذا يوضع تسامح ديني مثـير للفضول في خدمـة سلطة للدولة غير محدودة . بودان يتجاوز في محادثته بين ممثلي مختلف الأديـان قصة ليسنغ Lessing الرمزية عـن الحلقـات الثـلاث ؛ اذ أن ناتـان Nathan يفكر أن احدى الحلقات أصلية صحيحة ، في حين أن بودان يبدو غير معلـق أيـة أهمية على التفتيش عن الأصيل ؛ في نظره ، كل المحـاورة ما هي الا مناقشـات عقيمة بين رهبان وحاخامات ومشايخ ؛ « عقل الدولـة » يشترط أن لا ترتبـط الدولة بأي دين أو ملة (٦) .

لنختصر : في نظر بودان ، الحق يتأسس ــ بخلاف الحـق الطبيعي ورغـم أنف جميع الاسنادات الى العقد الاجتماعي والى العقل ــ جوهريا على السيادة . الحق بالنسبة له (كما في أمس قريب ، بمعنى جد مختلف ، بالنسبة لـ كامبانلا) هو حصرا « norma agendi » وليس « facultas agendi » . الثاني هو حـق

الأضراب ، التنظيم ، المشاركة في التسيير ، الخ ؛ الاول هو الحق الذي يحظر ، الذي يعين حدودا للفعل (٧) ؛ الملك السيد لا يعرف سوى هذا الاول : « ما من قانون مقدس الى درجة تحول دون امكان تغييره تحت ارغام الضرورة » ، يؤكد بودان . هذه الصيغة ذات مظهر برجوازي ، ويمكن أن تكون برجوازية لو لم يكن منبع الحق (الحقوق) هو الاستبدادية ، لو كانت الضرورة التي باسمها يجب تغيير القانون آتية من تحت ولم تكن متوقفة على قرار من فوق . الا ان قلب حدود هذه الاطروحة قد سهله مفهوم السيادة الذي انضجه بودان ، وعلى هذا الاساس يستحق بودان شكرنا ، اذ انه أتاح الاستعاضة فيما بعد عن السيادة المطلقة لارادة الأمير بـ **سيادة الشعب** الاكثر اطلاقية بكثير .

بعد أن فحصنا السيادة السلطوية لـ بودان والسيادة الموضوعة في خدمة سياسة قوة لـ ماكيافل، سنتناول الآن، منظري **الحق الطبيعي** . هكذا تعود وتنغلق الدائرة التي ، وقد ذهبت من ألتوسيوس ، رائد التصور الحديث للأصل الطبيعي للحق ، تنتهي الى المبدع الحقيقي لما دعي فيما بعد الحق الطبيعي (الحقوق الطبيعية) ، **هوغو دو غروت** Hugo de Groot أو غروتيوس Grotius (١٥٨٣ – ١٦٤٥) . كل هذا الذي يتبع لم يعد ، من وجهة التاريخ الزمني ، جزءا من فلسفة عصر النهضة ، لكن نفس حركة النهضة ما زال يحيي المفكرين لمدة طويلة . غروتيوس عاش في هولنده ، كان زعيم حزب جمهوري وان أرستقراطي ، وهي حالة يعكسها حقه الطبيعي . انه مؤلف كتاب شهير يحمل عنوان « حق الحرب والسلم » («De jure belliet pacis » ، ١٦٢٥ . لفي هذا الكتاب تظهر لاول مرة الفكرة الأساسية ، فكرة حق كلي (قانون كوني) يلزم الدول أيضا . لكن الامر الاكثر وزنا على مجرى الاحداث التالية كان لا ريب واقع أن غروتيوس يسترجع ويجدد مذهب ألتوسيوس عن العقد الاجتماعي المعتبر أساس حق الشعوب ؛ هذا المذهب الذي ينطلق من فكرة نقل أصلي للحقوق الفردية الى مجتمع منظم قد فعل على الثورة الفرنسية بقناة «العقد الاجتماعي» لـ جان – جاك روسو. غروتيوس يؤكد أن الدولة لها كمهمة ان تلبي على نحو منظم نبضات الانسان الاجتماعية – المعتبرة نافعة وخيرة – ، أي الـ « appetitus socialis » ، « الاشتهاء الاجتماعي . فالحق الطبيعي يقدم اذا مرة أخرى بوصفه مذهب حقوق البشر التي لا تنخلع ، الحقوق التي أؤتمنت الدولة عليها . الحق الحقيقي ينبع من نية المتعاقدين ، اذن الأفراد والذين كلفوا من قبل الافراد باقامة مجتمع منظم . فماذا كانت ارادة المتعاقدين ، يسأل غروتيوس ، هذه الارادة التي ثبتها ودونها العقد ؟ باجابته عن هذا السؤال ، يعتقد غروتيوس بامكانه تعريف الحق الأصيل والاصلي ، الذي يمكن أن يكون بعيدا بشكل مرموق عن الحق المكتوب ، عن الحق الساري المفعول في كذا مكان وكذا عصر . الحق الاصلي ينبع من نوايا بشر ما – قبل – التاريخ الذين عقدوا العقد لاجتماعي الخالق للدولة . غروتيوس ، ممثل

الأرستقراطية ، بتدارك خطر اي ثورة بحفظه حق طلب احترام ارادة المتعاقدين لا للشعب ، بل ، اذا مثلت الحالة ، لممثليه من أجسام أو هيئات حرف . اذا أغفلنا هذا التحفظ الأرستقراطي ـ الذي ليس على أي حال نيو ـ اقطاعيا ناهيك عن أن يكون مونارشيا ـ فان نظرية العقد الاجتماعي كما يعرضها غروتيوس تنطوي على حجج لصالح الثورة الانكليزية والثورة الفرنسية . اذ أن فكرة « العقد » تتضمن حق الابطال اذا لم يحترم الشريك شروط العقد . اذا لم تتوافق السلطة مع بنود العقد المعقود في الأزمنة الاولى للبشرية ، فلا يبقى البشر ملزمين به .

لنحفظ من مذهب العقد الاجتماعي لـ غروتيوس نقطة ذات أهمية خاصة : الدفعة الاساسية لا تنتمي للميدان التاريخي ، بل لنبضة وهمية فسحت المجال لـ « عقد » غير تاريخي ووهمي أو تخيلي بنفس المقدار ، نبضة نافعة يدعوها غروتيوس « الاشتهاء الاجتماعي » . لذا فان هذه النبضة الخيرة التي تطمح الى تعايش مشتركي سلمي ، التي ترمي ليس فقط الى اشتراك منفعي بل الى رفاه الجميع ، تدخل حرارة انسانية ما ، جوا من تعاطف متبادل في نموذج الدولة التي يحق للانسان أن يرتجيه . سوف نرى أن هذا الموديل يخضع لتحويلات هامة عند منظر آخر للحق الطبيعي ، هو هوبز Hobbes ، الذي ليس العقد في نظره عقد تحالف بل عقد خضوع مطلق جعلته ضروريا طبيعة الانسان الفاسدة . ان مفهوم الدولة عند هوبز أكثر صرامة وعلى الأرجح أكثر واقعية أيضا منه عند غروتيوس ، الذي لا يقيم حسابا لانانية البشر ولا لعدوانيتهم . الهولندي يجهل هذه وتلك ، بل لا يسجلهما كمعطيات سرمدية ؛ سرمدية في نظره مسلمة الحق الطبيعي فقط ؛ غروتيوس هكذا يضع في محل مفهوم الدولةالصارم فكرة أكثر عدلا هي مفهوم « الشيء العام » (« chose publique ») من أجل رفاه الجميع « khoionia » الرواقين) (٨) .

١٠ توماس هوبز

لنرجع الى التيار الذي يسير في خط نظريات « العقد الاجتماعي » المختلفة ويفضي الى ظفر الميكانوية العقلانية . توماس هوبز (١٥٨٨ ـ ١٦٧٩) يندرج في هذا الخط وينميه على صعيد فلسفة الحق والفلسفة الطبيعانية سواء بسواء (حسب قول لـ كارل ماركس : « بقوة العقل الشرسة ») ، في كتاباته المختلفة ، واهمها : « عناصر القانون الطبيعي والسياسي » ١٦٣٩ ، « لوياثان او مادة وشكل وسلطة الحكومة » ١٦٥١ (لوياثان هو اسم الحوت في سفر أيوب ، هذا «الحوت» غول يمثل ، في كتاب هوبز ، الدولة) ، والبحث المنهجي الذي حرره في نهاية حياته الأدبية ، « عناصر الفلسفة » ، ١٦٦٨ ، في ثلاثة أجزاء ، هي « الجسم » ، « الانسان » ، « المواطن » (« De cive ») . حياته تمتد من عصر النهضة ـ كان عمره اثنتي‌عشرة سنة حين سلم جوردانو برونو للحرق ـ حتى مولد فولتير ، أو تقريبا (١٦٩٤) . هوبز من حيثيات عديدة على طرفي نقيض مع فكر جوردانو برونو ، لكنه يشاركه مع ذلك في تعلقه بمحايثة (immanence) العالم . ان ما يصنع أصالته هو المنطق الجريء الذي يشيد به قبل سواه منظومة متلاحمة على أساس المادية الميكانوية . جرت العادة على تخصيص تسمية « مادية ميكانوية » للمادية الفرنسية في القرن الثامن عشر . هذا مبرر بالقدر الذي فيه يقصدون الفعالية السياسية ، النشر الواسع للأفكار المادية ؛ لكن بعث المادية ، منذ ديموقريط ، بوصفها منظومة مغلقة ، مرده الى توماس هوبز .

قبل تناول مذهب الفيلسوف أو عقيدته ذاتها ، اريد اعطاء مختصر سريع لمؤلفات فكره الاساسية الثلاث . اولا : كل فكر هو **انتاج** يوازي ، بدافعه ، الانتاج المانيفاكتوري الذي تقع بداياته في عصر هوبز . موديله هو الانتاج الرياضي ، البناء بمساعدة المسطرة والفرجار . غني عن القول ان دافع الانتاج تابع للمنتج ، للصانع . ثانيا : المؤلفة الثانية لفكر هوبز هي **الرياضة** la mathématique ، وهذا يميزه بوضوح بالغ عن بيكن الذي لم يكن يقيم لها حسابا . الرياضة هي العلم الأساسي ، الذي يمثله الحساب . ان وجود سوق مفتوحة وقليلة الشفافية يتطلب حسابات، حسابات للربعية يمكن الاستغناء عنها في منظومة اقتصادية مغلقة ، ذات أسواق مغلقة ، ذات مبيعات مضمونة . فالرياضة اذا كانت تفرض نفسها بوصفها علم

حساب حركة البضائع والأجسام عموما . ثالثا : المؤلفة الثالثة هي **العقلانية** المستنتجة من المبدأ الذي لم ينحصر في ميدان المثالية وحدها ، الا وهو مبدأ أن كل معرفة هي انتاج لا « اعادة انتاج » أو نسخ . تلك عقلانية العقل الخالص التي لا تترك أي مكان لمحتويات متعالية دينية . كلمة « ratio » (عقل) قطعت كل روابطها مع كلمة « esprit » (روح) ، وبالتالي مع كلمة « logos » (« لوغوس ») . « لوغوس » انجيل يوحنا ، « لوغوس » فيلون ، « لوغوس » الغنوص ، تعطي كلمة « روح » معنى لاهوتيا (١) . فيما بعد ، عند هيغل ، ال ratio (عقل) البرجوازية تتحد من جديد مع « روح » فيلون ويوحنا ، من جراء أن الفيلسوف يميز بين الفهم (الذكاء) الخبري المجرد والعقل العياني بوصفه روح العالم . « عقل » هوبز ، منبع الانتاج الرياضي الذي يخدم تفسير **حركة الاجسام** ، هو هذا فقط ولا شيء سواه . رغم أن هذه الحركة هي في كل مكان وجوهريا كمية ، فانه يوجد منها أنواع مختلفة ما دامت هناك أنواع من الاجسام مختلفة ، الا وهي : الأجسام الهندسية ، والفيزيقية ، والسيكولوجية (المقصود : الهيجانات) فينا ، والمواطنون بوصفهم أجسام المجتمع الفردية . بما أن كل نظرية هي نظرية أجسام ، فالفلسفة ما هي سوى نظرية حركة الاجسام ، بما فيها « المواطن » .

الفكـر انتـاج

لنفحص محتوى مذهب هوبز . أكرر : هوبز هو أول مفكر يضع الانتاج ، الصنع ، في مركز تأمله . نعيش هنا اللحظة التاريخية التي ابتداء منها هذا الذي كان المجتمع الأرستقراطي قد لفظه على الدوام ، الا وهو الشغل ، الصنع ، العمل، الانتاج ، يكف عن كونه أجمل زهرة للبرجوازي ويصير بين يدي المفكر أداة تقييم العالم . هكذا تتوقف لبعض الوقت الرؤية الافلاطونية التي تسمح بتمييز الافكار (المثل) لكن ليس **بانتاجها** . الصنع ممثلن الى حد أن هوبز استطاع أن يصوغ أطروحة ثقيلة بالعواقب وجرى تأويلها ، على صعيد نظرية المعرفة ، في اتجاه مثالي محض : ليس بامكاننا معرفة موضوع ما الا بالقدر الذي فيه نحن أنتجناه بأنفسنا . بما أننا أنتجنا كل الموضوعات الرياضية ، فبوسعنا معرفتها حتى النهاية؛ ولذا فالرياضة هي على سبيل الامتياز أداة كل تقييم للعالم بوصفه طبيعة . فيما بعد ، **جانبانيستا فيكو** Vico (١٦٦٨ — ١٧٤٤) ، وهو أول من قام ، في فجر العصر الحديث ، بانضاج فلسفة التاريخ ، على نحو واع ، لاحظ أن هذا «الانتاج» لا يمكن تطبيقه على العالم بوصفه طبيعة اذ أن البشر لم يصنعوا الطبيعة بل التاريخ . ماركس من جهته يشدد — ذاكرا فيكو (**رأس المال** ، ١ ، الفصل ١٣) — على أن معرفة التاريخ أسهل من معرفة الطبيعة ، « **اذ أن تاريخ البشر يتميز عن تاريخ الطبيعة في كوننا صنعنا الاول لكننا لم نصنع الثاني** » . **المبدأ الهوبزي** للانتاج قد مثلن أكثر فأكثر ، وانتهى الى الدخول في نظرية المعرفة لـ كنط ، الذي ينقل بالنص جملة هوبز المذكورة آنفا ، معطيا اياها قيمة خط سلوك . عند هوبز ،

ليس له بعد هذا الطابع المثالي ، فالذي يهم في الرياضيات ليس الفاعل الذي ينتج بل الكمي المستهدف موضوعيا. الرياضة لم تكن بعد ، في زمن هوبز، علما للعلاقات بل كانت علما للمقادير ؛ الكمي اذا هو الذي كان يهم ، كل معرفة كانت مصوبة حصرا الى موضوعات كمية و ـ هنا يظهر فكر "ديموقريط ـ الى علاقات وحركات للاجسام بوصفها كوانتا quanta . الكوانتا هي الأجسام الهندسية ، الدائرة ، السطح ، لكن أيضا المضلع والاشكال المجسادية (stéréométriques ؟ الصلبة ـ القياسية) التي تدعى بحق « أجساما » . انها نوعا ما مملوءة بالمادة التي كانت هذه الاجسام انعكاساتها الغامضة . ان موضوعية الطابع الكوانتي عند هوبز لا يمكن أن تدرك وتمسك الا بفكر كمي ميكانوي . بهذا المعنى ، كان يمكن أن يؤيد تأكيد كنط الذي يقول انه لا يوجد من العلم في كل علم الا بقدر ما يوجد فيه من الرياضيات ، التي هي فضلا عن ذلك كمية .

نظرية الحركة والتعريف التوليدي

لنعد الى ابسط « جسيمات » الحركة ، الى « عناصر الحركة » ، وهنا نستخدم مصطلحات غاليله : هذه « العناصر » هي اسباب . ومفاعيل الاسباب هي مرة اخرى الحركات . عند هوبز ، الاسباب لها ـ بتناقض منطقي غريب ـ سبب اخير ، الله الخالق . مرة اخرى : فلسفة هوبز جوهريا نظرية اجسام ؛ لذا فهو يقلص ، بوصفه ماديا ، مدى « زلته بالله » (« lapsus Dei ») باسناد على المحايث الكمي : « الميدان الروحي يجب ان يترك للوحي ، ما لم يكن الله ذاته له جسم » . ذاهبا من الحركة ، التي هي عنصر جوهري في نظريته للاجسام ، يدخل هوبز تجديدا لا يستبعد الروح الازلي لعالم ـ اعلى وحسب بل يضرب ايضا بالمدفع ستاتيكية مفاهيم عالمنا الخبري ، وذلك في ميدان يتجاوز الرياضيات ويندرج في خط المنطق الصوري : قصدنا التمييز البالغ الاهمية بين تعريف وصفي وتعريف توليدي .

في **التعريف الوصفي** ، الوحيد المعروف في زمن هوبز ، كان المفهوم (الفكرة) ينسب الى « الجنس الاقرب » ، الى « الجنس » الاعلى ؛ ثم يشار الى « الفرق النوعي » الذي يحدد خصوصية الموضوع المعني بالمفهوم او الفكرة المطلوب تعريفها. تلك طريقة ستاتيكية لصوغ تعريفات . هوبز ، الذي يعي اهمية الانتاج ، يضع باسم العلم مسلمة **التعريف التوليدي** . هكذا ، فالتعريف الوصفي للدائرة يقال على النحو الآتي : الدائرة شكل مستو خط حده له في كل الاماكن نفس البعد عن مركزه . ذلك تعريف لا غبار عليه ، لكن التعريف التوليدي يريد الذهاب الى ابعد. في مثالنا، انه ينفصح كما يلي : الدائرة شكل مستو ينتجه دوران خط حول احد طرفيه . كلما عمدنا الى فك بنية صلبة ، كلما اضيء سر ظاهرة من الظاهرات بولادتها وتكونها ، نكون لبينا مطلب هوبز لتعريف توليدي ، وهذه ملاحظة تنطبق

ايضا على التعريف الاعظم ، والاثقل بالعواقب ، التعريف الذي اقترحه ماركس للسلعة . يدرك القارىء كل الاهمية التي كانت وما زالت في ايامنا ، رغم ظلال المثالية ، لادخال فكرة الحركة في طرائقنا في المعرفة . بل اننا نلاحظ ان الدوافع الديناميكية الكونية في فلسفته الطبيعة تهدم احيانا الدوافع الميكانيكية الرتيبة عند هوبز وتجعل لا مفر من اتخاذ ترتيبات جدلية . وهذا رغم انف مبدأ «السبب يعادل الاثر» وعكسه الذي يؤدي الى تحولات في الكيف اقل ايضا : « الاثر يعادل السبب » ؛ وايضا رغم انف الرفض التام لكل غائية ، لا سيما في شكل اسباب مجعولة غايات (« Iweckursachen » ، اسباب غايات) . هكذا نجد عند هوبز جملة جدلية تكاد تعطي انطباعا بأنها الترجمة اللاتينية لجملة معروفة لـ انجلز . ففي حديثه عن الحركة ، يؤكد هوبز انها « Unius Loci privatio et alterius acquisitio » « وحدة ترك مكان واحراز مكان آخـر » : « privatio » و « acquisitio » ، الحرمان والاكتساب الترك والاخذ ، يشكلان اذا وحدة . حسب انجلز ، الحركة جدلية اذ ان الجسم هو (كائن) في محل وبالوقت نفسه ليس فيه ، ذلكم هو التناقض الجدلي لفكرة الحركة . ان صيغة « بالوقت نفسه» هي التي تحوي ، ايضا عند انجلز ، اسئلة وفروقا دقيقة . فقط حين تترجم حركة جسم عن حضورها « بالوقت نفسه » في عدة اماكن تكون حركته جدلية بمعنى الكلمة الحصري ؛ الصعوبات التي تظهر في هذا المستوى جديرة بأن تؤخذ بعين الاعتبار ، وان كان العقل البشري السليم ، وفي قضيتنا هـذه المبتذل ، المجمد في سكونه الستاتيكي ، يجهلها (٢) .

الانسان ذئب للانسان والعقد الاجتماعي الذي يناسبه على النحو الافضل

الغائية التي ينفيها هوبز داخل الطبيعة تتظاهر كقوة مشكلة للدولة فـي عناصرها ــ في ــ الحركة التي لها اسم « افراد » ، انها ترمي الى انقاذ « الانسان ــ الذئب ــ للانسان » بهذا الاحراز الذي ندعوه « العقد الاجتماعي للافراد » ، العقد الذي ليس كعقد غروتيوس اتفاقا بسيطا او تفاهما عاديا ، بل هو خضوع خلاصي للذئاب الافراد ، مع الهدف الواقعي تماما ، هدف ان لا يضطروا الـى البقاء بعضهم لبعض ذئابا بدائية وعاجزة . ــ من المهم ان نتذكر في هذا السياق انتروبولوجيا هوبز المؤسسة على غريزة البقاء واحساسات اللذة والانزعـاج ؛ هذه الاحساسات لها كنتيجة ان البشر يبحثون ، اطاعة منهم لغريزة بقائهـم ، عن الذي يسبب لهم لذة ، ويهربون من الذي يسبب لهم انزعاجا . التقريـــر الصارم لغريزة البقاء يتظاهر بشكل خاص في السياسة المفهومة بوصفهـا علما عقليا ، بوصفها نظرية الحركة المنظمة لعدد كبير من الافراد المدفوعين بمصالحهم ، كما يشرح هوبز بدون اثر من مثالية . تلك هي نقطة انطلاق نظريته عـن العقـد الاجتماعي ، اي حقه الطبيعي .

حقه الطبيعي ، مع بقائه في خط او اثر التوسيوس وغروتيوس ، يتميز عنهما جوهريا بواقعيته . الغريزة الاساسية التي تحرك وتحيي الاجسام البشرية المشتركة في الجماعة ليست « الاشتهاء الاجتماعي » ، بل هي انانية بغير مراعاة ؛ « الانسان ذئب للانسان » (« homo homini lupus») : هذه الصيغة الشهيرة والتي ينظر اليها المثاليون نظرة سيئة هي من هوبز . المجتمع الاول ليس مدفوعا بالغريزة الاجتماعية ، بل هو مقحم في « حرب الجميع ضد الجميع » ؛ وهذه هي النار الراقدة تحت الرماد في كل المجتمعات ، « الحالة الطبيعية » التي تهدد في كل لحظة بأن تستيقظ وتغلب . هوبز اذا يدير ظهره لموقف الثقة وحب الانسان عند الهولندي غروتيوس . لقد بدأت صراعات طبقات ؛ هولندة عرفت بعض لهب منها ، لكنه لا يقارن بالانفجارات الانكليزية . نلاحظ ان اهوال المجتمع الرأسمالي باعتباره مجتمع المزاحمة الحرة قد لمحت او استشفت حتى قبل القيام الحقيقي للمجتمع المذكور . هوبز ينقله ان صح القول الى ما ـ قبل ـ التاريخ . « الانسان ذئب للانسان » ، هو البغض ، قانون الاقوى ، سحق الاضعف وهي امور كان الرأسمال المرابي وحده يستطيع تحقيقها حتى ذلك الحين . المجتمع البدائي هو مجتمع ذئاب ، الذئاب تتشارك ، حسب هوبز ، كي تضع نفسها في مأمن من شر بعضها لبعض ، تاركة ذئبا واحدا فقط مكلفا بالدفاع عن المجتمع ـ الذي هدفه الوحيد صون ذاته ـ ضد مشاريع عناصر عدوانية بلا تغير . لسنا اذا امام تشارك او اجتماع حر كما في الحق الطبيعي الليبرالي ، بل امام خضوع لـ « وحش يحمي » نال اسم « monarque » (رئيس واحد ، عاهل ، ملك) ـ لكنه بالتأكيد ليس ملكا بحق الهي . هذا الذئب ليس البتة مربوطا بـ « العقد الاجتماعي » ، لقد سمح له بأن يبقى ذئبا يستطيع العض والضرب بمساعدة ترتيبات جزائية ، سجون ومشانق ، على اولئك الذين يتعدون على الآخرين ، سامحين لانفسهم بأن يكونوا ما له هو وحده الحق في ان يكونه . المونارك ، العاهل ، ذئب الذئاب ، هو « خارج القانون » (« ex lex ») : ذلك شيء فظيع اذ هو ايديولوجيا الحكم المطلق ، النظام المطلقي المطلق بغير حدود . « السوبر ذئب » (الذئب ـ الاعلى) لا يقدم حسابات ، ما يقوله لا يمكن ان يوضع موضع سؤال ثانية ، فـ « السلطة تصنع القانون » ، يؤكد هوبز في خط دنس سكوت وتقليد انكليزي قديم . انها اولية الارادة على العقل ، انها السلطة لا العقل صانعة القانون . الى هذا الـ توماس هوبز نفسه قدم الجمهوري الكبير وجلاد الملوك كرومويل Cromwell في حكومته منصب سكرتير للدولة . ومتكلما عن هذا الـ توماس هوبز نفسه قال ملك انكليزي في وقت لاحق انه لا يعرف اي نص « كافر وغدار » مثل « لوياثان » و « المواطن » لـ توماس هوبز .

والمونارك ؟ المونارك ليس بالضرورة شخصا . يمكن ان يكون هو الدولة ، اذن جمهورية ؛ كانت الجمهوريات تقول عن نفسها آنذاك انها هي ايضا « من حق الهي » او على الاقل بـ « عناية الهية » . ازدواجية هذا المفهوم ، التباسه جد انكليزي . المونارشية وقطبها المعارض ، الجمهورية ، مقلصتان الى قاسم مشترك

واحد ، حتى على يد هذا المفكر الجذري . لكن الذي يهم حقا هو ان تقبض جيدا على الفرق بين نظريته في الدولة ونظرية غروتيوس وخلفائه لوك Locke وتوماسيوس Thomasius وروسو Rousseau ، النظرية التي تستحق فعلا ان توصف بأنها « ليبرالية » (مؤيدة للحرية) . عند هوبز نجد الرجعية والتقدم، ايديولوجيا البرجوازية الصاعدة ، سلطة الدولة التي لا ترحم والتي لا جدوى في مقاومتها ، ما لم يجد الذئب نفسه مجابها بذئاب اقوى منه . ثمة عند هوبز التباس آخر حين يتحدث عن دين الدولة . اكثر ايضا من موقف بيكن ، موقف هوبز تجاه الدين يميز رجل « الانوار » . نعرف هذه الجملة الساخرة لـ هوبز التي تعكس عقلانية على درجة خاصة من النشاف : « الاسرار الدينية تشبه اقراص الصيدلي ؛ يجب ابتلاعها كاملة بدون تفتيتها بالاسنان » . عند هوبز ، لا يوجد تعال ؛ ساعة العالم الضخمة تعمل بلا خالق ، بلا عناية ، بلا اله ؛ هم نافلون . العلوم الطبيعية تنفض يدها تماما من الدين ، لكن مذهب الدولة ــ يشرح هوبز ــ يضع للدولة مسلمة دين للدولة قادر على مساندة عمل « الذئب المركزي» باشاعته الخوف من قوى غير مرئية ، حتى اذا كانت غير موجودة . الدولة بحاجة الى ارهابات الدينونة الاخيرة اذا انكشفت المشنقة عن كونها غير كافية لتقمع في الانسان طبيعته الذئبية . كل هذه الخيالات الخارقة للطبيعة تصادقها وتؤيدها الدولة ، انها ، على حد قول هوبز ، « قوى نالت القبول » (« potentiae acceptae ») اذا كانت الدولة تؤيدها فهي تكون ميدان الدين ، اذا كانت الدولة لا تؤيدها فهي تسقط الى مستوى التطير الباطل ، الدولة سوف تتصرف بها وفق حاجاتها . واقع ان هوبز يعين للدين هذا الدور محض السياسي والنفعي، انه يعتبره باطلا وتطيرا ما ان ينقطع عن الاضطلاع بهذه الوظيفة ، يدلل على غياب كل تعال عند هوبز ، المندار حصرا ، في وفاق كامل مع روح عصر النهضة ، نحو امور هذا العالم .

تأثير على ماندفيل وآدم سميث ، خسارة وتقدم

لنر امتدادات هذه الافكار : صيغة « الانسان ذئب للانسان » طبعت لاول مرة « النظمة الانانية (« selfish system ») ، كما دعيت اعتبارا من القرن الثامن عشر النظمة التي عليها ترتكز الحياة الاجتماعية والاقتصادية الرأسمالية . الفكرة اصبحت مدرسة ، على نمط كلبي تقريبا عند ماندفيل Mandeville (١٦٧٠ ــ ١٧٣٣) ، وهو فرنسي ولد ومات في انكلترة ؛ وفي منظور متفائل عند الاقتصادي الكبير آدم سميث ، خالق الاقتصاد السياسي البرجوازي . ماندفيل ، متأثرا بـ هوبز ، كتب مؤلفا عجيبا درسه ماركس بعناية . المؤلف المنشور في ١٧١٤ يحمل عنوان « حكاية النحل او رذائل الفرد تفيد الصالح العام » (بالانكليزية) . ماندفيل يشرح بواسطة حكاية ان الانانية وحدها تؤمن

تلاحم المنحلة . لحظة ظهور نحلات وقورة وشريفة ، تتوقف حياة المنحلة ، ويحدث الانهيار ! ذلكم اذا بيت القصيد : يكفي ان يجتمع اوغاد وان يشرعوا في العمل معا حتى يظهر ضرب من دولة حق وقانون .

نجد اللحن نفسه ـ مجردا من مناغماته الساخرة ـ ، لكن مقدما على نحو اكثر ثقة ، ممزوجا ببعض افكار لايبنتس عن التناسق المسبق ، في المؤلف الشهير لـ آدم سميث Adam Smith ، « تحقيق عن طبيعة واسباب ثروة الامم » ، ١٧٧٦ . المستهلكون يجنون كسبا ، بفضل قانون المزاحمة الحرة وقانون العرض والطلب ، من كون الافراد لا يفكرون الا بجني ارباح وتأمين مزايا لانفسهم . بما ان كل واحد يريد التفوق على الآخر ، وبما انه لا يستطيع ان يحقق ربحا الا بصنعه سلع افضل ، لذا فالمستهلك يجد بتصرفه عروضا اكثر ملاءمة . ذلك هو القانون الطبيعي لآلية العرض والطلب الذي يؤدي الى ضرب من مغايرة ـ في ـ تولـد الغايات ؛ بمفردات اخرى ، نرى ظهور نتائج لم نتوقعها بتاتا في ملاحقتنا لاهدافنا الخاصة ذاتها . ان غائية جديدة تتشكل ، غائية لم تكن ذات يوم في نوايا نمط الانتاج الراسمالي الفردي ، الا وهي تلبية الحاجات الى الحد الاقصى .

في زمن الراسمالية الصاعدة ، كانت الظواهر تناضل بقدر ما في صالـح منظور كهذا ، « تقدمي بشكل مشؤوم » حسب صيغة لـ لوكاكش ؛ على الصعيد الذاتي ، لم يكن آدم سميث ولا ريب ايديولوجيا يريد القاء الغبار على العيون ، كان في اقصى احتمال وعيا مضللا . آطروحته عن الاثر الخير للانانيات الفردية لا تعيش بعد زمنها في الراسمالية الغربية الا في شكل اظلام وتعتيم . مـا كـان يكون في وسع سميث ان يسجل او يوثق الانانيات الخاصة بهـذه الموضوعيـة الباردة لو لم يكن هوبز اقام الدليل الذي لا يدحض على ان طبيعة الانسان الحقيقية هي طبيعة ذئب تتفتح وتقترف اسوأ تجاوزاتها في الراسمالية . لكـن مكافـأة العدوانية ليست مؤسسة ازلية ، ولا المجتمع المنقسم الى طبقات التي هي قرص حلواه بالكريما ؛ هنا ايضا يتدخل الجدل الذي يجهله هوبز . ان شطرا كبيرا من علاقات الكيف مع الطبيعة ، العلاقات التي ادخلها برونو واكثر ايضا باراسلس في فلسفة عصر النهضة والتي يناشدها بكل تلك القوة مونولوج فاوست ، قـد اختفى عند هوبز ؛ لكنه الح بشراسة على محايثة هذه الفلسفة ، طرد منها رائحة البخور ، نزع اقنعة السلطة . كذلك فقد استطاع ماركس ان يقول في **العائلـة المقدسة** ، عند ذكره المحايثة الغنية الغزيرة التي تطبع البدايات المادية لفلسفـة حركة النهضة ، ومع بعض الخيبة ، المحايثة التي بردت (« cool reason » « العقل البارد ») ولكن التي ما زالت حية في الحقب التالية : « من بين كل الكيفات الملازمة للمادة ، الحركة هي بلا ريب الكيف الاول والاكثر دلالة ، ليس فقط كحركة ميكانيكية ورياضية ، بل اكثر ايضا كدفع ونبض ، كروح حيـاة ، كدينامية ، كعذاب (« Qual ») المادة ، واستخدم مصطلحا لـ ياكـوب بوهم . الاشكال البدائية عند هؤلاء هي قوى جوهرية ، حية ، مفردنة ، تنتج الفروق النوعية . عند بيكن ، خالقها الاول ، المادية ما زالت تنطوي على نحـو

ساذج على بذور تطور كلي كوني . المادة تبتسم للانسان في بريـق شاعـري وشهواني . بنموها وانبساطها ، المادية تضيق ، تتقلص . هوبز ينظم مادية بيكن، يجعلها منظومة نسقية مغلقة . الحسية تفقد عبقها وتغدو حسية المهندس المجردة. الحركة الفيزيقية يضحى بها لصالح الحركة الميكانيكية او الرياضية ؛ الهندسة تعلن علم العلوم . المادية تتخذ هيئة ميزانتروبيّة (كارهة للبشر) . من اجـل التغلب على الروح الميزانتروبية ، المنزوعة اللحم على ذات أرضها ، على الماديـة ان تميت جسدها وان تجعل نفسها زاهدة . انها تمثل بوصفها كائن عقل ، لكنهـا تنمي ايضا منطق العقل الذي لا يرحم » . من غير الممكن الا نحس بالاسى الخفيف الذي يطبع هذه السطور ، الاسف على تبخر عبير المادية الاولى امام ميكانوية العقل المجردة ؛ لكن نلحظ فيها ايضا اللذة غير المدهشة بتاتا التي يأخذها ماركس في استدعاء منابع ياكوب بوهم ، النظر الى الكيف داخل مادية لم تعد ميكانيكية بل هي جدلية ، ذات غائية كيف ، وميلادها الجديد .

١١ جانباتيستا فيكو

أحب ايضا بشكل مقتضب اعطاء الكلام لفيلسوف ، وان عاش في وقت لاحق ، من ١٦٦٨، الى ١٧٤٤ ، الا ان له موقعه هنا ؛ هو جامباتيستا فيكو Giambattista Vico . في ايطاليا ، حيث عاش ، ما زال نفح النهضة محسوسا: هكذا فهي تنتهي حيث بدات . فيكو تحركه روح برونو ، روح النهضة البطولية ، رغم الزمن المتأخر . انه مشبع بالتاريخ الروماني ، بالوطنيه الرومانية ، بالفكر الكيفي كما انبسط في الفلسفة الطبيعانية لعصر النهضة . كان فيكو رجلا منعزلا، لم يكن نصيبه التجاهل بل الجهل طيلة عقود وتقريبا قرون . عمله الرئيسي « مباديء علم جديد عن الطبيعة المشتركة للشعوب » ، ١٧٢٥ ، لم يحدث اي صدى رغم عنوانه الرنان . « العلم الجديد » يوازي «الاورغانون الجديد» لـ بيكن، مع هذا الفارق وهو ان فيكو لا يستهدف اداة العلم بل محتواه . مؤلف فيكو اثر على هردر Herder ، الذي لا يسميه مع ذلك (١) ، اثر على « فلسفة تاريخ البشرية » لـ هردر وبقناتها على هيغل . ماركس كان قد درسه ، وهو يستشهد به مع التأييد في هامش ، في الجزء الاول من **رأس المال** . النيوهيغلي الليبرالي بندتو كروتشه B. Croce نشر في ١٩١١ في نابولي كتابا عن « فلسفة جانباتيستا فيكو » لفت انتباه العالم الى هذا المفكر . الامر الجوهري في مذهبه يعاد الى هذا : فيكو يؤيد المبدأ الذي صاغه غاليله وهوبز ، والذي بموجبه لا يستطيع الانسان ان يعرف سوى ما انتجه هو بنفسه . لكن ها هو يخرج من هذا المبدأ استنتاجا مذهلا بقدر ما هو معاكس : اذا كان صحيحا ان موضوعا من المواضيع لا يمكن ان يعرف الا بقدر ما نحن انتجناه ، فان الطبيعة لا يمكن ان تعرف (لاننا لم نصنعها نحن) ؛ بالمقابل نستطيع جيدا معرفة التاريخ ، الذي صنعه البشر والذي عومل الى هنا كقريب فقير للآداب ـ الجميلة ؛ العلم التاريخي بالواقع هو العلم الوحيد الصحيح . كان فيكو يعتقد انه متعرف في التاريخ على سيرورة كيفية ، وهذا تصور يحس فيه تأثير الفلسفة الطبيعانية الكيفية ، مثلا فلسفة جوردانو برونو . كفيلسوف للتاريخ ، كان لـ فيكو سلف في شخص العربي **ابن خلدون** ، واصله من تونس (١٣٣٢ ـ ١٤٠٦) ، وهو رجل منعزل مثل

زميله الايطالي كان قد شرع في تحرير تاريخ كوني فلسفي . نجهل ما اذا عرف فيكو هذا المؤلف (٢) .

مع فيكو تعود الى الظهور لاول مرة منذ ((**مدينة الله**)) لاوغسطين ، فلسفة للتاريخ ، بدون تاريخ خلاص ، لكن يساندها تأكيد يطبق على التاريخ بأسره وفحواه ان لا وجود ممكن لجماعة انسانية بدون رابطة الدين . فيكو يتصور التاريخ دراما في عدة فصول : العصر الاول ، المهد البدائي ، هو العصر الثيوقراطي : ما يميزه ليس ((الانسان ذئب للانسان)) ، وليس ((**عقدا اجتماعيا**))، بل حكم الظلام والخوف والاعتقاد السحري . في هذا العصر تشكلت ايضا اللغة، انطلاقا من الفاظ محاكاة ، لغة مشبعة بحكمة شاعرية ؛ اللغة الشعرية سبقت النثر ، مثلما سحر الخصب سبق عقلانية الزراعة وحساب افضل وقت للبذر . ان افكارا مشابهة قد صيغت في وقت لاحق ، على الارجح بدون اية رابطة مع فيكو ، على يد الالماني هامان Haman ، ((العقلاني الساحر)) (((رجل الانوار الساحر))) الذي مارس نفوذا كبيرا على هردر وحركة الـ ((شتورم اوند درانغ)) (((العاصفة والزحف))) . بتعبير آخر : الشعر هو لغة الجنس البشري الاولى؛ طقوس الخصب ، التعاويذ والرقيات ، السحر ، سبقت العقل التقني ، وهذا كله في الضباب المعتم والفائر والمشوش للمجتمع الثيوقراطي البدائي . الامر كذلك بالنسبة للحق (القانون) الذي يحاط ، في الاعراف القديمة التي وصلت الينا ، بهالة من الشعر ؛ الحق العقلاني انضج بعد ذلك بكثير ، في روما . العهد البدائي يعقبه العهد البطولي ، زمن النبلاء ، ارستقراطية هوميروس Homère الهيلينية ، ونقول : الاقطاعية . العصر الاقطاعي يتراجع امام ديموقراطيات الاغريق والرومان الناشئة ، خاصة بفعل الحق الروماني القليل الشاعرية ، الذي في نظره كل المواطنين الرومان متساوون ، المرحلة القديمة والديمقراطية في التاريخ تدفع الى الوراء شيئا فشيئا على يد النيو – بربرية المحيية والخصبة التي تصب على الاقطاعية الوسطوية وعلى العصر البطولي الجديد للحملات الصليبية . في المرحلة الاخيرة ، نشهد مرة اخرى ظهور عناصر متمدنة وعقلية في الدساتير الجمهورية او المونارشية للدول الحديثة ، نقول : لدول البنيةالاجتماعية البرجوازية ثمة اذا في هذه المسيرة للتاريخ تقدم ، يرافقه فقدان الاشخاص البطوليين العظام ومآثرهم العليا ، بينما تسير صعودا حظوظ السعادة للفرد .

هذه الفلسفة للتاريخ في صدر القرن الثامن عشر كانت لا ريب ابداعا غريبا ، ظلت بلا صدى ، لانها كانت تقع خارج التيار العلمي وبخاصة خارج المنحى الذهني الكمي للعصر . فكر فيكو مثالي في الجذر ، مناهض للمادية ، بل ولاهوتي، بهذا المعنى وهو ان دراما التاريخ تجري حسب ارادة الله انه يعترض على ديكارت، على العقلانية ، على الاتجاهات العقلية والرياضية لزمنه . لكن في نظريته القائلة بالاصل البشري حصرا للتاريخ يلوح العنصر البروميثيئي المحسوس في كل مكان منذ حركة النهضة ، الطعن في تاريخ ضبطه الله ولا ينفذ الانسان اليه ، موقف اعجاب بالعمل الانساني : ((في هذا الليل المظلم الذي يخفي عن عيوننا العالم

القديم الموغل في القدم يلمع النور الازلي ، النور الذي لا يستطيع شيء اطفاءه ، نور حقيقة من المستحيل ان توضع موضع شك : الانسان هو الذي صنع هـذا العالم التاريخي : هذا العالم التاريخي قد صنعه البشر بالتأكيد . لهذا السبب فمن الممكن (والضروري) اكتشاف مبادئه في تغيرات روحنا البشري . هـذه الحقيقة الواقعة يجب أن تملأ بالعجب جميع الذين يجعلونها موضوع تأملهـم : لقد انكبت جميع الفلاسفة بشكل جدي على اكتساب علم عالم الطبيعة الذي يعرفه الله وحده لان الله وحده خلقه ؛ واهملوا التفكير والتأمل في عالم الامم او العالم التاريخي الذي بمقدور البشر ان يعرفوه لان البشر هم الذين صنعوه . تلك نتيجة مدهشة لفقر الروح البشري الذي ... تحمله طبيعته علـى عـدم رؤية سوى الموضوعات الجسمية والذي يخشى الجهود والمشقة اللازمة لكي يفهـم نفسـه بنفسه ؛ هكذا ترى العين البشرية كل الموضوعات الموجودة في الخارج لكنهـا تحتاج الى مرآة لكي ترى نفسها بنفسها » (٣) .

الشروح

١ ـ المدخل

١ ـ **انجلز** . انظر بشكل خاص : **جدل الطبيعة** ، المدخل ، المدخل ، ولا سيما الصفحات الاولى .

البرتي Alberti (١٤٠٤ ـ ١٤٧٢) : معماري في فلورنسا ، ولد في جنوه . من فناني السنوات ١٤٠٠ .

هوتن Hutten ، اولريش فون هوتن (١٤٨٨ ـ ١٥٢٣) : فارس من فرسان النهضة في المانيا ، مفكر اديب ولاهوتي ، انسانوي . انضم الى حركة الاصلاح . دعا لوثر الى الحزم . اشتهر بحملاته على الامراء والاساقفة وايضا على برجوازية وفلاحي المانيا . فهو منظر ثورة النبلاء (ضد الامراء والاكليروس)، وهي الثورة التي تزعمها مع فرانتس فون زيكنغن . بعد مقتل هذا الاخير ووفاة هوتن ، النبلاء سيفضلون الخضوع للامراء والكنيسة على تحرير الفلاحين ـ حركة الاصلاح خضت وشملت كل طبقات المانيا .

٢ ـ **الانسان الصانع »** homo faber ـ شأنه شأن كل امر ذي قيمة في الواقع العملي وفي الفكر النظري ـ له اكثر من ميلاد واحد .

اولا . هذه صفة او كيف الانسان . نشوء الانسان هو نشوء الشغل ، نشوء الشغل ـ الوعي ـ الاجتماع . علم الانتروبولوجيا الحديث يسوغ مئة بالمئة اطروحات انجلز الجوهرية ، ويميز الـ homo faber (« انسان صانع ») وهو مجموعة الانواع البشرية المتعاقبة من الادنى الى الارقى خلال مليون او مليوني سنة من « تاريخ نشوء الانسان » ، والـ « homo sapiens » (« انسان عاقل») وهو النوع الاخير ، نوعنا الحاضر ، الذي لم يلبث ان صار شغله شغلا ـ صنعا ـ انتاجا ـ تحويلا ثم ابدع الحضارات الاولى الزراعية الكبرى في الشرق ...

ثانيا . هذه الحقيقة : « انسان صانع » ، لها بدايات وعناصر في شتى الحضارات والعصور الحضارية . تشريع سولون solon في اثينا القديمة كان انتصارا للعمل والكسب والثروة على النبالة والاصل والعائلة والفروسية الخ.

أحد المفكرين الاغريق تحسس معادلة الانسان = الشغل ، لكن ظلت الغلبة لمعادلة **الانسان** = عقل ، وعي ، روح ، وجدان ، دين . نظام الرق والنظام الاقطاعي كانا ضد « الشغل » مع اشياء اخرى .

ثالثا . عصر النهضة يعطي الامور منحى آخر . ولقد كانت العصور الوسطى الغربية زمن اختراعات تقنية كبيرة وحاسمة ، عدا عن الذي نقله الاوروبيون عن العرب وعن الصين عبر العرب . والعصور الوسطى الاخيرة (ق ١٢ ــ ١٥) هيأت عصر النهضة نوعا ما في جميع المجالات وعصر النهضة انطلاق جديد ومذهل للانسان الصانع ، في الواقع العملي وفي الفكر .

رابعا . هذا الانطلاق يقود الى الاقتصاد البرجوازي الحديث ، الى آدم سميث وفرانكلين وهيغل ، والى ماركس . كلهم يخترعون « الشغل » ، « الانسان الصانع » ، في ميلاد متكرر ، في مستوى الفكر .

خامسا . العصر الامبريالي ارتداد على الشغل ــ القيمة ، على العلاقة بين العمل والكسب ...

٣ ــ **الفرد** ، « يبدأ الناس يهتمون باسم مؤلف عمل فني » .

ليس الامر هكذا في الحضارات الاولى ، النهرية ، في مجتمعات « النمط الآسيوي للانتاج » و « الاستبداد الشرقي » ، حيث « لم ينقطع بعد الحبل السري الذي يربط الفرد بالجماعة ، وحيث الاسم ــ العلم هو فرعون ــ ملك الملوك سيد الماء والارض والبشر الخ في مجتمع « العبودية المعممة » .

لكن الامر هكذا في اليونان اسماء ــ أعلام معلومة مشهورة : فيدياس ، براكسيتيل ، اسخليس ، سوفوكل ، اوريبيد ، ارستوفان ، الخ ، عدا عن اسماء الفلاسفة بالعشرات ، والعلماء ، والخطباء ...

العصور الوسطى الغربية تراجع .

النهضة تخترع الفرد من جديد ، في مستوى متقدم .

٤ ــ الـ contrepoint (مراكبة خطين لحنيين) غير موجود في الموسيقى العربية . في الغرب ، باخ (ق ١٨) احياه ، استثمره على نحو رائع .

الكمان ورد ذكره لاول مرة سنة ١٥٢٩ . اصابته تحسينات مهمة في القرن ١٧ في كريمونا (بايطاليا) حيث عاش ستراديفاريوس (١٦٤٤ ــ ١٧٣٧) .

فن **التروبادور** : شعر وغناء على يد فنانين متجولين في « بلاد الجنوب » (جنوبي فرنسا) باحدى « لغات اوك » (لغة اهل الجنوب) ، ق ١٢ و ١٣ الخ. نوعا ما فن طرب ، قوامه الابتكار ، اكتشاف او اختراع صور بلاغية) او لحن

جميل الخ . بل لعل كلمة تروبادور اصلها من « طرب » العربية ـ هناك أيضـا شعر تروبادور سياسي ، مرتبط بحركة الاطهار .

٥ ـ **ارشيتاس دو تارنت** (ق ٤ قبل الميلاد) ، فيلسوف فيتاغوري صديق لافلاطون . ـ **بطليموس** الفلكي الشهير واضع المنظومة الارضمركزية عاش فـي القرن الثاني الميلادي ، ولد في مصر .

٦ ـ **شيمابوه** Cimabue (ق ١٣) : في فلورانس ، اشهر الرسامـين الايطاليين الاوائل ، ذو عاطفة ساذجة وعميقة ، استاذ جيوتو ، « بيزنطي » بنسبة ٨٠ ٪ ، ان جاز القول .

٧ ـ **جان فان ايك** (حوالي ١٣٧٥ ـ ١٤٤٠) : اشهر فناني مدرسـة الرسامين الفلاماند الاوائل أو « البدائيين » ، احد مبدعي ومؤسسي فن الرسم .
مدينته هي بروج Bruges (والكلمة تعني جسر) في الفلاندر البلجيكية عند ملتقى عدة قنوات . في العصور الوسطى الاخيرة ، كانت اهم مركز للملاحـة والتجارة في الشمال . كانت ـ بمفردها ـ منافسة وخصمة للموانىء الاخرى على بحر الشمال وعند مصب انهره وعلى نهر الراين ، وهي الموانىء المتحدة في حلف الهانسا برئاسة مدينة لوبك Luebeck . بروج مستندة الى صناعة الجوخ الفلاماندية (والسابقة لصناعة الجوخ الانكليزية) التي مركزها مدينة غان Gand اوغنت وعلى نشاطات اخرى مزدهرة في المنطقة .
البلاد المنخفضة (وبالاصح : قسمها الجنوبي اي بلجيكا) كانت واحدا من اهم مركزين للانطلاق الاقتصادي في العصور الوسطى الاخيرة ؛ المركـز الآخـر ايطاليا : البندقية ، جنوة ، **فلورنسا** الخ ؛ وبينهما فرنسا ، التي كان لها مزية هذا الموقع الوسط ومزية انها كانت وستكون اكثر فأكثر امة ودولة ، مملكة قومية ناشئة بقوة منذ سنة ١٢٠٠ .

٨ ـ **ديكارت** (١٥٩٦ ـ ١٦٥٠) : رائد العقلانية و « مؤسس الفلسفـة الحديثة » ، مؤلفه الاشهر « رسالة في الطريقة » ، ١٦٣٧ .

سكاليجر Scaliger (١٤٨٤ ـ ١٥٥٨) : انسانوي ، ايطالي ، عالم لغات وآداب ، وطبيب ، من اهم باعثي ثقافة العالم القديم اليوناني ـ الروماني ، علامة مناضل .

٢ ـ الاصول

١ ـ عائلة **ميديشي** Médicis حكمت فلورنسا في القرنين ١٥ و ١٦ . اول مشاهيرها كوسِم القديم .

جوستينيان « امبراطور الشرق » (بيزنطية ، القسطنطينية) من ٥٢٧ الى ٥٦٧ . حارب الفرس في الشرق ، والفاندال في الغرب ، فاستولى على ايطاليا و « افريقيا الرومانية » وجنوبي اسبانيا (الاندلس) ـ كانت الامبراطورية الرومانية قبله قد انقسمت الى شرقية وغربية ، وكانت الامبراطورية الرومانية الغربية قد انهارت بعد ذلك تحت وطأة ثم اجتياح البرابرة الذين استوطنوا في ايطاليا وفرنسا واسبانيا وافريقيا واهمهم الاوستروغوت (في ايطاليا) والفرانك (في بلاد الغول : فرانكيا ، فرنسا) والفيزغوت (في اسبانيا وجنوبي فرنسا) والفاندال . جوستينيان استطاع اذا ان يعيد الوحدة الامبراطورية الرومانية ـ المسيحية بمعظم اقاليمها . لكن عمله لم يدم . اوروبا الغربية تبدأ تاريخا خاصا جديدا يبدأ بالبربرية والفوضى والظلام وينطلق من ذلك ليبني شيئا جديدا هو المنظومة الاقطاعية التي سوف تتكون في زمن الاجتياحات الجديدة (النورمان ، رجال الشمال) وتتبلور في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، ومعها (فيها وضدها) المدن ـ الكومونات ـ الحركة الكومونية ـ جوستينيان (ق ٦) وضع مجموعات القوانين التي خلدته . ـ المسيحية ارتدت على التراث القديم المتهم بالوثنية ، لكن بقيت بعض الخطوط داخل المسيحية .

الاكاديمية مدرسة فلسفية اسسها افلاطون (ق ٤ قم) في حدائق اكاديموس . اكاديموس بطل (اسطوري) ل آثينة . ـ حسب تحول مذهب افلاطون ، تميز « الاكاديمية القديمة » ، و « الاكاديمية الجديدة » (أركيسيلاس ق ٣ ، كارنياد ق ٢ ...) .

النيو افلاطونية او الافلاطونية ـ الجديدة او الافلاطونية ـ المحدثة ، عاشت في القرون الميلادية الاولى . سلفها **فيلو** الاسكندراني او اليهودي (ق ١ م) : تأثر بأفلاطون وبالتوراة ؛ ثالوثه : الله والكلمة (اللوغوس) والروح ـ القدس ، وهم الواحد ذكاء ونفس العالم . اهم فلاسفتها **افلوطين** (ق ٣) وبورفيروس ، وياميليخوس ، **وبروكلوس** (ق ٥) .

٢ ـ **الفن الغوتي** gothique ويدعى أيضا ب « الاسلوب الغوتي » style وأحيانا ب « الفن الفرنسي » . ازدهر في القرن ١٣ واستمر مع تحولات في قرون تالية . وطنه فرنسا ومجموع أوروبا المسيحية الغربية تقريبا : المانيا ، بولونيا ، انكلتره ، البلاد المنخفضة ، سكانديناقيا ، اسبانيا الخ ، بدون ايطاليا مبدئيا . وهو بالدرجة الاولى فن عمارة ، تجلى أولا في بناء **الكاتيدرائيات** . والكاتيدرائية بحصر

المعنى هي الكنيسة المبنية حسب هذا الطراز الذي قوامه قوس **الاوجيف** ogive المكسور في وسطه (مع تصالب اوجيفات في وسط أعلى البناء) و « **القوس ــ المساند** » من الخارج ؛ هذه الكاتيدرائيات (مثلا نوتر ــ دام باريس) نجدها في شتى مدن فرنسا وأوروبا الوسطى والشمالية . في ايطاليا الشمالية نجد كاتيدرائية ميلانو والفن « الفوتي الملتهب » في البندقية (وهو مرحلة تالية للفوتي الاصلي) . عدا عن الكاتيدرائيات ، هناك أيضا « **دور الكومانات** » واشهرها في مدن بلجيكا .

الفن الفوتي تعبير عن ايمان وروح شعب وشعوب . القرن الثالث عشر هو عصر « بناة الكاتيدرائيات » ، وهو أيضا عصر المنظومة الاقطاعية والمدن والامة ــ الدولة الناشئة بقوة ، وعصر الفلسفة ونشوء الجامعات الوسطوية ، في فرنسا واوروبا المسيحية ــ الغربية .

الفن الفوتي ، بين جملة أمور ، قرينة مهمة على تقدم المبدأ القومي والاممية الاوروبية الجامعة التي هو أساسها . قبله الفن الرومان roman (ق ١١ ــ ١٢)، فن الكنائس الرومان (وهي عمارات « أثقل » وأقل ارتفاعا الى السماء) ، كان فنا اقليميا يختلف من اقليم الى آخر في فرنسا وجوارها . الفن الفوتي أو الأوجيفي فن قومي واحد وأوروبي واحد .

وكما ايطاليا ، بحكم تراثها القديم اليوناني ــ الروماني ، قاومت نفوذ او اجتياح الفن الفوتي ، كذلك فرنسا في القرن الخامس عشر ستقاوم نفوذ فن النهضة الآتي من ايطاليا والذي سينتهي مع ذلك الى الانتصار (القصور على نهر اللوار ، ق ١٦) دون ان يعطي ما أعطاه في ايطاليا من روعة وأصالة .

اندريا بيزانو (نحو ١٣٠٠ ــ ١٣٥٠) : معماري ونحات ايطالي شهير ، في مدينة بيزا ، أسهم في تحرير الفن الحديث من النفوذ البيزنطي ، تمسك بالاشكال القديمة (الفن اليوناني ــ الروماني) في زمن موجة الفوتي التي اكتسحت أوروبا .

٣ ــ **غوته** (١٧٤٩ ــ ١٨٣٢) : درس الطب ، الحقوق ، الآداب ، اهتم بجميع المعارف الانسانية ، بالفن والعلم والسحر والفلسفة ، كان شاعرا ، روائيا ، مؤلفا للمسرح ، عالم نبات ، كيميائيا ، فيزيائيا ، ووزيرا في دوقية فايمار . كان واحدا من أكمل عبقريات تاريخ البشرية . روح عصر النهضة تعيش فيه ، بخلاف وعكس رياضية وميكانوية فكر وفلسفة عصر البرجوازية الصاعدة الفرنسي ــ الانكليزي (ق ١٧ ، ق ١٨) . بعض أعماله وأشعاره وأفكاره بالغة الاهمية للفلسفة ، للجدل ؛ انه احدى الحلقات المهمة القائدة الى هيغل (معاصره) والى ماركس . عاصر الثورة الفرنسية ونابوليون والفلسفة الكلاسيكية الالمانية (كنط ، فيشته ، شيلنغ ، أخيرا : هيغل) . **فاوست** غوته يحتل موقعا فريدا ومهيمنا في كتاب «فلسفةعصر النهضة».
ــ أحد منابع تكونه رحلاته في ايطاليا المساوية للنهضة ، التي كانت هزمت في ايطاليا الاصلاح ــ المضاد والأسبنة لكنها ماثلة فيها ، مرئية في الكنائس والقصور والمتاحف ، في التماثيل واللوحات والموسيقا .

دورر Durer (١٤٧١ ـ ١٥٢٨) أكبر الرسامين الالمان ، عصر النهضة . المانيا لا تشتهر بالرسم . لكنها في حقبة معينة ومحدودة (مدة خمسين سنة : دورر ، كراناخ ، غرونفالد ، الخ) أنجبت « مدرسة » رسم فريدة ومذهلة ، مصدرها ايطاليا والنهضة وروحها والمانيا وروحها ـ هذه الظاهرة شيء ناتىء وشاذ في تاريخ العبقرية الالمانية التي سوف تستقطب الموسيقا والفلسفة (باخ ، بيتوفن ؛ بوهم ، لايبنتس ، ثم كنط ـ فيشته ـ شيلنغ ـ هيغل) : لوثر (التذويت) مر من هنا ، سرى في جسم المانيا والثقافة الالمانية . باخ تابع لـ لوثر (يلحن مرارا اناشيده الاشهر مثلا « الله ونفسي » ؛ والنشيد choral اللوثري في قوام كل موسيقا باخ)، انه تابع لـ لوثر والشعب الالماني والعمارة القوتية والعصر الوسيط والانسان ؛ بيتوفن تابع لـ باخ والثورة الفرنسية ومصائر الانسان . لوثر علم المانيا ضبط الجيشان ، هذا الانضباط الذي ليس بدونه فن ولا معرفة ولا تملك بوجه عام ـ دورر معاصر لـ لوثر وهوتن ومنتسر ، لكنه ظهر قبلهم ، انه تابع لحركة النهضة . اللوثرية انهت الرسم ، الى حين .

الاصلاح ـ المضاد (مجمع ترانت الكنسي ١٥٤٥ ـ ١٥٦٣ ، رهبنة اليسوعيين تأسست سنة ١٥٣٤) طهر الكنيسة الكاثوليكية من الشوائب ، ضبطها ، لكنه كان ارتدادا وتطورا ـ انطواء على الذات ، وسد على جوانب عديدة وهامة في التقدم البرجوازي والصعود الانساني عند الشعوب الكاثوليكية : كنيسة ، مركزية ، استبداد ، سلطة ، قمع وقهر ، تحالف مع قوى الرجعية ، دعم المونارشية المطلقة القومية في دولها ، والتجزؤ القومي في ايطاليا ، الاستمرار في الحلم الروماني ، حلم « الخلافة » المسيحي المناهض لصعود الامم وللمبدأ القومي . كان من اهم عوامل تأخر الشعوب الكاثوليكية ـ الجنوبية عن الشعوب البروتستانتية الشمالية . ـ بالمقابل ، نجد عددا من رجال الكنيسة في صف « الانوار » في فرنسا القرن ١٨ ، وبعضهم لعبوا دورا متميزا في مسيرة الافكار لا سيما في مضمار مسالة أوروبا والعوالم الاخرى ومصائر الانسان والبشرية . منذ أوائل القرن السادس عشر ، كان الأسقف الاسباني ابن اشبيلية ، بارتولوميو دو لاس كازاس ، « أبو الهنود الحمر » ، أبا لسلالة كل مناهضي الاستعمار في الفكر الاوروبي الحديث . ـ **اليسوعيون** لعبوا دورا كبيرا في استعادة الارض المفقودة في بلجيكا وبافاريا والنمسا ؛ اسسوا التعليم الثانوي الكلاسيكي ؛ اقاموا جمهورية يسوعية في الباراغواي حمت الهنود الحمر من غزو الاستعمار الابيض الاسباني البرتغالي مدة قرنين ؛ كادوا ربما ان ينصروا الصين بدءا من الامبراطور والبلاط (أي في هذه الحال ، على الارجح أن يقيموا فرعا رابعا في المسيحية، فرعا آسيويا شرقيا ، ينضاف الى الفروع الثلاثة الاوروبية الكبرى)، لولا « عداوة الكار » من جانب رهبنات تبشيرية أخرى وقرار المرجع الرسولي الاعلى بوقف التجربة وادانته للطقوس الشرقية الجديدة . يمكن القول ان اليسوعيين كانوا السباقين الى العمل على تكييف الكنيسة مع العالم الجديد البرجوازي ضد عالم الاقطاع ، **داخل** المؤسسة جامعة الايمان الحق . لكن ، في القرن السادس عشر ،

كانوا في طليعة قتال هذا الايمان الحق ضد الهرطقة البروتستانتية وضد استقلال الانسان والشعوب في أوروبا .

٤ ــ **افلوطين** (نحو ٢٠٥ ــ ٢٧٠) اكبر فلاسفة النيو افلاطونية . ولد في مصر ، درس في الاسكندرية ، سافر محاربا الى فارس كي يدرس فلسفة الفرس ، عاد الى روما حيث فتح مدرسة ، ثم انسحب من الحياة ومات في ايطاليا . ــ فكره تأثر بأفلاطون وكل منظومات الفلسفة اليونانية ، وفيلو ، والمسيحية . قال قولا مأثورا وقاسيا : « الأشرار يحكمون بجبن رعاياهم ، ذلكم هو العدل وليس عكسه »! انصرف عن التاريخ والسياسة ، أصبح يعيش حياة منعزلة ، حياة متأمل وتقريبا متصوف . الله مشهد بعيد نحوه ترفعنا المحبة . الطبيعة هي مولدة النفس الكونية، وهذه تنتج المادة والعلل المنوية التي تعطي المادة شكلها وتكون الكائنات الحية . الله هو الكينونة الخالصة التي تعرف ذاتها وتصير ذكية (فاهمة) وتتحول الى قدرة أو سلطة تفعل بضرورة مطلقة لا ترحم . لله مراحل ثلاث ، الامر الذي ينشيء قرابة بين افلوطين وعقيدة الثالوث المسيحي . هذه المراحل ــ الاقانيم الثلاثة هي الواحد والفهم والنفس . توجد نفسان في الكائن البشري : النفس غير العاقلة الآتية من النفس الكونية ، والنفس العاقلة التي هي المبدأ التكويني للانسان وترتقي الى فهم الاشياء وتقترب من الالوهة ، في الوجد ، عند انفرازها عن الجسد . ــ هيغل ، بين آخرين عديدين ، ثمن فلسفة أفلوطين ، التي لعبت دورا كبيرا في فلسفتي العصر الوسيط المسيحية والاسلامية .

٥ ــ **الغنوص** Gnose (= معرفة) ، مذاهب الغنوص ، المذاهب الغنوسطية: حركة فكرية (دين ، فلسفة ، سحر) وشعبية ضخمة في القرون الميلادية الاولى (ق ٢ ــ وايضا ق ٣) ، في جوار المسيحية الناشئة . العقيدة اللاهوتية المسيحية تتبلور وتتكون الى حد كبير في المساجلة ضد الغنوص التي لها مذاهب متنوعة ومختلفة (مارسيون ، مونتان ، بازيليد الاسكندراني ، الخ) . تبدو هذه المنظومات الغنوسطية جمعا من عناصر مسيحية ويونانية وشرقية متنوعة (مثلا : ارسال ، تناسخ ، خلق متواصل الخ) ، شرقية غير يهودية وغير سامية ، جمعا يبدو مناهضا لليهودية ولليهودية في المسيحية . الغنوص ــ أو بعض مذاهبها الاهم ــ تفصل المسيحية عن اليهودية ، توجهها وجهة أخرى ، شرقية (فارسية مثلا) ويونانية ؛ تعارض اله « العهد القديم » ، اله التوراة ، يهوه ، الذي تعتبره اله جبروت وشر ، بالمسيح ، اله رحمة وملاك محبة ، ارسله الأزلي ليطرد اله التوراة الشرير ؛ بعض مذاهب الغنوص قال بمجيء المسيح على الارض ، حدد يوما ومكانا لهذا المجيء ، وهرع البشر الى المكان المحدد ليعيشوا في ظل العدالة الابدية على الارض . ــ بالمقابل ، المسيحية كعقيدة : ١) تتحول الى السماء والعالم الآخر تحت سلطة افلاطون ؛ ٢) ادخلت اليهودية ــ النقيض ــ السلب ــ الشر في الوحدة المذهبية الجدلية ، اعتبرت نفسها نقيضا ومكملا بآن ، احتفظت باله « العهد القديم » الذي

ليس اله شر هكذا بل اله تحد للانسان ، بالانبياء ، بالسيرة التاريخية ؛ ٣ ــ أخذت مبدئيا **بالتاريخية** : التاريخ لم ينته ! وهنا يأتي أوغسطين (حوالي سنة ٤٠٠) الذي لاول مرة في التاريخ ، يضع منظور التاريخ **كخط** ، خـط تقـدم ، كتاريخ بالمعنى الحقيقي (بعكس التصور الشرقي ، الهندي والصيني ، للتاريخ كدائرة وتكرار أزلي)، مصوفا بالسوتيرولوجيا (علم الخلاص) ... ــ ربما من الممكن تنظير المواقف **الدينية** على النحو التالي : ١) بعض الغنوص والمسيحية الاولى : المسيح جاء ، صعـد الى السماء ، وهو عائد . الشر انتهى ، التاريخ انتهى . ٢) اليهودية : المسيح المنتظر لم يأت ، فالشر قائم على قدم وساق . (قوموية أو صهيونية الديـن اليهودي تذبـل تماما في العصور الوسطى ، وان تبقى في شكل انفلاق شعب اللـه على نفسه فـي تواجد متشارك أو طفيلية متبادلة مع العالمين المسلم والمسيحي) . ٣) المسيحية : المسيح جاء ، اذن بدأ جهاد الانسان من جديد ، جهاد قائم الى نهاية الدهور ، ضد الشر . تبقى المسألة : أي جهاد ، أي شر ؟

القبالة Cabbale (من « قبل ») تراث يهودي طويل وضخم : دين ، فلسفة، سحر ، تصوف ، كوسموغونيا (توالد الكون أو الاكوان) ، الخ . نشأ وازدهر بـين يهود الغرب ، كتراث ايزوتيري (باطني) . أهـم كتبه : ١) **« سفر الخليقة »** (أو التكوين) ألف بين القرن الثالث والقرن السادس وظل يعلم ويعلق عليه حتى القـرن الثامن عشر بلا انقطاع . مضمونه : عناصر العالم هي الأعداد العشرة الاولى وحروف الابجدية العبرية الاثنتان والعشرون ... الله يستخدم الهواء والنار والماء ليخلق عالم ما فوق الطبيعة . أما العالم الارضي فيولد من عملية الحروف الاثنين والعشرين في الهواء . الحروف ــ الأم هي الالف (هواء) والميم (ماء) والشين (نار) الخ الخ . أدب الشرح يعلق ويبني على هذا الى ما لانهاية ، مثلا ، حسب التأويل المعروف في اللاهوت الصوفي : مراحل صعود النفس عبر السماوات السبع وصولا الـى عرش الله بحسب درجات طهر النفس وكمالاتها .... ٢) **« سفر البهاء »** جمعه أو ألفـه موسى من مقاطعة ليون في اسبانيا (ق ١٣) ، وهو رواية صوفية كتبت بالآرامية ، بوصفها شرحا أو تعقيبا على أسفار موسى الخمسة ، مـع بحوث أخرى خاصة . الابطال في هذه الرواية الرمزية التأويلية : وحدة الله الاحد ، محمولاته ، الأعداد العشرة وعلم الاعداد والهندسة ، التـاج والرحمة والاساس ، والحكمـة والنعمـة والفهم والصرامة (Din = الدين) والجلال ، والملكوت وهو العدد العاشر الذي هو الحضور الحقيقي للـه داخـل الخليقة والنموذج المثلى لتشـارك القديسـين أي اسرائيل الله ؛ هذه الاعداد العشرة تظهر عالم الواحد الأحد ، انها تجلياتـه . ثـم : الـ هو ، الـ أنت ، الـ أنا ، وهم الله في سر الاتحاد . الخطيئة تخرب تناسق العالم الاعلى وملكوت المحبة الذي ليس فيه حدود . التوافق بين الله والانسان مطلق فـي **« آدم قدمون »** ، (الذي نجده في « فلسفة عصر النهضة ») . النفس البشرية هي « نفس » (نباتية) و « روح » (فكرية) و **«نشامة »** ...

هذه الايزوتيرية (باطنية ، تأويلية) اليهودية تندرج في خـط طويل ، تاريخي

ـ عالمي ، للايزوتيرية . عدا عن التقليد الهندي والتقليد الصيني المتنوع ، نذكر الفيثاغورية ، التقليد الاسلامي المهم ، الايزوتيرية المسيحية الارثوذكسية ، فرسان الهيكل وأمناء المحبة وجماعة الصليب ـ الوردي ، الرفاقية والبناة الأحرار (الماسونيون) ، سيد اكهارت ونقولا دو كوزا وحكماء الله (الحكمة الالهية) ، ثم « البعث الشرقي » في أوروبا في زمن حديث ومعاصر لاغراض رجعية وهذيانية في الغالب .

٦ ـ **امبيدوكل** Empidocle (ق ٥ ق) : شاعر ، طبيب ، نبي ، مشرع ، سياسي (مناصر وربما زعيم للحزب الديمقراطي) . ـ حاول توفيق فيثاغور وبارمنيد وهيراكليت . الحقيقة ليست محفوظة لنخبة ، بل يجب ان تخاطب الشعب . النفوس تنتقل (تناسخ) : الحياة في السماء سبقت السقوط على الارض ، الأخيار سيعودون الى مملكة الآلهة ، والاشرار سيدخلون في أجسام حيوانات أو نباتات ؛ مركز الفكر هو القلب ووسطه الدم ؛ الاشياء مكونة من تراكب أربعة عناصر هي الماء والتراب والنار والهواء ؛ تمازجها وتبادلاتها محكومة بمبداين هما المحبة التي توحد والخلاف الذي يفصل ، وكل منهما يهيمن على الآخر بالتناوب .

لوكريس Lucréce (ق ١ ق) شاعر لاتيني ، عرض مذهب ابيقور المادي في كتاب لعب دورا كبيرا عنوانه « في طبيعة الاشياء » ، عرضا رائعا كأسلوب ولغة . لسانه : لا تخافوا الآلهة فهي لا مبالية ولا تخافوا الموت فهو رجوع الى العدم ؛ على المرء ان يلتجيء الى معابد الحكمة حيث يجد الصفاء وهدوء النفس . الابيقورية لعبت دور تحرير بطردها الأشباح . ماركس الشاب خصص رسالة الدوكتوراه لفلسفتي ديموقريط وابيقور الماديتين الذريتين ، فضل الثانية لانها تتجاوز الحتمية الميكانيكية بالصدفة ، مفسحة المجال لفكرة الحرية . ـ المذهب الذري (ذرات وفراغ ، مملوء وفارغ ، كائن وعدم) له اصول شرقية (هندوفينيقيا) .

٧ ـ **بارمنيد** Parménide (نحو ٥٤٠ ـ ٤٥٠ ق) . ولد في ايليا Elie في « اليونان الكبرى » أي جنوبي ايطاليا . افلاطون لقبه بالعظيم . فكره يتلخص على النحو الآتي : الكائن كائن واللاكائن غير كائن ؛ وجود الكائن ينفي وجود اللاكائن ؛ الكائن (كينونة ، هو ، أيس) هو السبيل الوحيد ؛ علما بأن العالم الحسي متناقض وغير قابل لتفسير . عدم وجود اللاكائن يقود بارمنيد الى وضع وحدة وازلية وتواصلية وسرمدية الكائن ، الواحد ـ و ـ الكل (Hen - kai - Pan) . هذا الكائن محدود وكروي ، وهو واقع متميز عن العالم الحسي . « كل شيء باق » . بارمنيد ضد هيراكليت ، « كينونة » ضد « صيرورة » (كائن ضد صائر ، أيس ضد ليس ، هو ضد ليس ، كون ضد صير ، etre ضد devenir) . ولقد قيل : مع بارمنيد « تبدأ المبارزة الدراماتيكية بين فلسفة الكينونة وفلسفة الصيرورة » . فكر بارمنيد اثر تأثيرا كبيرا على الفلسفة الاغريقية : زينون الايلي ، افلاطون ، ارسطو

والمنطق ، الخ . ولقد قيل أيضا : لولا بارمنيد لما وجدت الفلسفة . بالطبع ، مع الصيرورة وحدها ما كان يمكن أن تتقدم الفلسفة في طريق مجدية . بارمنيد مخترع مفهوم ال etre أو لنقل فكرة ال etre . — في اللغات السامية هذا الفعل (كون، كينونة ، ورابطة خبر) غير موجود مبدئيا ، بل توجد فيها الجملة الاسمية (مبتدأ — خبر) .

٨ — **فندلبان** Windelband (١٨٤٨ — ١٩١٥) : أستاذ فلسفة ، ينتسب الى التيار النيو — كنطي : الحق vrai يجب أن يفكر ، الخير يجب أن يعمل ، الجمال يجب أن يثمن .

ارسطو (٣٨٤ — ٣٢٢) ولد في مكدونيا ، تتلمذ في آثينا على يد أفلاطون ، وعلم اسكندر المكدوني . أسس في اثينا مدرسة الكلية أو الليسه Lycée التي سميت المدرسة المشائية لان أرسطو كان يحاور تلاميذه وهو يتنزه . بعد وفاة الاسكندر الكبير في ٣٢٣ غادر اثينا خشية أن يلاقي مصير سقراط ورغبة منه في « تجنيب أهل اثينا اعتداء ثانيا ضد الفلسفة » . وبالفعل حكم غيابيا بالموت . ومات بعد شهور . — لعله أعظم فيلسوف في جميع العصور ؛ اعتبر هكذا مع أفلاطون ؛ هيغل اعتبر أرسطو زمنه ... أرسطو اخترع المنطق ، واسس تاريخ الفلسفة والتشريح والفيزيولوجيا المقارنة . أكد على الخبرة وعلى الفكر . أسس مقولة الشكل الجبارة ، ثنائية المادة والشكل ؛ وضع ثنائية الفعل والقوة (الامكان) ؛ وهو صاحب فكر سياسي مهم : ميز ثلاثة اشكال الحكم : الملكية ، الارستقراطية ، الديمقراطية، لهن ثلاثة تشوهات : الطغيان ، الأوليغارشية ، الديماغوجية . — مؤلفاته الاشهر : الاورغانون (أو الاداة ، أو الناظم ، للفكر الصحيح والمعرفة المجدية) ، الفيزياء ، السماء ، الميكانيكا ، الشعر ، السياسة ، دستور اثينا ، النفس ، البلاغة ، تاريخ الحيوانات ، الميتافيزياء . — سلسلة التلاميذ تمتد وصولا الى **الكسندر افروديزياس** الذي فتح مدرسة مشائية في الاسكندرية (حوالي سنة ٢٠٠ م) . ثم انقطع الخط، الى ان وصله العرب المسلمون : الفارابي (ق ١٠) كان تحت تأثير افلاطون وارسطو وافلوطين ، ابن سينا (ق ١١) يجمع المشائية (أي الارسطوطيلية) مع نظريات شرقية ، **ابن رشد** (ق ١٢) يحمل أرسطو على كتفيه أو قسما منه ويدفعه الى الامام ماديا ، وينقله الى الغرب المسيحي .

اوغسطين (حوالي سنة ٤٠٠) تحت نفوذ افلاطون وافلوطين والنيو افلاطونية، وهو يدشن الخط الاوغسطيني والفكر المسيحي الغربي والفلسفة الكاثوليكية . لكن هذا الفتح قلما يظهر كفلسفة ، فالفلسفة ماتت في عصور البربرية والظلام . بالكاد نجد فيلسوفا ذا شأن ، هو سكوت ايريجين (ق ٩) ، وهو ينتسب الى نفوذ افلاطون . تتحسن الحال في القرن ١١ والقرن ١٢ : الاوغسطينية متمثلة بمدرسة شارتر ، ومذهب « الواقعية » (أي واقعية المثل ، فالمثل ، الكليات هي الواقع الحق) ، ينتميان الى نفوذ افلاطون . وفي القرن ١٣ ، مدرسة أوكسفورد ، روجه

بيكن ، ثم دنس سكوت ، يمثلون نفوذ أفلاطون . كان النفوذ الارسطو طيلي قد بدأ قبل ذلك . من جهة ، مشاجرة الكليات ابرزت الاسمانيين (المثل أو الكليات ليست واقعا بل هي أسماء) والمفهوميين (معسكر الوسط بين « الواقعيين » المثاليين والاسمانيين) . من جهة ثانية ، هناك « ابن رشدية لاتينية » تبرز بقوة في القرن ١٣ ، يحمل لواءها سيجر دو برابان Siger de Brabant ، والكنيسة تدين الابن رشدية في ١٢٧٠ ، لكن **مدرسة بادوا** الابن رشدية تواصل عملها حتى منتصف القرن ١٧ ، وهو عمل مجد وفاتح . الكنيسة تتراجع ، تراجع موقفها المناهض لارسطو : في ١٢١٠ ، مجمع باريس يدين **فيزياء** ارسطو ؛ في ١٢٣١ ، البابا يطلب اعادة النظر في **فيزياء** أرسطو ؛ في ١٣٦٦ ، يضع البابا أعمال أرسطو في برنامج ما كان « اجازة الفنون » . ذلك ، بدءا من سنة ١٢٠٠ ، عصر السكولاستيكا الارسطوطيلية ، أرسطو المدجن والفلسفة في خدمة اللاهوت (اذن من الآن : تراجع اللاهوت أمام الفلسفة !) .

سيجر دو برابان قال : أجل ، الوحي أعلى من العقل ، والدين من الفلسفة ؛ لكن الفلسفة تستحق الدراسة بذاتها ؛ وهذه الدراسة تبين أن العقل والوحي ، اللاهوت والفلسفة ، يتناقضان . هذا لا يرضي **توما الاكويني** (ق ١٣) . حسب رأيه : الوحي يتجاوز العقل ، وليس يناقضه . توما يضع المنظومة اللاهوتية — الفلسفية الجبارة التي تغدو لقرون ، حتى منتصف القرن العشرين ، الفلسفة الرسمية أو شبه الرسمية للكنيسة الكاثوليكية . هذا المذهب يعكس ، في الفلسفة، المنظومة الاقطاعية التي بلغت ذروتها آنذاك وبدأت تتراجع . انه يحمل فكرة « نظام طبيعي » هو انعكاس أو ظل النظام الالهي السماوي الاعلى . هذه الفكرة تقدم أكيد، تسهل طرد الشياطين والارواح — الاشباح ، تؤكد فكرة الاسباب الثانية (فالله هو السبب الاول) التي يجب ان تدرس وان تعرف بالعقل والتجربة . الكنيسة تواصل دورها كمعلم شعبي . لكن هذا التدجين لارسطو والفلسفة ، هذا التمذهب والاستبداد العقيدي ، لا يرضي عددا لا بأس به من الفلاسفة ؛ الفلسفة ستواصل سيرها الحر ، فلاسفة سيبعثون أفلوطين وأفلاطون ضد أرسطو والكنيسة ، وآخرون سيبعثون « أرسطو الحقيقي » ضد أرسطو الكنيسة : هكذا تبدأ فلسفة عصر النهضة . قبل ذلك ، في القرن الرابع عشر ، السكولاستيك العظيمة عرفت طور انحدارها على يد ثلاثة فلاسفة مهمين ، هم **ريمون لول** و **غيوم أوكام** و **سيد اكهارت** ؛ و **نقولا دو كوزا** (ق ١٥) ممهد لفلسفة عصر النهضة ورجل مهم من رجال النهضة . (سنجد هؤلاء في مكان لاحق) . من جهة أخرى ، ان هذا التوفيق بين أرسطو والمسيحية ، هذه العقيدية المسيحية — الكاثوليكية — الارسطوية ، لا ترضي كل الضمائر المؤمنة ، كل اللاهوتيين والرهبان اللاهوتيين . لعل بعضهم تساءل : هل نجعل من أرسطو أبا من آباء الكنيسة الاوائل ؟! هل هو القديس أرسطو حل مسائل القديس أوغسطين ؟ مهما يكن من أمر ، تبقى مأثرة للكنيسة أنها لم تنبذ الفلسفة ، أنها استوعبتها ، أنها انتقلت من أفلاطون الذي يبدو ، ظاهرا ، أقرب اليها بوصفها عقيدة سماء هي فوق ، الى أرسطو ، وأقامت منظومة كبيرة سلحت

مفكريها ، والى حد لا بأس به أعطت اطارا مقبولا وعقليا لمئات العلماء الكاثوليك في مجالات مختلفة . الكنيسة ما كان يمكن أن تجعل ارسطو قديسا . لكنها جعلت فيلسوفها توما الاكويني قديسا .

٩ ــ **هيكل** Haeckel (١٨٣٤ ــ ١٩١٩) . عالم وفيلسوف الماني شعبي ، استاذ لعلم الحيوان ، التقى بداروين سنة ١٨٦٦ نصير كبير لنظرية تحول الانواع ، نشرها في عدد من مؤلفاته . يمثل المادية العفوية لعلوم الطبيعة وعلمائها . في نظره ، طبيعة الانسان اجتماعية ، والدين ليس سوى معرفة القوانين الطبيعية . اصطدم برجال الدين ، احدث ضجة كبيرة في زمنه . كتابه « الغاز الكون » لعب دوره في الانتلجنتسيا الروسية ــ علوم الطبيعة دخلت في صميم تكوين الانتلجنتسيا الروسية المناضلة ، هذا بخلاف الانتلجنتسيا العربية ، مثلا ، التي لم تعطها أي انتباه .

١٠ ــ **الريبية** القديمة اسسها بيرون Pyrrhon (ق ٣ ق) ؛ ولقد تواصل الخط ، وصل الى روما وزمنها فتمثلت الريبية ب اينيزيديم واغريبا وسكستوس ــ امبريقوس في القرون الميلادية الثلاثة الاولى . ــ الريبية القديمة لها موقع مهم جدا في تاريخ الجدل ، كطريقة ونظرية معرفة .

المادية القديمة تمثلت بشكل خاص في المدرسة الذرية : ديموقريط (٤٦٠ ــ ٣٥٠ ؟) ، ثم ابيقور (٣٤١ ــ ٢٧١) ، ثم وصل الخط الى ... لوكريس اللاتيني (ق ١ ق) .

العصر الهلنستي هو العصر اليوناني ــ الشرقي الذي يفتحه الاسكندر الكبير والذي يغطي القرون الثلاثة الاخيرة قبل الميلاد ، ويواصله العصر الروماني . الاسكندرية ، آثينة ، انطاكية ، ثم روما ، هي مراكز الفكر والثقافة ، ومعها مدن اخرى قديمة وجديدة . ــ « العصر الهلنستي ــ الروماني » هو العصر الاخير الطويل جدا في تاريخ الفلسفة اليونانية ، التي صارت وتصير هي الفلسفة اليونانية ــ الشرقية ــ المسيحية ــ الرومانية ، عصر تختمه المسيحية بأوغسطين بادىء عصر الفلسفة المسيحية .

١١ ــ **عصر الانبياء** هو الاخير في « العهد القديم » ، في تاريخ « شعب الله المختار » : سفر التكوين ، البطاركة ، موسى ، القضاة ، الملوك (داود ، سليمان) وانقسام المملكة (٩٣٠ ق م) ، ثم سقوط المملكتين (٧٢٢ ، و ٥٨٦) والسبي الى بابل والشتات وعصر الانبياء : اشعيا ، ارميا ، **دانيال** (ق ٧) .

١٢ ــ **ابن سينا** (٩٨٠ ــ ١٠٣٧) ولد قرب بخارى ، مات قرب اصفهان . درس الرياضيات ، الفيزياء ، الطب ، الفلسفة ... يقبل فكرة الخلق بالنسبة

للاشكال ، لا بالنسبة للمادة ، والفاعل الخالق هو **معطي الاشكال** . الخلق هو فعل الفكر الالهي مفكراً ذاته بذاته .

ابن رشد (١١٢٦ – ١١٩٨) ولد في قرطبة ، مات في مراكش . درس الفقه ، الفيزياء ، الطب ، الرياضيات ، التنجيم أو الفلك ، الفلسفة ، الالهيات أو اللاهوت ، واصلح الادارة القضائية في مراكش . علم في قرطبة ، اتهم بالزندقة واضطر الى الهرب ، سجن في فاس ، ثم عاد الى قرطبة حيث عاش في بوُس ، ثم أعيد الى وظيفته القضائية في مراكش . الكنيسة أدانت مذهبه مرتين في سنة ١٢٥٠ وفي سنة ١٥١٣ . – مذهبه : لا شيء يأتي من العدم ؛ لا الشكل ولا المادة مخلوقان ؛ الحركة ازلية ومستمرة ؛ كل الممكن يمضي الى حالة الفعلية . الذهن واحد بالنسبة لجميع البشر ؛ هناك الذهن المنفعل والذهن الفاعل ؛ المنفعل يتجه الى الاتحاد مع الفاعل ؛ هذا الذهن الفاعل له مدى كوني : انه ذهن البشرية ، بها يتظاهر . انه بأن ذهن الكون وعقل مشترك للنوع البشري . وهو يتخطى كل فرد ، انه فوقه وخارجه وسابق له ، وهو خالد . الخلود محمول للنوع وليس للفرد .

١٣ – **ترتوليان** Tertullien (نحو ١٦٠ – ٢٤٠) ولد في قرطاجة . درس القضاء، ثم رسم كاهنا. ابتعد عن العقيدة المسيحية الرسمية، مال في اتجاه شيعة مونتان ، التي كانت تؤمن بالتدخل الدائم من جانب الباراكليت ، روح – القدس . مدافع صارم عن الدين المسيحي ، يؤمن بأن كلام المسيح فوق كل شيء ، ايمانا لا يلين ، وصرامة لا ترحم : « أن يكون ابن الله قد مات ، وقام ، هذا أكيد ، لانه مستحيل » . قوله الاشهر : « أومن لانه حماقة » . هذا الموقف الايماني المنطلق من واقع عصر تناقضي مرعب ولا مخرج فيه يدخل في صميم المسيحية البادئة ، بصرف النظر عن أورثوذكسية او عدم أورثوذكسيةصاحبه . ترتوليان ليس توفيقيا.

توما الاكويني (١٢٢٥ – ١٢٧٤) : ولد قرب نابولي ، درس في نابولي ثم في باريس ، عاش في فرنسا والمانيا وايطاليا حيث مات . لقب بالدكتور الملائكي ، أعلن قديسا في ١٣٢٣ ، ثم « دكتور الكنيسة » في ١٥٦٧ . – عرفت التومائية بأنها تركيب مسيحي يجمع الارسطوطيلية والاوغسطينية . النقطة الجوهرية في المذهب هي التمييز بين العقل والايمان ، وضرورة توفيقهما، اذن توفيق الفلسفة واللاهوت. الحقائق التي في متناول العقل هي من ميدان الفلسفة ، اللاهوت يستند الى سلطة الله والوحي . اذا ما ناقضت نتيجة « فلسفية العقيدة ، فهذا معناه ان هذه النتيجة خاطئة . من جهة أخرى، الوحي يجب ان يمثل بشكل واضح ومفهوم للعقل. توما الاكويني يحتفظ بالتمييز الارسطوي المهم بين القوة (الامكان) والفعل ؛ يميز في الكائنات المخلوقة بين الجوهر والوجود : في الله وحده يتماثلان ... توما الاكويني يوضح بعض نقاط العقيدة المسيحية : التجسد والفداء وشيجا الترابط ، فالله تجسد ليفتدي الانسان ؛ الاسرار المقدسة هي الاسباب الادواتية للنعمة .

معرفة الله شرط السعادة الازلية . العالم خلق في الزمان ، لكن كان يمكن ان يخلق من الازل . ــ واضح أن هذه الفكرة « تنازل » من الدين للفلسفة ، من العقيدة السامية ــ العربية ــ اليهودية ــ المسيحية ــ الاسلامية للموقف اليوناني الاساسي الفيثاغوري ــ البارمنيدي الخ ــ والاورسطوي بخاصة ، وان كان هذا التنازل يبرر ، بطبيعة الحال ، بحرية الله الازلي الخالق . ــ على هذه النقاط العتيدية او بعضها اصطدمت التومائية عبر القرون بخصوم داخل الكنيسة . وفي أواخر القرن التاسع عشر ، عرفت التومائية حياة جديدة، هي النيو ــ تومائية ، بدفع من البابا ليون ١٣ الملقب بـ « بابا العمال » . هذه النيوتومائية تيار كبير ومتنوع ، اليوم .

١٤ ــ ترتوليان ، « سليمان مبشرا » ترجمة لوثر ، أوغسطين ، الكنيسة ، والثورة . ــ يمكن أن نقول :

نفس ترتوليان (تناقض ، محال ، عبث ايمان) يدخل في نفس اوغسطين (شك ، ايمان ، فهم) . وكذلك « سليمان مبشرا » الهلنيستي : كل شيء باطل ، غرور ، عبث . رفض كل الاشياء ، رواقية ، مسيحية : اترك كل شيء واتبعني . ان فكرة الطابع الزائل لكل الاشياء **يمكن** ان يكون لها كأثر التحرر غير المشروط ، هكذا لسان ارنست بلوخ . الكنيسة برفضها وقبولها وتدجينها لنفس ترتوليان وأوغسطين جعلت الأثر بدلا من تحرر غير مشروط تسليما غير مشروط على أساس هروب النفس المؤمنة هروبا نهائيا من الدنيا الفانية الى دار البقاء ، سماء المثل الافلاطونية الصائرة جنة حسية مصورة . لكن الامر يمكن ان يكون على نحو آخر : رفض كل الاشياء من أجل الانخراط الصاحي المهيمن والهادف في «الكل» المنبسط في كل الاشياء . رفض الدنيا من أجل السيطرة على الذات شرط السيطرة بالفكر على الدنيا لتغييرها بالعمل المفكور . الانفراز الكامل من أجل الالتزام الكامل ، الالتزام الوحيد الحقيقي . بدون هذا الاساس من تجرد مطلق وهذا البدء من تجريد مطلق ، لا معرفة حقة ولا عمل حق . المادية المطلقة (المادية الجدلية التاريخية) مرتكزة مباشرة ، في البسط التاريخي ، على المثالية المطلقة (جدل هيغل) . وفي منظورها ، منظور البروليتاريا والثورة الكونية الكلية ، هذه هي **الترجمة** النهائية لـ سقراط والفلسفة ، للرواقية والرواقية الاخيرة ، لـ « سليمان مبشرا » والمسيحية الاولى ، لآباء الكنيسة الفلاسفة أعداء الفلسفة ، لـ ترتوليان وأوغسطين . الانفراز من أجل الالتزام ، التزامنا . الالتزامات الاخرى جزئية ، وباتت مخصية ، تنقلب على أهدافها المنشودة . في النفس : مطلق التجرد من أجل مطلق الالتزام . في الفكر : مطلق التجريد اي الكلي المجرد من أجل مطلق العيانية اي الكلي ــ العياني كهدف .

٣ ـ جوردانو برونو

١ ـ ريمون لول Lulle (١٢٣٥ ـ ١٣١٥) ، اسباني ، مات رجما في بجايا الجزائر : على اثر رؤيا نورته اراد ان يبشر المسلمين ... اشترك في مجمع فينا سنة ١٣١١ ، حيث طالب بتأسيس تعليم اللغة العربية في اوروبا ـ حاول اختراع فن كلي ـ كوني للمحاكمة ، فن يعين « وسيلة كشف كل المحمولات الممكنة بالنسبة لموضوع معطى ، وكل الموضوعات الممكنة بالنسبة لمحمول معطى » ، نوع من آلة حاسبة للمنطق . مؤلفاته الرئيسية : الفن الكبير ، كتاب المناظرة بين ريمون وابن رشد ، شجرة العلم ، كتاب المحبوب . ـ هذا الاسباني المهم يقع عند ملتقى الثقافتين الكبيرتين المسيحية الغربية والعربية الاسلامية ، واليهودية في كنفهما لا سيما في اسبانيا (مركزها) . الثقافات الثلاث على صلة وثيقة باليونان وارسطو ، وتعمل في نطاق عالم دين التوحيد وعلى اساس مسئاليته . ـ في هذا الوقت تقع رحلة ماركو بولو الى الصين (١٢٧١ ـ ١٢٩١) .

٢ ـ لايبنتس Leibniz (١٦٤٦ ـ ١٧١٦) الالماني ، واحد من اهم فلاسفة العصر الحديث ، من وجهة نظر الجدل المادي ؛ واصل تيار العقلانية الذي بدأه ديكارت ، واغناه جدليا وماديا ، كطريقة وتصور . انه حلقة مهمة في الطريق القائد الى الفلسفة الكلاسيكية الالمانية . لينين اعجب بكتاب فويرباخ (فويرباخ الاول) عن لايبنتس و بـ لايبنتس نفسه . لايبنتس اخترع ، مع نيوتن وبصورة مستقلة عنه ، حساب التفاضل والتكامل ، اي تحليل اللامتناهيات في الصغر والكبر ، هذا الذي كان انتصارا كبيرا للجدل والفلسفة . لايبنتس واصل ديكارت ، وواصل ايضا مسألة ريمون لول . وضع مذهب المونادات monades وهي ذرات روحية فيها حياة وجدل . اكد مبدأ الفرق البالغ البساطة والابتدائية والاهمية : « لا يوجد شيئان متماثلان » ولا يمكن ان يوجدا (ان حبة رمل لتختلف عن حبة رمل جارتها) ـ علما ان الفكر قائم على الهوية (« حبة رمل ») . يمكن تعريف الجدل بأنه : ميكروسكوب لايبنتس + تلسكوب سبينوزا .

٣ ـ كينونة بارمنيد هي نوعا ما ام الفلسفة ـ المعرفة ـ التجريد . وقد انجبت ـ ان صح القول ـ شتى التيارات والاتجاهات في تاريخ الفلسفة الغربية خلال خمسة وعشرين قرنا : مثالية فلسفية يونانية ، ترفع المقولة الكبرى وسواها (بناتها الفلسفية) الى فوق ؛ ثم تسعى ، في اطار العالم المسيحي ـ اليهودي ـ المسلم ، الى توفيق ذلك مع عقيدة الخلق السامية ، ذاهبة بحكم ذلك الى درجة ما من حلولية ؛ ومادية فلسفية تعتمد هذا « الكائن » ، « الواحد ـ و ـ

الكل » ، النافي والنابذ لـ « كائن » آخر مستقل متعال وخالق لهذا « الواحد والكل » . لسان حالها ضد مثاليي الخلق : هذا الكائن ــ الكون ــ الكينونة انتم بقولكم « خلق » تحذفونه (نجد هذه المحاكمة في فقرة من « مخطوطات ١٨٤٤ الاقتصادية ــ الفلسفية » لـ ماركس) ، . غير ان هذه المادية الفلسفية بالضبط تميل ، هي ايضا وبشكل قوي جدا الى مذهب الحلولية : فالكائن الواحد والكل هو الكائن الكامل وهو كائن ؛ سبينوزا العملاق يكرر بارمنيد في مستوى فلسفي متقدم (ومبنين هندسيا) ويتبنى الدليل الاونتولوجي على وجود الله (الذي ابده من قبل القديس انسيلم ق ١١ وديكارت ومالبرانش) ، يتبناه في اتجاه حلولي مباشرة : الله هو الكائن الوحيد الواحد ، الله اي الطبيعة deus sive natura ، والامتداد (المادة) والفكر محمولاه الاساسيان المعلومان ؛ وهيغل وراء سبينوزا ، مع الدليل الاونتولوجي لوجود الله ، ضد كنط محطم الادلة . وفلسفة عصر النهضة ــ او قسم مهم منها ــ وراء بارمنيد والحلولية ومع الحياتوية (مذهب الحياة العامة) ، بعكس هندسوية ورياضوية سبينوزا ، وكذلك سيكون غوته مثلا . بالمقابل ، المادية التي ارادت نفسها مادية مشددة وطاهرة وخالصة من الملحق الالهي (من الحلولية) ، تبدو مادية خبروية رياضوية كموية : انها جوهريا مادية القرن الثامن عشر التي لا تعي حقيقة ان المادة مقولة فلسفية. ان وعي هذه الحقيقة يقودنا بالتمام الى ان « المنطق والجدل والنظرية المادية للمعرفة هم شيء واحد » ، اذن الى ان لا مادية ولا جدل ولا معرفة ولا طريق حق بدون طريق منطق هيغل البادىء بالمجردات الكليات الاكبر الابسط الاكثر فراغا كمقولات من اجل الوصول الى « الحقيقة التي هي دوما عيانية » ، بعكس كل التصور الخبري الاساسي و « الحس السليم » . هكذا تكون كينونتنا مقولتنا الاولى الكبرى والاكثر فراغا بوصفها اولى ، الفارغة تماما من كل شيء ما عدا انها التعبير الفلسفي عن الذي ــ هو ــ امام ، « خارج الراس » ؛ اي اولا باول التعبير عن انني في مسيرة معرفة ، في مسيرة فكر ونطق ، في منطق ، لا في مخلوطة ذات ــ موضوع ، ولا في مثالية ترفض هذا الشطر ، هذا الفرق : انا افكر اي الكائن هو « امامي » ، في الخارج . لم اشمله بعد ، لن اشمل الكائن ــ الواقع ــ الجملة ــ العياني الا « في النهاية » . نوعا ما ، هيغل (المثالية المطلقة)، لانه اكتشف الطريق (الجدل) المعاكس للخبرية والحس السليم والمادية الخبرية، سقط في الوهم المثالي ، رفض هذا الشطر ، هذا الفرق ، تبنى تماثل او هوية الكائن والفكر في المنطلق . الجدل المادي يتبناه في الغاية والنهاية (التي لا نصل اليها) . . .

٤ ــ **القديس فرانسيس الاسيزي** (١١٨٢ ــ ١٢٢٦) ، ايطالي ، مؤسس رهبنة الفرانسيسكانيين ؛ شخصية لطيفة وعذبة ، هكذا تبدو سيرته الاسطورية؛ الفرانسيسكانيون مثلوا في تاريخ الكنيسة الفلسفي اللاهوتي تيارا يصطدم بالتومائية .

الرهبنة اصلها من الشرق النصراني . في الغرب تغيرت ، انبسطت في **مؤسسات رهبنية** ordres متنوعة ، مضبوطة ، نظامية ، فاعلة في المجتمع : تبشير ، فقر و « تسول » ، مساعدة البؤساء ، دراسة ، تعليم ، شغل زراعي وغيره ، سياسة ، خدمة البابوية الخ . القديس برنار نظم الصليبية الثانية الى المشرق (١١٤٧) . رهبنة الدومينيكان اسسها الاسباني القديس دومينيك من اجل محاربة الهرطقة (١٢١٥) فلعبت على الفور دورها في الصليبية ضد هرطقة الالبيجوا الذين ابيدوا بالنار ... والرهبنات كانت ، بطبيعة الحال وبطبيعة العصر ، مصنعا للفلاسفة وللثوار : روجه بيكن ودنس سكوت وغيوم اوكام من الفرانسيسكان ؛ توما الاكويني وسيد اكهارت وكامبانلا وجوردانو برونو من الدومينيكان ؛ لوثر اوغسطيني الخ .

٥ ـ « **اليونان الكبرى** » هي جنوبي ـ ايطاليا ، بعد التوسع اليوناني في البحار . هنا تقع بلدة نولا Nola مسقط راس جوردانو برونو . وهنا ايضا مدينة ايليا او ايله Elée ، حيث كانت المدرسة المعروفة باسمها والمتمثلة بـ كزينوفان ثم بارمنيد ثم زينون الايلي (ق ٦ ثم ق ٥) ، ومدينة كروتون Crotone حيث تأسست المدرسة الفيثاغورية (٥٣٠ قم) .

المدرسة الايونية سبقت المدرسة الايلية. ممثلوها : طاليس من ميليت مخترع الفلسفة ، وانا كسيماندر ، وانا كسيمين ، وهيراكليت من افسس ، الذين عاشوا في القرن ٦ قم ، في ايونيا ، اي على شاطىء آسيا الصغرى الغربي ـ الفلسفة بدات في ايونيا ، ثم انتقلت الى « اليونان الكبرى » ، ثم الى الوسط والمركز : شبه جزيرة اليونان ، اثينا .

سقراط (٤٧٠ ـ ٣٩٩) ، وقبله ومعه ، السوفسطائيون (بروتاغوراس ، غورجياس) ، وانا اكساغور ، وامبيدوكل ، والذريون (لوسيب ، ثم ديموقريط)، عاشوا في القرن الخامس . ثم افلاطون وارسطو (ق ٤) .

٦ ـ **نقولا دو كوزا** (١٤٠١ ـ ١٤٦٤) الكاردينال ، السياسي ، العلامة المتعدد الميادين واللغات (عربية ، عبرية) ـ انظر مقدمتنا ـ يدخل في خط الايزوتيرية . يؤلف كتابا دفاعا عن نفسه وعن اسلافه ، افلوطين وسيد اكهارت ومتصوفة آخرين . هذا التصوف الرياضي السحري الهندسي الخ يحمل الجدل. حسب الكاردينال الكبير : الافكار (المثل) والمفاهيم ليست جامدة هامدة بلا حراك . كل مفهوم ، عند حد او نهاية بسطه ، يتطابق مع معارضيه . الفهم له كدور وكوظيفة تركيب المتناقضات في وحدة واذا كان هذا التركيب ممكنا فلان انعكاس الالوهة حاضر في النفس . الله داخل الانسان اكثر من نفسه . الوحيات

الكشفات ، التنزيلات متعددة ، والعقائد والطقوس توازي حقائق جزئية . « من خلال تنوع واختلاف الاسماء الألهية ، انت يا رب يسمون ، فأنت هكذا وهكذا تبقى لا تعلم ولا تقال » . كوزا يمضي من تعالي لاهوت سلبي الى تحايث لامنته راهن . لكنه يعلم أن الانسان العادي لا يستطيع فهم الكنز الذي يفهمه . المعرفة الحقة ايزوتيرية باطنية . لكنها ليست « سرية » ، بل هي تعلن نفسها على الملأ ، شعارها : « الحكمة تصرخ في الساحات العامة ، وما تصرخه هو انها تسكن فوق القمم » . هذا كان ، قبل قرون ، موقف التصوف الاسلامي العربي السنيالشعبي (والمنبوذ من الشعب والسنة) .

٧ — **آلان من ليل** (١١١٤ — ١٢٠٢) ، فرنسي ، اسقف ، استاذ في جامعة باريس ، لقب بـ « الدكتور الكلي » . كافح مذاهب الهرطقة . الله ، المعرف كبديهية رياضية ، ينتج المتعدد ، المتكثر ، الذي هو « كرة مركزها في كل مكان ومحيطها الدائريليس في اي مكان » ، (باسكال Pascal ،ق ١٧ ، سيسترجع هذه الصيغة) . الطبيعة قانون الاشياء واداة الله ؛ عملية الله بسيطة ، عملية الطبيعة متعددة . آلان دو ليل اهتم ايضا بالسيمياء والعلوم السرية والمغلقة .

يوهان **اكهارت** ، المعروف بـ **سيد اكهارت** (نحو ١٢٦٠ — ١٣٢٨) هو سيد التصوف . الماني ، درس في باريس ، صار مستشارا للبابا بونيفاسيو الثامن في روما ، ثم رئيسا اقليميا لرهبنة الدومينيكان ، ثم استاذا للاهوت في ستراسبورج ... يضع المعرفة في معارضة الكينونة . حسب توما الاكويني ، وهو من نفس الرهبنة ، الله لا يعرف بسبب ضعف فهمنا . سيد اكهارت يؤكد ان هذا اللا افصاح جوهري في الله . الله الاسمى بلا اسم . ليس خيرا ، ولا حكمة ولا روحا ولا جوهرا ولا شخصا ولا صورة . فوق كل شيء تسود الالوهة، التي لا تصير الله الا نسبة الى البشر . على الصعيد الروحي ، الالوهة تتماثل مع الجزء غير المخلوق من النفس ، ويسميه اكهارت « شيئا مـا » (etwas) او « حصنا » ، « قلعة » ، « شرارة » ، « سفينة او عرشا لم يخلق » . اكهارت يدعو الى الطهر ، الفضيلة ، التجرد ، رفض كل مفهوم ، التخلي عن كل مشروع. المعرفة تصير الوحدة . « اقول : في الاله ، لا ألم ، لا حزن ، لا ويلات » . الحكيم وقد تأله « لا يريد شيئا سوى الذي يريده اله هو ، بدوره ، فوق كل ارادة » . البابا يوحنا الثاني والعشرون ، في ١٣٢٩ ، ادان ٢٨ قضية من قضايا سيد اكهارت .

٨ — **زيوس** او زفس Zeus سيد الالهة في الميتولوجيا اليونانية . جبل **الاولمب** الاهم يقع في الشمال بين تساليا ومكدونيا وهو مقر الآلهة ؛ هناك في اليونان القديمة عدة جبال تحمل هذا الاسم .

شكل ، قطع ، حد ، مفهوم . هذا موقف يوناني اساسي . **حد** اي نهاية ، حدود limite , terme , fin ، وحد terme **في المنطق الشكلي** او الصوري او القطعي القاطع ؛ والقضية ربط بين حدين (**جان هو انسان**) . فكرة الحد والتحديد والقطع هي اذن فكرة المفهوم . الحكم علاقة ربط بين **مفهومين** ، القضية علاقة ربط بين حدين ، الجملة علاقة ربط بين اسمين او كلمتين (**بواسطة** كلمة رابطة في اللغات الهندو اوروبية هي être فعل الكينونة) – **في اللغة الفرنسية**: « شكلا » = « قطعا » ؛ ordre formel = أمر قطعي ، وليس « شكلي » (بالمعنى الدارج عربيا) . بل عكسه . من forme الفرنسية (او form الانكليزية) تأتي information = اعطاء شكل ، تشكيل ، « اعراب » (افصاح) ، اي **اعلام**، اخبار ، « اعراب » ضد العجمي والبربري . والعجمي البربري = اختلاط ، تشوش ، فوضى ، خواء chaos ، عدم . في الفلسفة اليونانية الاساسية ، « شكل » تغدو ذات صلة ، صلة ابوة ، بـ عقل وروح الخ . واليونان ، حاملة هذا الموقف اليوناني الاصيل والحاد ، لم تكتف به ؛ من البداية كانت قد اخذت الموقف « الشرقي » والجدلي (هيراكليت ، ثم الذرية) ، حملت الجدل ، وسعت الى تركيب الموقفين الشرقي واليوناني المتقدم ، وفعلت ذلك بأشكال ونتائج متنوعة ؛ كان الاغريق يشعرون ويعون ان هذا المستوى الذي يقيمونه ويبسطونه – مستوى الفهم entendement – متجاوزين الشرق ، يجب ان يتجاوز الى مستوى العقل – التصور – الجدل ، وان هذا العقل – الجدل يجب ان يكون حاكما من البداية الى النهاية ، اذن ان يكون هو في إساس الفهم الذي هو **منطق**، منطق ارسطو وهيغل .

انا كسيماندر (ق ٦) : تلميذ طالس « مخترع الفلسفة » ، واحد اهم فلاسفة المدرسة الايونية ، الفيزيقية والحيواتوية ، اولى مدارس الفلسفة اليونانية . اخترع آلة لقياس الزمن بواسطة اتجاه ظل الشمس ؛ فكر بانشاء خريطة للارض ؛ علم ميلان مسار الشمس الظاهري حول الارض في سنة ؛ وقال بأن البشر مشتقون من الاسماك . اراد تفسير العالم المحسوس ، الذي اسماه اللامنتهي ، ماهية او مادة لا بداية لها ولا نهاية . الاضداد تنفعل فتتظاهر ؛ الولادة إنفصال الاضداد ؛ الموت عودة الاضداد في اللامنتهي الذي يوحدها – بقيت لنا قطعة من مؤلفه الذي عنوانه « في الطبيعة » .

٩ – **ارسطو** (ق ٤) كان تلميذ افلاطون ، لكن حسه كملاحظ وقبضه على تاريخ الفلسفة وانبساط مذاهبها يجعلانه يغير ويعدل . يعترض على الوجود « الواقعي » الكائني المفردي للممثل وعلى نظرية تسلسل المثل ، مؤكدا الخارجية والمادية (الطابع الخارجي المادي للاشياء) ومقيما المنطق على بنية وعلاقات المفاهيم . يميز عشر مقولات – اصناف (ماهية او جوهر ، كم ، علاقة ، كيف ،

فعل ، انفعال ، محل ، زمن ، وضعية ، اسلوب كينونة) ، هي وجهات نظر ممكنة الى الاشياء ، وخمسة انماط عامة تسمح بالافصاح عن شيء او امر نسبة الى آخر (الجنس ، النوع ، الفرق ، الخاص الذاتي propre ، العرض او الحادث). الخبرة ضرورية للفهم . ارسطو يؤكد على الفاعلية والحركة ، ويرفض نظرية الفكر او المثل الازلية المجردة السرمدية . **الواقع هو نتيجة حركة للمادة نحو الشكل .** انه **الفعل** ، اي الكينونة في تمامها المليء ، في توقعنها الكامل ، بمعارضة **القوة** اي الامكان او الممكن . الزهرة **قوة** (امكان) الثمرة و**فعل** البرعم . الله ، بما انه فكر خالص وبلا مادة ، هو **الفعل** الخالص . الطبيعة جهد من المادة نحو الفكر ، نحو الفهم او الذكاء ، نحو الفعل الخالص . الله ، الفكر الكامل ، يفكر نفسه ، فالفكر الكامل لا يمكن ان يفكر سوى موضوع كامل . الله هو « فكر الفكر » .

١٠ ـ **الرواقية** خط فلسفي واخلاقي طويل ، يوناني ثم روماني .

زينون القبرصي او الفينيقي (نحو ٣٢٢ ـ ٢٦٤) علم في اثينا ، في رواق الرسم ، واسس نحو سنة ٣٠٨ المدرسة الرواقية . الفلسفة هي « علم الامور الالهية والبشرية » . النفح الالهي في اصل العالم . ـ عقلانيته تأخذ اسهامات هيراكليت والمنطق الارسطوي والفلسفات الكلبية . انها في خط اللوغوس : عقل ـ ربط ـ منطق ـ نطق ـ لغة الخ .

كليانت Cléanthe (٣٣١ ـ ٢٥١) خلفه على رأس المدرسة الرواقية واعتبر مؤسسها الثاني . كان قبل ذلك ملاكما ، ثم ايضا اضطر الى مزاولة أعمال ليلية شاقة كي يكرس نفسه للفلسفة . هو واضع نظرية **العلل المنوية** او اللوغوس الباذر المنجب كتعليل لتنظيم وتعضي الكائنات الحية . الله « نار فنانة تقوم منهجيا بانتاج الاشياء وبطيعها العالم » .

كريزيب Chrysippe (ق ٣) هو المؤسس الثالث . الخير الاسمى ، في نظر الرواقيين ، هو الفضيلة ، اي الوفاق مع الطبيعة . حسب كريزيب ، « ان تعيش حسب الفضيلة هذا يساوي ان تعيش وفق خبرة الاشياء التي تحصل بشكل طبيعي » .

سينيك Sénèque (ق ١ م) ، ولد في قرطبة ، مات في روما . علم نيرون ، ثم حاول ان يعدل من عنف تلميذه السابق ، فأمره هذا الاخير بالموت بعد ان اقحمه في قضية مؤامرة ، ففتح الفيلسوف شرايينه . صاحب مؤلفات عديدة. متأثر بالافلاطونيين والفيثاغوريين . السعادة قوامها الفضيلة ، وعلى الانسان ان يثقف ارادته . اثر تأثيرا كبيرا على آباء الكنيسة ، ثم على مؤلفي المسرح في العصر

الاليزابتي ، وعلى مونتيني Montaigne الفرنسي (ق ١٦) وعلى صديقه الفيلسوف بيار شارون .

ابكتيت Epictéte (ق ١ م) ، ولد ومات في اليونان ، عبد معتق عاش بعض حياته في روما ثم رحل بعد طرد جميع الفلاسفة منها . عاش حياة فقير مدقع . حسب الرواية ، كان سيده ذات يوم يلوي رجله فقال له العبد الفيلسوف: « ستكسرها » ، وحين انكسرت فعلا ، اضاف : « قلت لك ذلك ! » . الرواقية في زمنه اصبحت اخلاقا جافة ، لا تتحسس ، شموخها بات غرورا . « تحمل وامتنع » . حتى نعيش وفق العقل يجب ان نعيش وفق الطبيعة ، ان نتجنب الانفعال ، الهوى ، هذا « المرض للنفس » ، منبع اغلاطنا . كي تكون حرا، سعيدا، قويا وكاملا ، يجب ان لا تتأثر ، يجب ان تبلغ حالة الـ **اتاراكسيا** Ataraxie

مارك ــ اوريل Marc - Aurèle (ق ٢ م) امبراطور روما . الحالة السياسية اضطرته الى الحرب والقسوة ضد برابرة الدانوب وضد المسيحيين في مدينة ليون . شهد عهده اصلاحات حقوقية . تأملاته ، التي كتبها باليونانية ، تكشف عن رواقية محض اخلاقية ، ومتشائمة : « اذا كان ثمة رب ، فكل شيء على افضل ما يكون ؛ اما اذا كان كل شيء يسير « على العميانه » ، فانت ذاتك لا تمش « على العميانة » .

النفس الرواقي دخل في المسيحية كعنصر مكون يلتقي مع عناصر اخرى ، عنصر تجرد ، انفراز عن الدنيا ، انسان مواطن العالم (لـ العشيرة ، الله ، الامة، العائلة الخ) ومنفرز خارج العالم ، مواطن ــ فرد ... يضاف الى ذلك ان فكرة اله ــ رعاية providence تظهر عندهم لاول مرة ، في تاريخ الفلسفة ، عند مارك ــ اوريل بالذات . ــ الله الفلسفي اليوناني كان مبدأ نظام وذكاء ؛ وهو صانع ومعماري (افلاطون) او محرك اول لا يتحرك وفكر الفكر (ارسطو) . ليس الها خالقا ، وليس بغير حدود او نهاية ، وليس كلي ــ القدرة ، وليس الها شخصيا، وليس اله ــ رعاية يكن له الانسان مشاعر ثقة ومحبة .

١١ ــ **ابن جبيرول** (ق ١١) عاش في الاندلس . فلسفته في خط ارسطو والنيو افلاطونية . الماهيات مؤلفة من مادة وشكل ، وكذلك الماهيات الفاهمة او الذكية ، العقل . كتب اناشيد دينية يهودية ، وتعليقات على التوراة . وصل الى نوع من حلولية : لا تعارض قيمة بين عالم ما فوق الطبيعة والخليقة . ارادة الله متماثلة مع حكمته ومع كلمته (لوغوس) . قوة الله نافذة الى كل شيء ، موجودة وفاعلة في كل شيء . كتابه « نبع الحياة » ترجم الى اللاتينية (ق ١٢) ثم الى العبرية (ق ١٣) . ــ اللغة العربية كانت الواسطة الحاملة لاعمال اللاهوت اليهودي الرئيسية في العصور الوسطى : باهيا بن باقودا Paquda صاحب

« مدخل الى واجبات القلوب » (حوالي ١٠٨٠) عاش في الاندلس . موسى بن ميمون (ق ١٢) صاحب « دليل التائهين » عاش في الاندلس وفاس والقاهرة . هؤلاء وغيرهم ـ وبخلاف غيرهم من اليهود ـ تخطوا الطائفة والقومية الصهيونية، غطسوا في العالم الاسلامي ـ المسيحي ـ الارسطوطيلي ـ الصوفي ، تساءلوا بجد عن مصائر الانسان ، فكانوا موازين لاخوان الصفا وسيد اكهارت وآخرين .

لوغوس : كلام ، كلمة ، نطق ، عقل ، منطق ، وايضا حساب او رياضة . شقيقة « لغة » العربية . فكرة هامة جدا ، اولى واساسية، في الفلسفةاليونانية، حيث تعطى اتجاهات ومآلات مختلفة بحسب المذاهب ؛ احد هذا الاتجاهات هو اللوغوس المنوي للرواقيين الاوائل . « لوغوس » موجودة في مطلع انجيل يوحنا : « في البدء كانت الكلمة ؛ والكلمة عند الله ؛ والكلمة هي الله » . فلسفة عصر النهضة على خط اللوغوس المحايث . اللوغوس يعود بقوة عند هيغل .

١٢ ـ **الفيثاغوريون** ينسبون نفسهم الى **فيثاغور** الذي يكون قد عاش في القرن السادس ق‌م ، وسافر الى الشرق ، ثم عاد ومات حوالي سنة ٥٠٠ في موقع غير مؤكد وغير متفق عليه . المدرسة الفيثاغورية تأسست نحو سنة ٥٣٠ في مدينة كروتون في « اليونان الكبرى » ، كالمدرسة الايلية، وفي المرحلة نفسها. **فيلولاوس** اول السلالة الفيثاغورية . اكتشافاتهم عديدة في الرياضيات والفلك والموسيقا . على حد قول فيلولاوس : « كل الاشياء المتاحة لنا معرفتها تملك عددا وليس من شيء يمكن تصوره او معرفته بدون العدد » . العدد ليس مفهوما، بل هو يمثل بالحقيقة بنية الاشياء . النفس عدد ، ينتقل بعد موت الجسد ، سواء صعودا نحو الله ، او اتحادا مع العالم الحسي ـ الفيثاغورية دخلت كعنصر مهم في مذهب افلاطون . التقليد الفيثاغوري انتقل الى الاسكندرية ، دخل في النيو افلاطونية ، وتواصل عبر القرون الفيثاغورية فرقة دينية اخلاقية مع رياضيات وسحر وموسيقا .

تيماو Timée احدى اشهر محاورات افلاطون ، فيها نظرية المثل idées

١٣ ـ **الاينييد** Enéide ملحمة الرومان ، ألفها الشاعر فيرجيل (ق ١ ق) على موضوع قومي اسطوري ، تقليد ماهر للالياذة والاوذيسه .

١٤ ـ في التوراة : **يعقوب** اغتصب من اخيه الاكبر عيسو ، بالابتزاز وتآمر الام وخداع الاب ، حق الابن البكر ، لقاء صحن عدس .

١٥ ـ **شافتسبري** (١٦٧١ ـ ١٧١٣) فيلسوف انكليزي ، كونت (نبيل) عضو في مجلس العموم (الكومونات) ثم في مجلس اللوردات ، ثم عاش في ايطاليا لاسباب صحية . فيلسوف متفائل يرى ان الشر اخلال مناهض للطبيعة يسرع نظام الطبيعة الى مكافحته . الترتيب ، الجمال ، الخير الكلي هم أسس الاخلاق . فيه نفس من النهضة .

شيلر وغوته وهلدرلين ، شعراء المانيا الثلاثة ، عاصروا الثورة الفرنسية ونابوليون والثورة الصناعية .

بان Pan بالاصل اله يرعى قطعان الماشية ، يظهر في موكب ديونيزوس ، يجوب الوديان والجبال ، صائدا أو ضابطا رقص الحوريات مستعينا بالمزمار الذي اخترعه ، له قرنا ورجل عنزة ، كان ظهوره يسبب هلعا (الامر الذي اعطى كلمة panique هلع ، هروب) ـ ثم جعل ممثلا للكل الكبير الحي الجامع .

١٦ ـ لا بأس من التذكير بأن الماركسية ، وهي بنت « اوروبا » ، بنت البروميثيئية ـ الفاوستية ، او لنقل بنت الآدمية ـ البروميثيئية ـ الفاوستية ، قد وضعت كمهمة للتاريخ سيطرة الانسان على عواقب أعماله ، والانتقال به بعد طول جهاد من الانسان ـ النوع الى الانسان ـ المجتمع ، وتصالح الانسان « مع نفسه » و « مع الطبيعة » (انجلز) .

٤ ـ توماسو كامبانلا

١ ـ **ريشوليو** Richelieu ، كاردينال ، وزير الملك لويس ١٣ ، حاكم فرنسا الفعلي وقائد سياستها من ١٦٢٠ الى ١٦٤٠ . خط عمله : تخفيض آل النمسا الكاثوليكية بالتحالف مع الامراء البروتستانت الالمان ومع السويد (اذن مواصلة سياسة هنري الرابع القومية) ؛ تخفيض الكبار داخل فرنسا (اعدم عدداً من كبار النبلاء) ؛ ضرب البروتستانت في فرنسا على الاقل كحزب ؛ اذن تعزيز المونارشية المطلقة والمركزية . ـ اسس الاكاديمية الفرنسية ، مجمع الاربعين خالدا .

« الملك ـ الشمس » ، **لويس الرابع عشر** ، الطويل العمر (ملك من ١٦٤٣ الى ١٧١٥) ، تابع الخط السابق ، بلغ ومعه فرنسا ذروة الهيمنة والمجد ، لكنه سلط اضطهادا مخيفا على البروتستانت (الغاء مرسوم نانت ، ١٦٨٥) مما الحق بالغ الضرر بفرنسا وتقدمها ، واستمر في حروب لا تنتهي افرغت فرنسا الارياف والاقاليم من مادتها .

٢ ـ **حرب الثلاثين عاما** (١٦١٨ ـ ١٦٤٨) : اراد امبراطور النمسا وممالكها الكاثوليكية توحيد المانيا تحت سلطته ، واعادة قسمها البروتستانتي الى الكاثوليكية ، واخضاع الثوار التشيك ؛ احرز انتصارات عديدة ، دخلت السويد الحلبة؛ ثم دخلت فرنسا الحرب وضدها اسبانيا حليفة النمسا. انتهت الحرب بتراجع النمسا (لكن الحرب بين فرنسا واسبانيا استمرت عشر سنوات اخرى) . النتائج : نمو مملكة فرنسا الدولة القومية ، تثبت التجزئة الالمانية ، وخصوصا خراب المانيا واستفحال تأخرها عن الغرب .

دوق آلبا Albe (ق ١٦) جنرال اسباني في جيوش الامبراطور شارل الخامس (امبراطور النمسا وملك اسبانيا صاحبة الامبراطورية فيما وراء البحار)، ثم (بعد تنازل هذا الاخير واعتزاله في دير) في جيش ابنه فيليب الثاني ملك اسبانيا . قمع ثورة البلاد المنخفضة وحكمها بالارهاب . ثم طبق نفس السياسة في البرتغال التي تمردت على السلطة الاسبانية . وذهب اسمه مثلا . ـ القسم الشمالي من البلاد المنخفضة انتصر على الحكم الاسباني واستقل تحت اسم جمهورية الايالات المتحدة او الاقاليم المتحدة (هولندة) سنة ١٥٧٩ ، ونال اعتراف اوروبا في المؤتمر الذي انهى حرب الثلاثين عاما (١٦٤٨) . وصارت هولندة البلد البرجوازي المتقدم ، قلعة الحرية والبروتستانتية ، وسيدة البحار الى حين ، ثم انتقلت هذه السيادة الى انكلترة . اما القسم الجنوبي من البلاد المنخفضة (بلجيكا) فقد سقط تحت حكم أسبانيا والكنيسة والاصلاح المضاد ، صارت بلجيكا مركزا لحروب لويس الرابع عشر ، وتأخرت كثيرا عن هولندة حتى زمن الثورة الصناعية واستقلال بلجيكا (١٨٣٠) .

٣ ـ **بارانويا** ، زور : نفاس (مرض نفسي) قوامه غرور مبالغ ، انانية ، حساسية مفرطة ، حذر وشك ، جنون عظمة وعقدة اضطهاد .

فكرة « **المونارشية الكونية** » فكرة وسطوية الحلم الروماني المسيحي الجامع راود الكاثوليكية ، وحققته جزئيا بشكل محدود وعابر . مسار الغرب يختلف جذريا عن الشرق المسيحي البيزنطي (امبراطور وفي ظله بطريرك الفنار وبطاركة المشرق من « الروم ») وعن المسلمين العرب ثم الاتراك (خليفة هو امير المؤمنين). في الغرب البربري لا يبقى سوى بابا وملوك قبائل الجرمان ؛ ثم يفلت هذا الغرب نهائيا من المسار الشرقي ، بعد انتهاء وحدة جوستنيان الجزئية والعابرة (في القرن السادس) . حوالي سنة ٨٠٠ تقوم امبراطورية الغرب هي امبراطورية شارلمان ، ومعها او قبلها بقليل (وبالتعاون بين ملك الفرانك والد شارلمان والبابا) دولة الكنيسة هذه تعيش حتى سنة ١٨٧٠ . اما الامبراطورية فتنقسم بين اولاد شارلمان الثلاثة . الحلم « الروماني » السياسي ينبعث في القرن العاشر في وسط اوروبا ، لكن فرنسا وانكلترة واسبانيا خارجه . تبدو صورة اوروبا الكاثوليكية

في القرون ١١ — ١٥ مغايرة جوهريا للشرقين الاوروبي والاسلامي : امبراطور محدود كأقاليم ومحدود كسلطة ، وبابا آمر الايمان هو ملك او امير على دولة ، وملوك في الغرب آخذون في النمو على راس امم — دول — بالمقابل ، الخليفة هو بآن معا بابا آمر على الايمان والمؤمنين وامبراطور ، او بالاحرى امبراطور وبابا بآن ؛ وحيث يظهر ملوك ، امزاء ذوو شأن ، فانهم ينصبون انفسهم امارا للمؤمنين خلفاء — . في القرن السادس عشر ، الحلم الروماني لجامعة الايمان الحق يراود اسبانيا ، وشارل الخامس امبراطور النمسا واسبانيا وممالكهما (بموجب الوراثة وبالفتح الاستعماري وراء البحار) ، والبابا والكنيسة واليسوعيين. البروتستانتية تذهب ضد هذا الحلم . وكذلك فرنسا بشكل دائم وثابت . رغم ذلك ، رغم هذا الفرق بين الكاثوليكية والبروتستانتية ، وبالاصح بسببه جزئيا على الاقل ، نلاحظ ان الفروق بين الامم الكاثوليكية (اسبانيا ، فرنسا ، ايطاليا ، بلجيكا ، النمسا ، عدا عن اميركا اللاتينية) اكبر قطعا منها بين الشعوب البروتستانتية او الشعوب ذات الاكثرية البروتستانتية ، هذا اولا . وثانيا ان هذه الشعوب البروتستانتية تدخل في حروب فيما بينها وتعي انها حروب امم — دول — مصالح ، وهي تتناجد في الملمات لا من اجل « الايمان الحق » مجردا بل من اجل « البروتستانتية والحرية » . لقد دخلت في العصر الحديث .

٤ — **اوغسطين** (٣٥٤ — ٤٣٠) مدشن ومحيي الفكر الكاثوليكي والفلسفة المسيحية الغربية . ولد في ثاغاستا (« افريقيا الرومانية ») ، درس في قرطاجة، ومات في عنابة . عاش قسما من حياته في ايطاليا . كان نصيرا للمانوية ثم اعتنق المسيحية . قرأ افلوطين وبولس الرسول . اصبح اسقفا لـ عنابة وامضى بقية حياته في الدفاع عن المسيحية ومكافحة الهرطقات . زمنه هو عصر سقوط العالم القديم برمته ، عصر تمام الازمة والتخمر في حوض البحر الابيض المتوسط ، ملتقى الروافد الثقافية ، ومنطقة التوتر العالي . اوغسطين يسعى الى توفيق الإيمان والفهم . « انا أؤمن لكي افهم » . ما تعرفه الروح (الذهن) على النحو الاعمق هو ذاتها ، والشك في وجود الذات هو برهانها . « اذا كنت اخطىء فأنا كائن » . الشك « هو الايمان الضمني بوجود الحقيقة والرغبة في معرفتها » . الحقيقة هي الله ، الغاية الاخيرة لكل الاشياء ، الله الذي فيه تنعدم التناقضات. في سعيها الى الله ، تريد النفس ان تحيا . « الانسان والله هما احدهما ازاء الآخر في علاقة ارادة : ارادة انسانية مقابل ارادة الهية » . وجود الله شرط الخلاص ؛ النعمة هي التي تنقذ . اوغسطين فرض عقيدة الخطيئة الاصلية . الرحمة الالهية هي وحدها ترفع عن كل انسان هذا العقاب العادل والمستحق ، ان هذه النعمة لا حق لاحد فيها . هذا ، مذهب التقرير المسبق الازلي والمطلق (« الجبرية ») ، سوف يكون مذهب جانسينيوس * والجانسينيين (مثلا :

* — وهو لاهوتي هولندي ، واسقف كاثوليكي ، مؤلف « الاوغسطينوس » ، ١٦٤٠ .

باسكال Pascal) الذي ستدينه الكنيسة . توما الاكويني مع التحكيم ـ الحر (« التخيير ») لوثر ، كالفن ، الى حد كبير ، على خط أوغسطيني . لوثر تخرج من رهبنة الاوغسطينيين ـ .

قيمة أوغسطين نلخصها فيما يلي : أ) اوغسطين « مخترع الجوانيــة » ، « اخترعها بفضل المسيحية » ، على حد قول **ارنست بلوخ** . والمسيحية الكاثوليكية سوف تستوعب التصوف ، جاعلة بعض كبار متصوفيها قديسين (جان دولا كروا اي جان الصليب ، وتيريز من آفيلا اوتيريز الكبرى) ـ كمــا وتستوعب الفلسفـة جاعلة من أوغسطين والاكويني قديسين ـ . لوثــر عــلى هــذا الخــط : جوانية، ذاتية، وجدان: «الله ونفسي»... ٢) بالارتباط مع هذا، أوغسطين حامل بقوة لحظة الشك ، الشك الذي ليس بدونه ايمان ، ولا معرفة ، فلسفة ، علم ، بل فقط غريزة ووثنية وشرك. أوغسطين حامل لحظة الشك في المستوى السيكولوجي، ديكارت ينقلها الى المستوى الفكري والفكروي ، كامبانيـلا بـين الاثنين . المستوى السيكولوجي أول ، أساس ، قاع . ٣) عـن عقيـدة التقرير ـ الالهي ـ المسبق (الجبريـة ، القــدر) المسيحية (الاوغسطينية ، الجانسينيـة ، الكالفينيـة ، اللوثرية ، الخ) والاسلامية ، يجب القول : انها ضد التوفيقية ، اذن هي تحفظ حق الجدلية (والقدرة فكرة هيراكليتية) . الموقف الآخر ، فكـرة التحكيم ـ الحر او التخيير ، توفيقي ، جيد كتنظير لاهوتي لمستوى مباشر ، للعمل الانساني في مستوى عادي ومحدود ، يتفق مع « العقل السليم » او « الادراك السليم » الشعبي : هنـاك حالات أجد فيها نفسي مخيرا ومواقف بالعكس ... ٤) عن عقيدة الخطيئة الاصلية، يقول هيغل : « لولاها لما كانت المسيحية هي دين الحرية » ، أي لنقل دين الجهاد ، وفي صيغة اسلامية ، الجهاد ضد « النفس الأمارة بالسوء » . في الاسلام ، صيغة « النفس أمارة بالسوء » لم تأخذ القيمة أو القوة أو الاطلاقية التي تتخذها « عقيـدة الخطيئة الاصلية » في المسيحية ـ هذا الفرق ليس بين كتابين مقدسين أو عقيدتين منزلتين ، بل بين دينين واقعيين أو واقعين في الدنيا ... ٥) أوغسطين مخترع منظور التاريخ كخط ، خط تقدم ، الى أمام ـ من الخلق الى يوم الدينونة (بدايـة ونهاية) ، مرورا بطوفان ومأساة وقبائح ، ومسيح آلام وموت وقيامة ـ مع جدل ، وان على جناح أو على أساس « علم الخلاص » ، وان مصوفا باللاهوت ، هذا بخلاف التصور الصيني والهندي واليوناني لتاريخ يدور ولا يفضي بالنتيجة الى تقـدم والى جديد . عملية أوغسطين تستند هنا الى المسيحية، الى دين التوحيد السامي العربي أو الابراهيمي صاحب فكرة الخلق (الخلق من العدم : بداية حادة مطلقـة) وفارز الانسان عن الطبيعة والكون المادي . ولا بأس من التذكير بأن الكتـاب ـ المقدس ذو بنية تاريخية . من الجدير بالاشارة أن **ايف لاكوست** في كتابه الثمين عن ابن خلدون ينصف أوغسطين في صدد علم التاريخ ، يسجل مأثرته بوضوح . ـ من جهـة أخرى ، نذكر أن **روجه غارودي** ، في كتابه القديم ، (حين كان أشهر كتاب الحزب الشيوعي الفرنسي وأكثرهم نشرا) ، الصادر سنة ١٩٤٩ ، وعنوانـه « الكنيسـة والشيوعية والمسيحيون » ، المكرس في معظمه لكشف او تسجيل مخازي الكنيسة

من عهد محاكم التفتيش الى الموقف من هتلر * مرورا بالقرن التاسع عشر ، ينتهي في قسم أخير ، فلسفي ، الى تثمين اوغسطين : جدل ـ جهاد ـ تاريخ . هذا حق! بما أن الجدل ليس قطعات ـ تركيبات جدلية فوق أساس خبري يتصور انه هو المادية وما هو بالحقيقة سوى « المادية » بين مزدوجين التي المادية الجدلية أن هي الا لحن طويل ضدها .

٥ ـ **ماني** عاش في القرن الثالث الميلادي ، ولد في ماردين (شمالي سوريا الداخلية ، حاليا : في تركيا) . **زرادشت** ينسب الى القرن السابع قبل الميلاد ؛ مؤسس دين الايرانيين (ميديين ، فرس ، فارث الخ) القديم ، المعروف بالزرادشتية أو المزدائية (نسبة الى أهورا مازدا أو أورموزد) أو المجوسية : صراع مبدأين ـ الهين : خير وشر ، نور وظلام ، صحة ومرض الخ ، لكل منهما معاونون ، « عباقر » ، والشياطين أو الأبالسة هم بعض عباقر الاله الثاني . ـ هذا الخط الثناوي انتقل الى الغنوص ، ثم الى هرطقة البوغوميل (بلغاريا ، يوغوسلافيا) والى هرطقة الاطهار ـ الألبيجوا Albigeois في فرنسا (ق ١٢) ...

٦ ـ maniérisme : **تكلف** ، تصنع . حقبة انتقالية قصيرة (في ق ١٧) من النهضة (ق ١٥ ، ١٦) الى الباروك (ق ١٧ ـ ١٨ ، خصوصا ١٦٣٠ ـ ١٧٥٠) ، في تاريخ الفن . علما بأن الفن تعبير عن الروح وشكل من أشكال التملك . **باروك** baroque كلمة من أصل برتغالي ، تعني أو توحي ب : غير قياسي ، شاذ ، غريب ، فريد . ـ كنموذج نظري لبسط أو تقدم تاريخي للفن يمكن تمييز ثلاث مراحل : ١) بدائية عفوية ساذجة لطيفة . ٢) كمال شكل ، بساطة ، « كلاسيكية » . ٣) اعتراض على هذا الشكل والعقل ، عودة الى العاطفة والانفعال بشكل جديد . في هذا التصور **النظري** ، يكون فن النهضة مرحلة « كلاسيك » هيأها البدائيون أو الأوائل في ايطاليا والفلاندر وغيرهما ، ويعقبها الباروك بوصفه المرحلة الثالثة ، عبر فترة الانتقال التصنعية . ويكون هذا الباروك استقرارا أو قرارا جديدا نابعا من النهضة والفترة الانتقالية بآن ومتقدما . ـ **الباروك** العظيم يرد الاعتبار للحركة ، للخط المنحني ، الدائرة ، يطلق الخيال خارج الشكل السابق . انه فن لوعة وصدق وعظمة (وقوة وضخامة وديكور كبير) . وهو تاريخيا فن البلاد الكاثوليكية الخارجة من الاصلاح المضاد ، بدفع من زخم النهضة التي نوعا ما هو يواصلها ، وبسطا للطاقة الروحية التي تقمع في ميدان الفكر بدرجة واخرى . يبدأ من ايطاليا ، يزدهر من ١٦٣٠ الى ١٧٥٠ ، يشمل النمسا ، بلجيكا ، بافاريا ، اسبانيا ، أميركا الاسبانية .

* ـ لكن بروح انصاف لا بأس بها ومعلومات قد تفاجىء القارىء : عدد رجال الدين الكاثوليك ـ فضلا عن البروتستانت ! ـ الذين وقفوا في وجه السلطان المجرم ... سيفاجىء القارىء العربي والماركسي .

اما فرنسا فتتوجه مباشرة نحو الكلاسيك . في اسبانيا يتخذ الباروك شكلا قوميا اسبانيا (مع عناصر أو معطيات عربية أندلسية) . الفن البرتغالي يتأثر بالهند . الباروك فن عمارة ، كنائس وقصور ، مع امتدادات من ديكور وتماثيل ورسم ، وهو أيضا فن نحت ورسم مستقلين. الرسام البلجيكي روبنز Rubens (١٥٧٧ - ١٦٤٠) ينتسب الى الباروك (خط منحن ، دائرة ، تلوع وحركة) . - عودة الى النموذج النظري الآنف : في الادب الفرنسي نجد : أوائل ، ثم كلاسيك (ق ١٧ وأيضا ١٨)، ثم رومانطيق ، ثم ... (واقعية ، رمزية ، الخ) . في الموسيقا ، في تاريخ الموسيقا الكلاسيكية نجد : الاوائل او البدائيين ، ثم الكلاسيك (باخ - موزار) ، ثم الرومانطيق ، ثم النيوكلاسيك (برامس : عودة لكن على أساس المحرز التالي) ، ثم ... - الشرق الحضاري (الهند مثلا) : ربما باروك أصلي ، أول ، بدون كلاسيك سبقه . كذلك ، ولكن على نحو كاريكاتوري (ببغاوية) ، بعض فنوننا وآدابنا الحاضرة : نحن في المرحلة الاخيرة ، ما شاء الله !

٧ - **أركاديا** منطقة في اليونان القديمة ، يعيش فيها شعب من الرعوان ، جعلها الشعراء الأقدمون بلاد البراءة والسعادة . - « رعوان أركاديا » لوحة للرسام الفرنسي الكلاسيكي بوسان Poussin (ق ١٧) في متحف اللوفر . أراد فيها الفنان التعبير عن هشاشة السعادة : ٤ أشخاص أمام قبر راع يفكون معنى هذا القول المكتوب : « وأنا ايضا عشت في أركاديا ! » ، عشت سعيدا في أركاديا مثلكم ، والآن ... لقد مضيت . - في الأدب الفرنسي والرسم الفرنسي : كلاسيك (ق ١٧ وأيضا ق ١٨) ثم رومانطيق (ق ١٩) ، والكلاسيك تحت سلطة القديم ، اليوناني ، الذي هو النموذجي والكلاسيك .

٨ - **من** و **من** . حسب كامبانلا الذي يواصل خطا لأوغسطين ، انماء جدليا لمنطلق جدلي ، يكون العدم في « الله خلق العالم من العدم » عنصراً مكونا للعالم ، مادة أولية مكونة ، كما - على سبيل المضارعة ! - الخشب في قولنا « صنع النجار الطاولة **من** الخشب » . هكذا صنع الله الكائن - الكون - الكينونة **من** اللاكينونة - اللاكون . ربما يجوز لي المجازفة والقول : فلسفيا - لاهوتيا - سحريا ، كامبانلا ينظر (وأوغسطين يخمن ويتنبأ) تجربة اوروبا ، تاريخ العصور الوسطى الغربية : **من** البربرية والفوضى والظلام والخواء والعدم الى المنظومة الاقطاعية والكومونات والأمم والنهضة ومهمة الراهن - الواقع - الكائن - الحاضر - المستقبل . **من** بالمعنيين ، تحت سلطة المعنى الثاني كما في « من الخشب » . تصور جدلي ، هو الواقعي الحقيقي والتاريخي الحقيقي . تصور جدلي ، لا مثل ذلك التصور المفتون بالحضارة ، والآخذ بفكرة « واقع » بلا امكان ، لا الى الامام ولا الى الوراء (انتكاس، انهيار) .

- فكرة الله خلق العالم من العدم - العدم ليست يونانية بتاتا ، بل سامية

عربية يهودية . الله اليوناني منظم ، مشكل ، مهندس معماري ، صانع ، مبدأ ذكاء، ليس شخصا ولا راعيا ...

٥ ــ باراسلس

١ ــ **خيال** ، **حلم** ... بعد سطور سنقرأ : **قلب** الخ . ونحن هنا ــ مع باراسلس وقبله وبعده ، مع « فلسفة عصر النهضة » و « فاوست » غوته الخ ــ غاطسون في السحر والتصوف والثيوسوفيا (الحكمة الالهية) الخ . اليس هذا كله مناهضا للعقل ؟ ــ اي عقل ؟

لا باس من التذكير باديء ذي بدء بأن الخيال والحلم والعاطفة وايضا الحدس والتخمين الخ هم ، في « العقلانية » الناقصة والقاصرة ، في « عقلانية » مستوى **الفهم** entendement بالمعنى الهيغلي للكلمة ، في ما يسمى عادة بالمعرفة الخطابية والفكر الاستدلالي أو المحاكم ، وبالتالي في التيار الكبير للفكر البرجوازي الصاعد (ق ١٧ ، ق ١٨) ، هم أقارب فقراء منبوذون من الغني فعلا الذي هو الفهم ــ العقل ــ التجريب ــ العلم الرياضي الميكانيكي الفيزيائي الخ . وان كنا نجد بعض هؤلاء الاقارب عند مفكرين على هامش التيار العريض الصاعد بقوة ، مثلا عند باسكال Pascal المتألم .

الا أن هذه « العقلانية » كلها ــ وفي اطارها وكتتويج لها أن صح التعبير : المادية الميتافيزية والميكانوية ــ تصل في أواخر القرن الثامن عشر الى طريق مسدود، تدخل في أزمة . هذه الازمة تفضي ، من جهة ، الى الجدل (الفلسفة الكلاسيكية الالمانية تنتهي الى هيغل) بوصفه العقلانية الوحيدة الحقيقية والتامة والى الماركسية، ومن جهة أخرى ، الى اللاعقلانية ، تيار مناهضة العقل وتحطيم العقل . اما العقلانية السابقة ، وقد عاشت بعد زمنها ، فتنحل الى عقلانية مخصية ، الى وضعوية ووضعويات مفتوحة على اللاعقلانية ومتراكبة معها في منظومات ومذاهب عديدة . اللاعقلانية تركب على الاقارب الفقراء الذين كانوا منبوذين : شيلنغ (شيلنغ الاخير) يقيم الحدسوية ، يبعث اهتمامات العصر الوسيط وزمن النهضة والسحر والتصوف والروحانيات الشرقية والعلوم الخفية ويصبها في قناة أيمانيته ومناهضته للعقل . الماركسية ــ مستندة الى هيغل ، ومتجاوزة اياه ، فلسفيا ونحو الشعب ــ ترد الاعتبار للاقارب الفقراء ، على أساس العقل الذي **الجدل** هو اياه .

لينين ، في **« ما العمل ؟ »** ، يدافع عن **الحلم** ضد الماركسوي مارتينوف ، يميز « حلم » و « حلم » ، يربط القضية بالاساس الشعبي والفلسفي : **شغل** الشغيل ؛ يتحدث في وسط اشهر صفحة من الكتاب (بين قوله : « لا حركة ثورية بدون نظرية ثورية » وقوله : « فقط حزب ترشده نظرية طليعية يستطيع أن يؤدي دور مكافح طليعي ») عن الاهمية العالمية **للادب** الروسي ، **ضد** هذا الماركسوي وامثاله من حاملي علم الاقتصاد والطبقات ؛ ماركس ، في **« راس المال »** ، عند تعريفه الشغل الانساني بالمقارنة مع شغل النحلة ، يضع في جوهر وماهية **الشغل**

الفكر – التصور – التخيل – التصميم – التخطيط – الصورة – الاستباق ومعه مجموع السيكولوجي ، كل النفس ؛ ويؤكد في أماكن مختلفة من أعماله على حقيقة ووظيفة الفكر (الانعكاس النوعي) ك **استباق** anticipatin ؛ يثمن **الميثولوجيا** اليونانية ؛ يرفع لواء مصطلح ومقولة **الروح** وأشكال الروح وأشكال التملك المختلفة بعكس أولئك الذين لا يحبون « الروح » ويحبون « المعرفة » المقطوعة عن التملك والعمل والانسان ؛ لينين يدخل « الدين » تحت كلمة **« معرفة** اجتماعية » وان كره كارهو الدين محبو المعرفة (وخصومهم أيضا) . أساسا ، ماركس وانجلز ولينين أسقطوا كل هالات القدسية واللعنية عن الكلمات معزولة . أساسا كل الماركسية تذهب ضد هذا القاموس « الماركسي » الوثني والمانوي الذي يتألف من بابين اثنين للكلمات الكبيرة الشهيرة التي صيرت مثلا ثابتة في السماء والجحيم : باب الكلمات الحسنى وباب الكلمات السفلى ، باب النور وباب الظلام ، مصطلحات الهية نسجد أمامها ومصطلحات مقابلة نلعنها فنسجد لضدها ، مستكفين بالله شر الجدال والجدل . – جورج لوكاكش ذكر بحقيقة أن السحر ازدهر في عصور الأزمة والانقلاب الثوري على يد أشخاص خارج المألوف وطليعيين ، فهو التقنية الاولى للانسان البروميثيئي . وفي أيامنا هذه يبقى عند بعض أولئك اللاهوتيين والثيوسوفيين والمتصوفة والسحرة الوسطويين والنهضويين كما عند فلاسفة زمن ما قبل « العلوم » ، يبقى عندهم من العلم والمعرفة والحقيقة أكثر مما عند علماء اقتصاد ماركسيين كبار فعلا لكن يتصورون أن علم الاقتصاد ، مضافا اليه « العلوم » ولا سيما « العلوم الأحدث » ، هو « العلم » . هذه أحدث طريقة للقول : العلم عند ربي ؛ وأربابنا ، أرباب العلم العلموي عندنا ، هم – بشهادة التجربة – هم الخيالون الحالمون السحرة !

٢ – **انجيلوس سيليزيوس** مستلهم روح اكهارت ، وعلى صلة ب **فرانكبرغ** (الذي هو صديق وناشر وكاتب سيرة ياكوب بوهم) ، طريقه طريق المحبة ، ولغته لغة الشعر . في أبياته ، يبرز الثنائيات المتناقضة في صيغ حادة . « الله لا يستطيع شيئا بدوني » ، « الله عدم خالص » ، « انا مثل الله والله مثلي » . هذه كانت لغة التصوف في الشرق أيضا .

ليوبولد فون رانكه (ق ١٩) مؤرخ الماني مهم ، صاحب « تاريخ المانيا في زمن الاصلاح » .

توماس منتسر (١٤٩٠ – ١٥٢٥) : زعيم حركة الهرطقة الشيوعية الشعبية المتمردة في المانيا . أعدم في ١٥٢٥ بوصفه رئيس الفلاحين الثائرين في منطقة التورنج Thuringe .

« لوثر البداية » . – ان لوثر الواقف مع الأمراء ضد الفلاحين وتوماس منتسر والعمدانيين متراجع قطعا عن لوثر ١٥٢٠ . علما بأن ثمة فرقا بين لوثر ومنتسر من

البداية ، سياسيا ودينيا .

المعمدانيون ، انصار مذهب تجديد العمادة : كانوا يبشرون بقرب يوم الدينونة، كانوا أصحاب رؤى وروح نبوية وحالات وجد . توماس منتسر شخصيا لم يكن من هـذه الفرقـة .

وحدها حركة الاصلاح (اللوثرية) أحرزت وعلى الفور مدى قوميا في المانيا ، ومدى أوروبيا .

٦ ــ ياكوب بوهم

١ ــ **علم الاشياء الخفية** occultisme : سحر ، تنجيم ، سيمياء ، ثيوسوفيا، الخ . وهذيانات شتى جديـدة نسبيا في القرن العشرين تلبى حاجـات الانسـان المستلب وتحقق أرباحا كبيرة لاصحابها . . لكن القضية لها تاريخيا وجـه آخـر . القرن السادس عشر عصر انقلاب وخض وانتقـال وفتـح . وهـو العصر الذهبي للتنجيم مثـلا . .

جوبيتر عند الرومان يوازي زيوس اليوناني ، أي هو الترجمـة الرومانيـة لزيوس ، سيد الآلهة .

٢ ــ الـ **آلبيجوا** نسبة الى مدينة آلبيAlbi في اللانغدوك من جنوبي فرنسا . المتطهرون ــ الآلبيجوا ، هرطقة مسيحية ــ مانوية ــ اخلاقية ، كبيرة ، « قومية » في منطقتها ، شاملة متعددة الطبقات . سحقت وابيدت على يد ملك فرنسا (الذي ناداه البابا) وجيش البارونات وبعض كبار رجال الدين . معتنقو هـذا المذهـب احرقوا بالنار وهم احياء ، بالالوف ، ولم يتراجعوا (١٢٢٦) . مأساة ودراما الهمت بعض أدباء زمننا . هزيمة الآلبيجوا (علما بأنهم غير محاربين) تبدو حلقة في تكـون فرنسا ــ المملكة ــ الدولة ــ الامة ــ اللغة (ضم او الحاق الجنوب بالشمال ، ثـم سقوط لسان أهل الجنوب ، « لسان أوك ») . واكثر من ذلك : تبدو ، على صعيد التاريخ الاجتماعي ــ الاقتصادي ، كأنها حلقة ضرورية في انتصار المجتمع الاقطاعي أو الاقطاعي ــ البرجوازي وخط التطـور الغربي . ــ العصور الوسطى الغربيـة المتقدمة زمن محارق ، محاطب ؛ والقرن السادس عشر يشهـد حـروب ومجازر الدين والسياسة .

٣ ــ **الفلسفة الكلاسيكية الالمانية** » ، التي لولاها « لما كان ثمـة اشتراكيـة المانية ، الاشتراكية الوحيدة العلمية » (على حد قول انجلز ، ولينين ينقله) ، تتمثل في أربعة فلاسفة متعاقبين ــ متزامنين ، خلال حقبة قصيرة وكثيفة هي زمن الثورة الفرنسية ونابوليون وحروبهما والثورة الصناعية وغوته الخ ، وهم : **كنط** (مثاليـة

ذاتية + مادية ، **مسألة المعرفة** ، المقولات والثنائيات التناقضية ، بداية الجدل الحديث) ، **فيشته (المثالية** الذاتية مطهرة من المادية وتقدم كبير للجدل) ، **شيلنغ** (انقلاب الى **المثالية الموضوعية** ، تقدم جديد للجدل - ثم في حقبته الاخيرة : ايمانية وحدسوية وشرقانية وعلوم خفية) ، هيغل (تحول ونمو المثالية الموضوعية الى **المثالية المطلقة** ، تأسيس وتكوين الجدل الحديث) . ويعود الى السطح أبو الفلسفة الالمانية ، رائد النظران الالماني ، ابن زمن النهضة والاصلاح وحروب الفلاحين ، الحذاء - المتصوف - الفيلسوف ، مكرر هيراكليت في مستوى جديد ، أوروبي . - جانب التصوف ليس غائبا من هيراكليت الاول ، اليوناني . من أقواله : « منزل الانسان هو الله » . الفلسفة اليونانية الاولى ذات صلة وثيقة بما قبلها : الاسطورة .

٧ - فرنسيس بيكن

١ - **مونتيني** Montaigne ، صاحب « المحاولات » ، أديب مهم ، مدشن الفكر الفرنسي الحديث بالريبية والتسامح والظرف (ونقص العمق ، فلسفيا) .

بيار شارون (١٥٤١ - ١٦٠٣) محام في البرلمان (وهو مجلس قضاء عال)، دخل في الرهبنة ، صار صديقا لـ مونتيني . يموقع الاخلاق على الدرب من الريبية الى الايمان : الحكمة « بلا فردوس ولا جحيم » لا ترفض الدين المسيحي وتنادي حرية الحكم . قارىء مواظب على الرواقي سينيك . نقل صديقه الاديب صاحب « المحاولات » الى الفلسفة ، بشكل ربما ثقيل .

سانشز Sanchez (١٥٥٠ - ١٦١٠) : اسباني « **كازويست** » casuiste اي من دارسي « **الحالات** » ، الذين يبررون الافراد ...

٢ - **المذهب الاسماني** وقف ضد **المذهب الواقعي** وبينهما **المذهب المفهومي** في ما يدعى بـ **مشاجرات الكليات** في القرنين ١١ و ١٢ بشكل خاص . - حسب « **الواقعية** » (وراء أفلاطون والمثل) : الكليات واقع وهي الواقع الحق ، الفكر العامة لها وجود واقعي ، ميتافيزي متميز ، قائم فوق ؛ هذا موقف القديس آنسليم (ق ١١) ؛ دنس سكوت (ق ١٣) يعدل هذا الموقف ، يقر بجوهر خاص للفرد الى جانب الجوهر - حسب **الاسمانيين** : الفكر العامة أسماء . سابقا ، قال الفيلسوف القديم آنتيستين (ق ٤ ق م) : « أرى جيدا الحصان لكني لا أرى الحصانية » . حسب **غيوم أوكام** Guillaume d'occam (١٢٧٠ - ١٣٤٧) وهو أعظم فيلسوف اسماني (من انكلتره) : الكليات ليس لها وجود خارج النفس ، انها ليست سوى « كائنات عقل » ، ليس من فروق سوى واقعية ، فردية . حسب روسلين (١٠٥٠ - ١١٢٠) ؛ المفهوم اسم . - **المفهوميون** يقفون في الوسط . المفاهيم والكليات ليست موجودة في ذاتها ولكنها ليست محض

كلمات . الانواع والاجناس ليس لها واقعية ما ورائية لكن الفكرة العامة لا تقلص الى كلمة . هذا رأي أبيلار Abélard (ق ١٢) . ورأي غيوم دو شامبو : المفهوم موجود في الاشياء . ــ بالحقيقة ، هناك خلاف على تصنيف بعض الفلاسفة . هذا اولا . وثانيا : هؤلاء الفلاسفة جميعا يقدمون ثروة من أفكار ومن اهتمامات ، يبحثون في اللاهوت ، في السياسة . أوكام الانكليزي ، « الدكتور الذي لا يقهر » ، يحارب ضد السلطة الزمنية للبابوات ، يطرد من رهبنته (الفرانسيسكان) ، يبني منظومة فكرية ستؤثر على لوثر من جهة وعلى المذاهب الخبرية من جهة أخرى ...

بتبسيط ضروري وان كان فيه اجحاف (بمعنى ما ومحدد) ، يمكن تلخيص المواقف كما يلي : ١) « الواقعيون » (الافلاطونيون) : الحصان ــ المثال ــ النموذج هو الواقع ، الأحصنة الجسمية المختلفة الخاصة هي ظلال باهتة . ٢) الاسمانيون : الحصان ــ الهوية كلمة أو اسم ، الموجود الحقيقي هو الاحصنة الخاصة المفردة المختلفة . ٣) المفهوميون يتلمسون جدلية المسألة كما ادراكنا السليم يوحي . الحصان هو مشترك الاحصنة أي عام الخاص .

الجدل يكشف الحق الذي وراء أفلاطون ان صح التعبير . ردا على قول انتيستين القديم « أرى جيدا الحصان (أي الحصان الجسمي المفرد) لكني لا أرى الحصانية » ، تقول : بالضبط العلم كله ، المعرفة كلها ، بما فيها ابسط معرفة ، لا تقوم على « أرى » . وبالفعل أنتيستين نفى امكانية أية معرفة علمية . المعرفة تقوم على الفهم والعقل ، على المفاهيم (هذا حصان !) . « المعرفة بالكليات » أي المعرفة ليست معرفة الكليات، بل سلاحها وأداتها الكليات، المفاهيم، التعيينات، الأسماء ، وهي معرفة العياني الحقيقي الذي يتجاوز تماما فكرة « المحسوس » و « الشيء » المقطوع والمباشر .

لينين ، قارئا هيغل وفويرباخ وارسطو ودروس هيغل في تاريخ الفلسفة اليونانية ، أعاد الامور الى نصابها ، الى البساطة ، أي الى جدل الاساس : هوية الخاص والعام (جان هو انسان ، الخاص هو عام) ، هوية الضدين ، قضية اللغة. فعل ذلك باصرار، بشكل متكرر، موجها ضربة أو اثنتين او ثلاث لـ جورج بليخانوف، معلم ورئيس الماركسيين الروس . وضوحا ان لينين لا يرضى بأي عرض او بسط للمادية الجدلية لا يرتكز على الهوية المذكورة ، لا ينطلق من جدل الفكر والواقع ، من مسألة اللغة . هذا من جهة . ومن جهة ثانية ، انه ، مسلحا بقضية الأساس ، يحل مسألة أفلاطون الفيلسوف العظيم والساذج، ويجابه افلاطونات اليسار في الماركسية الروسية ، سنة ١٩١٦ .

عودة الى اوروبا العصر الوسيط : الاسمانية ضد افلاطون = لحظة المادية التي لا غنى عنها في تاريخ الفكر الأوروبي . الاشياء ضد الكلمات ! انكلتره بشكل خاص على هذا الخط الذي يفضي الى الخبرية المادية . روسو Rausseau والبيداغوجيا الحديثة تكرر هذه اللحظة ضد الكلامية verbalisme في التعليم : الاشياء قبل الكلمات ! كذلك لينين ضد اليسار . وانكلتره الخبرية تنجب آدم سميث ، مؤسس علم الاقتصاد السياسي على كلية الشغل ، الهوية المثلية البالغة التجريد والاختراعية

و ... الواقعية ! « الواقع الآخر زاعم الواقعية والمادية وحامل لواء الخبرة والادراك السليم واللامثالية الخ هو الـ غير واقعي وهو الـ بين ـ بين والمخلوطة والخـواء .

٣ ـ هذه الثورة البرجوازية ضد الاقطاعية والعصور الوسطى تكرر ، في مستوى جديد متقدم ، سولون اليوناني مشرع آثينة (٥٩٤ ق م) . سولون ، الذي الغى الديون وعتق الرقيق المستعبد بموجب الديون ، قسم الآثينيين الاحرار الى اربع طبقات بحسب مداخيل اراضيهم ، حفظ المناصب الحكومية القضائية للطبقات الثلاث الاولى المالكة ، لكن جميع المواطنين منحوا حق التصويت لجمعية الشعب . هكذا فقد وزعت السلطة لا بموجب الولادة بل بموجب الثروة التي يمكن الحصول عليها بالعمل والاستحقاق الفردي . (أصلا ، في ملحمة الأوديسه نجد مشهد تمجيد للشغل، للشغل الزراعي : البطل اوليس البحار يتحدى احد الرفاق بمبارزة على... فلح الارض !) . لكن نظام الرق كله يذهب ضد تثمين الشغل والتقنية . العصر البرجوازي الحديث يثمن الشغل والتقنية والعلوم . العصور الوسطى ، مع أنها لا تثمن الشغل بقدر ما تثمن الحرب والفروسية والدين والصلاة والنسب والشعر، كانت أو صارت زمن اختراعات تقنية وعلمية مهمة جدا وحاسمة ، وعليها ارتكزت الاكتشافات الجغرافية الكبرى ... بيكن رجل هذا العصر الجديد المتقدم على القديم والوسيط وعلى الشرق ، يحمل الناظم الجديد للفكر ، الطريقة « الخبرية ـ استنتاجية » ، «الاستقرائية» ، بنفس فلسفي حقيقي ، يكشف الأصنام ـ الاوهام. لكن من جهة أخرى ، من الآن يبدأ التراجع ، التقليص ، الخبرية (كمذهب كامل ومناهض للجدل) ، تحت سلطة الراهن والجدوى العملية الفاتحة . المعرفة في خدمة العمل ، في خدمة الانسان ، يؤكد بيكن بحق .

٤ ـ apories عند الريبيين : جوابان صحيحان ومتعارضان عن سؤال واحد، قضيتان متناقضتان معقولتان ، الامر الذي يؤدي الى تعليق الفكر والتخلي عن أي حكم والى السكينة .

٥ ـ **الخبرية** empirisme: **بيكن** ، الاورغانون الجديد ، ١٦٢٠ ؛ **هوبز** ، في الطبيعة البشرية ، ١٦٥٠ ؛ **لوك** ، محاولة في الفهم البشري ١٦٩٠ ؛ **شافتسبري** ، الميزات ١٧٢١ ؛ **هيوم** (١٧١١ ـ ١٧٧٦) : لا ادرية ، ريبية ، مع جدلية نقدية مهمة ؛ **هتشسون** ، الفلسفة الاخلاقية ، ١٧٥٥ ؛ **آدم سميث** ، الشعور الاخلاقي ، ١٧٥٩ . **بركلي** (١٦٨٥ ـ ١٧٣٣) يحول الخبرية الى مثالية ذاتية صريحة وحادة . (جميعهم انكليز) . ـ **كونديياك** (١٧١٥ ـ ١٧٨٠) الفرنسي يقيم الاحساسوية sensualisme أو الحواسية .

العقلانية تتمثل في **ديكارت** (١٥٩٦ ـ ١٦٥٠) . يواصله في اتجاهات مختلفة **مالبرانش** (١٦٣٨ ـ ١٧١٥) الفرنسي صاحب اتجاه ميتافيزيقي ديني ؛ **سبينوزا** (١٦٣٢ ـ ١٦٧٧) الجدلي الحلولي ؛ **لايبنتس** (١٦٤٦ ـ ١٧١٦) ثم ، بعد **فولف** ، **كنط** ، البادىء (١٧٤٧) ؛ ـ عدا عن بعض الديكارتيين الثانويين في فرنسا .

الخبرية الانكليزية المادية والعقلانية الديكارتية تصبان في عقلانية « فلاسفة » القرن الثامن عشر الفرنسيين المتنوعة : فولتير تحت تأثير نيوتن واله نيوتن ؛ هلفيسيوس ، هولباخ ، لامتري ماديون ؛ ديدرو مادي متقدم يحمل نفسا جدليا . ـ كنط يوجه ضربة للتصور الميتافيزيقي للكون في كتابه « التاريخ الكوني للطبيعة ونظرية السماء » ١٧٥٥ .

بالطبع ، التياران الكبيران المتوازيان والمتداخلان متفقان على العقل ـ و ـ الخبرة أو الخبرة ـ و ـ العقل ، ضد الايمانية ، ضد « حجة السلطة » التي ليست حجة ، ضد أشباح العصور الوسطى . بيكن وديكارت يقومان بعمل واحد في المآل ، يخدم صعود أوروبا البرجوازية وتأسيس العلوم ، علومنا . ذلك تقدم منقطع النظير . ولكن رغم مآثر ديكارت وسبينوزا ولا يبنتس وهيوم الخ الجدلية ، فان هذا العقل لا يكفي كعقل ، بل ولا هذه الخبرة أو التجربة والتجريب تكفي كتجربة وتجريب ، هذا ما ستبينه المرحلة التالية في تاريخ الفلسفة الاوروبية التي عنوانها هيغل، الحاصل الجديد للفلسفة الاوروبية والفلسفة اليونانية القديمة مرورا بفلسفة بوهم وزمن النهضة المتصلة بما قبلها .

٦ ـ **الرياضة** (الرياضيات) ، **تطبيقها** الكلي في علوم الطبيعة، هذا ما يتعارض في الجذر مع موقف الخبرية الاساسي أو مع الخبرية كمعارضة في الجذر للعقلانية . كل العلم الحديث ، بشكل متزايد ، يطبق الرياضيات . هذه الحقيقة جزء من عقلانية العلم وليست هي **كل** عقلانية العلم . الرياضية تابعة للعقلانية ، تابعة ملفتة للانتباه ، وليست الاصل في القضية . الاصل هو : أن أحدا لم ير الذرة ، مع أن الذرة هي أساس الفيزياء . ان أحدا لم ير القيمة ولا يستطيع أن يراها ، مع أنها أساس الفيزياء . ان أحدا لم ير القيمة ولا يستطيع أن يراها ، مع أنها أساس علم الاقتصاد . وقانون القيمة قانون مفهومي ـ شكلي ـ رياضي كمي : نظرية القيمة تساوي ، تماثل قصرا منيفا في لندن وعشرات ملايين علب الكبريت ، على حد قول ماركس . وهذه المماثلة يحققها **فعليا** أصحاب معامل الكبريت . هذا هو التبادل . القيمة لا نراها و « نراها » جيدا ، اذا أردنا .

انجلز يسمي مرارا الفيلسوف والعالم الرياضي العملاق ديكارت (واضع الهندسة التحليلية ورياضيات المقادير المتغيرة) فيلسوفا جدليا كبيرا ، وكذلك سبينوزا الفيلسوف الجدلي الواقع تحت سلطان الهندسة ، ويثني على لايبنتس احد مخترعي تحليل النهايات الصغرى . بالمقابل ، انه يشن حملة شديدة على بيكن ومذهب الخبرة الانكليزي . بل لعله مجحف . لكن يجب ان نفهم أنه هنا (في « **جدل الطبيعة** ») يقيم بحق وبمنتهى الحق **الجدل** (الدياكتيك) كمناهض **للخبرية**

(الامبيريسم) ، وليس فقط كمناهض للميتافيزية ، منهج الفصل والسكون . كذلك ماركس في **مدخل** ١٨٥٧ ، وليتين في **الدفاتر الفلسفية** . هذه الوجهة ــ الجدلية هي آنتي خبروية وليس فقط آنتي ميتافيزية ــ غائبة بالتمام عن ستالين صاحب كتاب الكتب خلال حقبة لم تنته .

هيغل ، الجامع والحاصل العظيم ، أنصف الخبرية الى حد لا بأس به . بالطبع ، الجدل المادي ــ بوصفه ماديا ــ ينصفها أكثر . لكنه يكشف أن الخبرية يمكن أن تعطينا بركلي وخلفاءه الذين لا حصر لهم . وبركلي وهيوم الخبريان ، بارتدادهما على المادية يفتحان الطريق للجدل وللمادية الجدلية .

٧ ــ بالضبط ليس بالطريقة الخبرية (الطريقة الخبرية التي **فيها** عقل ــ) اخترع **علم الاقتصاد السياسي** . هكذا فعلا ، بالخبرية والفهم ، عمل الاقتصاديون الاوائل وتقدموا . ثم كان يجب اجراء نوع من قلب او عكس للطريقة والطريق . هذه « القلبة » أجراها بقوة آدم سميث . أسس العلم الجديد على مقولة الشغل ، الشغل المجرد عن موضوعاته وأشكاله ، الهوية الواحدة الكلية المتماثلة ، الشغل كمحض فاعلية ذاتية للانسان ، وغير الموجود على هذا الشكل . هذا ما يقوله ماركس في **مدخل** ١٨٥٧ ، الفصل الثالث : « طريقة علم الاقتصاد السياسي » . بتعبير آخر : ان انكلترة الخبرية حتى شعر رأسها ، المنفعية ، غير الفلسفية او النظرانية، ان انكلترة البرجوازية المتقدمة هذه ، تنجب ، عند الجد ، عند هذا الجد الذي هو المجتمع البرجوازي الحديث ومعرفته ــ التي هي مفتاح معرفة الآخرين ، السابقين ، الشرق الخ ــ ، تنجب هذا الذي يمكن ان ندعوه « هيغل علم الاقتصاد البرجوازي»: آدم سميث . وهيغل على خط آدم سميث . وماركس على خط الاثنين .

٨ ــ كذلك **علم الجمال** . لعله لم ينشأ بعد . لكن حملت قضيته ودفعتها الى الامام الفلسفة الكلاسيكية الالمانية ، النظران الالماني الكبير ، وغوته وبعض رجال ذلك الزمن . في أساسه : **جدل الظاهر والكائن** . بدون هذا الجدل لا فن . بمفهوم **واقع** خبري ، يكون لدينا ، على سبيل المثال ، هذا الذي دعاه جورج لوكاتش « طبيعانية زراعية » والذي دعا نفسه « واقعية اشتراكية » . لا نقبض على سوفوكل ، شيكسبير ، غوته ، تولستوي ، دوستويفسكي ، ولا حتى بالزاك ، بهذه الواقعية الخبرية . ماركس طرق موضوع الفن تحت سلطة مقولتي الروح والتملك المرتبطتين بالشغل ــ العمل ، وبثنائية صناعة وطبيعة (في **مدخل** ١٨٥٧ أيضا) . آدابنا وفنوننا ضائعة بين « الواقعية » (!) و . . . السوريالية (ال فوق ــ واقعية). يريدون معرفة بلا مشقة ، أو هم لا يريدون معرفة . قاع هذه الحالة ، خلفيتها التاريخية الحضارية والشعبية اعتقاد مفاده : هناك ، من جهة ، « الواقع » و « الواقعية » ميدان العلم والعلوم ، وهناك ، من جهة أخرى ، الخيالي والعاطفي

واللهو والتسلية و « الجمال » ميدان الفن . هكذا نكون بلا تملك ، بلا روح ، بلا فن ، ولا جمال .

٩ ـ هنا تبرز اهمية **ارسطو** ومقولة **الشكل** الارسطوية ، في منظور مادية جدلية صحيحة ، اي مادية جدلية تأريخية تقدمية ، فيها بسط ـ نمو ـ تطور . الذرية ، الميكانية ، الخ ، لحظة مادية (بل وجدلية) هامة ، من ديموقريط وهيراكليت والشرق قبلهما مرورا بميكانيكا ارخميدس ـ غاليله ـ توريشلي ـ كيبلر ـ نيوتن وصولا الى الميكانيكا التموجية والنظرية النسبية والفيزياء الحديثة . لكن هذا ليس الا وجها . الوجه الآخر يبدأ بأرسطو « كبير مفكري التطور » ، « المنظر الكبير للتطور الكيفي » . الجدلية مذهب حركة ـ تطور ، وليست مذهب حركة حسب ؛ انها مذهب « تاريخ طبيعي » ، لا مذهب طبيعة جدلية ستاتيكية ؛ مذهب شكل ـ تطور ، لا مذهب ذرة ـ كم . حقا ، أن أرسطو مفكر جدلي كبير . هذا معناه ايضا : الجدل ارسطوي ، **الماركسية ارسطوية** . هذا الجدل الاوروبي مغاير للجدل الصيني .

١٠ ـ هذا التمييز بين **صفات اولى** (صلابة ، امتداد ، شكل ، عدد) **وصفات ثانية** (لون ، طعم ، رائحة) صرح به بعد بيكن ، على يد الخبرية المادية (جون **لوك**) . الاسقف **بركلي** ـ وهو خبري ، في خط الاسمانية ، ورافض كل واقعية للمثل ـ الفكر المجردة ! ـ نقل المحاكمة الناقضة لموضوعية الصفات الثانية الى الصفات الاولى ايضا ، مقيما مذهبه المثالي الذاتي المعروف باللامادية immatérialisme . علما بأن التمييز بين صفات اولى وثانية له مقدمات عند ديموقريط ، وهو « وجه تابع » لكل المادية التقليدية « الماهوية » ان صح التعبير . حسب المادية الجدلية الماركسية ، لا « الصفات الثانية » محض ذاتية ولا «الصفات الاولى » أولى أخيرة . حسب ديموقريط ، تكون الذرات والفراغ هي الحقيقة الوحيدة . حسب المادية الجدلية ، لا الذرات والفراغ حقيقة اخيرة ولا الباقي (اشياء ، كيفات ، اعراض ، الخ) وهم ، **المجموع** منسبن . المثالية الذاتية المعاصرة تقول : جوهر الطاولة انها الكترونات . نحن نقول : جوهر الطاولة انها طاولة ، اما الالكترونات فجوهر كل الاشياء بالتساوي (هذا مع صرفنا النظر عن حقيقة ان علم الفيزياء الراهن يكتشف عددا من جزيئات متنوعة مختلفة في بنية المادة في هذا المستوى الفيزيقي الاخير الذي ليس اخيرا *) . المادية الماهوية الرياضية والمثالية الفيزيائية الرياضية تلتقيان عند هذه المساواة اي التماثلية اي

---

* ـ وهذا معناه ان الفيزياء النووية تتقدم ، حكما اي بحكم الجدل ، في الواحدية وفي التعددية ، في الهوية والفرقية ، بآن معا . لكننا نترك هذه النقطة لانها ليست جوهر الفلسفة ، جوهر مسألة الواقع الذي ليس هو بنية المادة الفيزيقية .

الهوية التي هي تبخير الواقع كلاهما فيزيقوية ماهوية جوهروية رياضية كتاب لينين « المادية والخبرية النقدية » يجب ان يقرا جيدا ، وفي ضوء « **الدفاتر الفلسفية** » و « **جدل الطبيعة** » و **المدخل** (١٨٥٧) عندئذ ، نعي حقيقة هذا البسط التاريخي : من الاسمانية (المادية) الى الخبرية او الخبروية (المادية) الى (هيوم) بركلي (الخبرية المثالية الذاتية) الى الرد الوحيد الصحيح : لينين وماركس وانجلز **لكن** المستندين والمرتكزين على **هيغل** خاتم المسيرة الالمانية . المادة كمادة (بوصفها المادة) هي اختراع من الفكر . ان قائل هذا القول ليس بركلي ، قائل هذا القول هو انجلز ، تلميذ هيغل ، في « جدل الطبيعة » . وهو يضيف : **ماديو** القرن الثامن عشر ، لانهم لا يعون ذلك ، ينتهون الى مادية رياضوية كمية هي في الحاصل مثالية فيثاغورية . لينين يقول : « المادة **مفهوم فلسفي ...** » له وظيفة كذا . ستالين ينقل الوظيفة ! ـ ينقل جملة لينين لكن بدون « مفهوم فلسفي » ، مستعيضا عن « مفهوم فلسفي » بثلاث نقاط (...) ـ هكذا تنحط المادية الجدلية الى « ادراك سليم » ، الى نصف عقل ، الى بين ـ بين مع تشنج ، الى « مادية » ركب عليها الجدل . هكذا لا نفهم لماذا كان هيغل هو الباب الى ماركس ، لماذا كانت **المثالية المطلقة** ، وليس سواها « المادي » ، هي الباب الى المادية التامة .

٨ ـ ملاحظات على مولد العلم الطبيعي الرياضي

١ ـ **جوست ليبس** Juste Lipse (١٥٤٧ ـ ١٦٠٦) : ولد ومات في بلجيكا . اعتنق اللوثرية ، صار استاذا في جامعة يينا (المانيا) ثم في جامعة ليدن (هولندة) ، ثم عاد الى الكاثوليكية ورجع الى بلجيكا حيث صار استاذا في جامعة لوفان . ترجم سينيك الرواقي .

غاسندي Gassendi (١٥٩٢ ـ ١٦٥٥) : فرنسي ، دكتور في اللاهوت، دخل في الرهبنة ، استاذ رياضيات في الـ كوليج دو فرانس (وهو معهد تعليم تقدمي بخلاف السوربون المحافظة) ، باحث في الفلك والفيزياء . ناقد لارسطو ، باعث لـ ابيقور ولوكريس ، مادي ذري حسي : كل معرفة مصدرها الحواس . عارض « تأملات » ديكارت ومذهبه عن « الفكر الفطرية » . اضافة الى ذلك ، يتبنى تصورا غائيا للكون ونظرية روحانية عن النفس ، الامر الذي يمكنه من توفيق ماديته الاساسية مع المسيحية .

سبينوزا (١٦٣٢ ـ ١٦٧٧) هولندي من عائلة يهودية آتية من البرتغال . عقلاني ، حلولي ـ مادي . طرد من الكنيس اليهودي ، كوفح من قبل رجال الدين . اثر تأثيرا كبيرا على الفكر الاوروبي . ـ سبينوزا يتجاوز ثناءوية ديكارت المسيحية (القائلة بماهيتين) الى واحدية ، تقول بماهية واحدة هي « الله اي الطبيعة »

« سبب ذاتها » ومحمولاها الاساسيان الامتداد اي المادة والفكر (الفكر محمول لكل الطبيعة) . مذهبه ذو طابع رياضي هندسي . التحكيم ـ الحر البشري (التخيير) ما هو سوى جهلنا للاسباب التي تقرر الانسان . « الطبيعة الطابعة » هي العالم بوصفه ماهية لا محدودة (لا منتهية) اي الله « الطبيعة المطبوعة » هي العالم من وجهة نظر الانماط المحدودة (المنتهية) لهذه الماهية . ـ ماركس الشاب تبنى وقفة سبينوزا الجبارة ، استشهد بقوله المأثور : « الحق مؤشر نفسه والباطل » ، الحقيقة علامة نفسها وعلامة الباطل ، تكشفه وتبدده كأنها الشمس . في « رأس المال » وفي **« المدخل »** (١٨٥٧) ، استشهد بأطروحته الجدلية : « كل تعيين هو نفي » . هيغل ثمنه عاليا : اما سبينوزا او لا فلسفة ؛ كلنا سبينوزيون . وانتقده : ١) وجهة نظر الماهية وجهة نظر عظيمة ، لكنها لا تكفي ٢) سبينوزا تنقصه لحظة الذاتية ٣) سبينوزا عنده التأكيد والنفي ؛ لكن ليس عنده الثالث : نفي النفي ، لقد ظل دون الثالوث . (سبينوزا اليهودي الاصل التوحيدي الواحدي كان معجبا بالمسيح) .

٢ ـ الترقيم الكتابي العشري ظهر في اوروبا حوالي سنة ١٢٠٠ . « الجداول الالفونسية » وضعت في سنة ١٢٥٢ بأمر من الفونس ملك تشتالة ، وهي تقسم السنة الى ٣٦٥ يوما و ٥ ساعات و ٤٩ دقيقة و ١٦ ثانية . نقولا اورسيم (ق ١٤) وضع فكرة التابع نقولا دو كوزا (ق ١٥) اهتم بالهندسة ووصف السماء . الفرنسي **فييت** Viète يؤسس علم الجبر الحديث (ق ١٦) . فرنسا لعبت دورا رائدا في الرياضيات .

فيثاغور كان غارقا في الدين والسحر والتصوف على يد السلالة الفيثاغورية الطويلة والمتنوعة . غاليله وآخرون يستولون عليه ويعلمنونه . حسب قول مأثور لـ هيغل : فيثاغور جرد الكم ، ذلك عمل بالغ الجسارة ! هذا العمل الجسور سيؤسس الآن « العلم الطبيعي الرياضي » الذي هو ثورة كاملة على عالم العصور الوسطى الستاتيكي .

٣ ـ **تيشو براهه** Tycho Brahé (١٥٤٦ ـ ١٦٠١) عالم فلك دانماركي ، كان لملاحظاته فضل على قوانين كيبلر .

٤ ـ على هذا الامر وامور مشابهة يثور **انجلز** ، يتهكم ، « يصفر » . موقفه: الخبريون الانكليز ، وعدد من علماء الطبيعة في القرن التاسع عشر ، في بلدان شتى ، يرفضون الجدل اي الفلسفة ، يتمسكون بالموقف الخبروي والوضعوي ،

ويغوضون بتحضير الارواح مثلاً ... – لكن « رؤيا يوحنا » فيوتن تبدو أيضـا امتداداً اخيراً للهواجس أو الخيالات او الاشباح الطبيعية والآنتي – طبيعية لزمن النهضة . من جهة اخرى ، يمكن التساؤل ما اذا لم يكن انجلز نفسه ، وهــو المكافح الحقيقي ضد الخبروية والوضعوية ومقيم الجدل بالمبدأ كآنتي خبرويـة وآنتي وضعوية (ومقيم المادية التاريخية ك آنتي اقتصادية وآنتي طبقويـة) هـو نفسه ، هنا وهناك ، تحت تأثير الخبروية والوضعوية (والاقتصادوية) ، المنـاخ العام لاوروبا زمنه : مثلا موقفه من الاعداد الخيالية في الرياضيات . ولا بأس من ملاحظة ان الفكر الماركسي والعلماء الماركسيين تأخروا عن الاهتمام بأمـور شرقية مهمة ، وان كانت تبتذل ، من نوع التأبير الصيني والطب الشرقي واليوغا الهندي الخ ، وعن السعي الى استيعاب هذا « الشرق » وما يمثله في منظـور ماركسي معمق وموسع ، على اساس التأكيد القاطع والناجز للخط الغربـي (ارسطو – ديكارت – هيغل – ماركس ؛ اقليدس – ارخميدس – نيوتـن – ريمان – آينشتاين) المستند ، اسطورة ودينا ، علـى آدم – بروميثيوس – فاوست . حاليا ، يبدو ان العلم السوفياتي قد دخل هذه الحلبة بقوة وجدارة، ان بحوث الباراسيكولوجيا الاختبارية متقدمة جدا في الاتحاد السوفياتي ، وان الادب السوفياتي عاد الى الاهتمام بموضوعات الخيال الخالد .

٩ – ملاحظات على فلسفة الحق والدولة

١ – **مجزرة السان بارتيلمي** في ٢٤ آب ١٥٧٢ (يوم مصادف لعيد القديس بارتيلمي) دبرها هنري دو غيز والملكة الام كاترين دو ميديشي احباطا للتفاهم البادىء ، ونالا موافقة الملك على الجريمة المرعبة التي ذهب ضحيتها الـوف البروتستانت في العاصمة والاقاليم وعلى رأسهم عدد كبير من قادتهم . عندئذ ، عادت حروب الدين بشكل اشد ، وهددت فرنسا وعرشها بتآمر آل غيز والرهبان وجمهور باريس المتعصب والاسبان وشلل الطليان وغيرهم . هنري الرابع حمى العرش والامة ، اصدر مرسوم نانت (١٥٩٨) ، ثبت السياسة القومية .

تيودور دو بيز (١٥١٩ – ١٦٠٥) خلف كالفن على رأس جنيف . وهــو مؤلف كتاب « تاريخ الكنائس المصلحة » .

صيغة « **حق طبيعي** » يجب ان تفهم ايضا : « حقوق طبيعية » و « قانون طبيعي » Droit naturele .

٢ – **حركة المقلاع** Fronde * = ثورة نبيلية اقطاعية ضـد المونارشية

* – نسبة الى مقلاع الاولاد .

المطلقة التي كانت تسير قدما في فرنسا القرن السابع عشر .

في **انكلترة** ، كان عصر المونارشية المطلقة قد ولى . الملكان جيمس الاول ثم شارلس الاول (آل ستوارت) حاولا أعادته ضد البرلمان والحرية الدينية . لكن شعب لندن ثار وحمى ممثلي الامة ، واضطر الملك شارل الى الفرار من لندن وتحضير الحرب الاهلية (١٦٤٢) التي افضت الى انتصار الجيش البرلماني واعدام الملك كخائن وعدو عام (١٦٤٩) والى نظام جمهوري دكتاتوري بزعامة كرومويل قائد الجيش البرلماني وهو من البروتستانتية الحرة فرقة الطهرانيين او المتزمتين (١٦٥٣ - ١٦٥٨) . ثم عاد آل ستوارت وعادت محاولاتهم ، بل ان شارلس الثاني (١٦٦٠ - ١٦٨٥) وجيمس الثاني (١٦٨٥ - ١٦٨٨) يميلان الى الكاثوليكية ، والثاني اراد فرضها على الانكليز . فكانت الثورة هذه المرة سلمية وقصيرة : الانكليز انزلوا الملك جيمس الثاني عن العرش ، واستقدموا ابنته ميري البروتستانتية وزوجها غيوم اورانج اللذين جاءا من هولندة على رأس جيش يرفع رايات « من أجل الحرية ! من اجل البرلمان من اجل الدين البروتستانتي ! » .

انتخب غيوم ملكا مع زوجته بعد حلفانهما اليمين على احترام **بيان الحقوق** (١٦٨٩) . وخرج النظام البرلماني منتصرا مرة اخرى من الازمة الدستورية (١٧٦٠ - ١٧٨٣) ، جزئيا بفضل ثورة المستعمرات الاميركية وانتصارها (١٧٧٤ - ١٧٨٣) ، بينما بدأت الثورة الصناعية .

تاريخ **فرنسا** مختلف ، متأخر عن انكلترة . المونارشية المطلقة تبلغ ذروتها في القرن السابع عشر . هنري الرابع اخرج فرنسا من الحرب الاهلية . ريشوليو (١٦٢٤ - ١٦٤٢) ضرب الكبار . بعده ، في زمن وصاية الملكة الام والوزير مازارين Mazarin (الذي يتابع سياسة سلفه) ، الكبار يثورون : اولا برلمان باريس (١٦٤٨) مشجعا بمثال انكلترة . لكن هنا في فرنسا « البرلمان » هو هيئة قضائية عليا لها بعض الصلاحيات ، وليس البرلمان بالمعنى الانكليزي والذي بات عالميا في وقت لاحق . بعد هذا « المقلاع البرلماني » الذي دام ثلاثة شهور ، جاء « مقلاع الامراء » فدام ثلاث سنوات (١٦٥٠ - ١٦٥٢) ، وانقسم الامراء على انفسهم ايضا . هذه الحرب الاهلية الاميرية ضد المونارشية خربت فرنسا ، ولقد قامت ايضا مقلاعات شعبية وفلاحية ، وتعززت المونارشية المطلقة ، وبلغت ذروتها بعد تولي لويس الرابع عشر البالغ سن الرشد شؤون الحكم شخصيا . وقبيل ثورة ١٧٨٩ البرجوازية - الشعبية - القومية ، حدث ايضا نوع من تمرد نبيلي ، اي « مقلاع » آخر ، كان ، الى حد ما ، فاتحة للثورة الكبرى او ممهدا لها (كان قرينة مهمة على ازمة النظام كله) .

عن « **المونارشية المطلقة** » لا بأس من ملاحظة للقارىء العربي. هذه مونارشية مطلقة ، ومن حق الهي . والاسقف بوسويه الفرنسي ، خادم عرش فرنسا في زمن الملك - الشمس ، ومؤيد الفاليكانية اي استقلال كنيسة فرنسا في اطار الكثلكة ضد اي تعد سياسي من الكرسي الرسولي ومناصريه ، هو مفتي المونارشية

المطلقة يسندها الى الكتاب ـ المقدس ، الى نوح وابراهيم وداوْد والمسيح وبطرس وبولس . وفي المونارشية المطلقة التي من حق الهي ، « العاهل يصنع القانون ولا يتقيد بالقانون » ، هذا ما سنقرؤه بعد قليل . لكن ـ وهنا ملاحظتنا للقـارىء العربي ـ هناك قانون واحد لا يصنعه العاهل ويقيد العاهل . الا وهو قانـون الخلافة على العرش . لا شورى ولا مبايعة ، لا « قيادة جماعية » ولا « انتخاب » او « ديمقراطية » وما شابه ، **ولا استخلاف** . الابن البكر يخلف ؛ وفي حال موته قبل والده الملك ، ابن الابن البكر هو الذي يخلف ، واذا كان الابن البكر وابنـه البكر متوفيين ولهذا الاخير ابن ، فان هذا الطفل (ابن ـ حفيد الملك) هو الذي يخلف حتى اذا كان في « اللفافة » ؛ فقط في حال انقراض الفرع ينتقل الحق الى الفرع الثاني في السلالة . سلالة واحدة على عرش فرنسا من حوالي سنة ١٠٠٠ حتى سنة ١٧٨٩ او ١٨٣٠ و ١٨٤٨ ، هي آل كابيت ؛ آل بوربون البادئون بـ هنري الرابع فرع من بيت كابيت . هنا في فرنسا ، حق الاناث منفي ؛ في انكلترة ليس كذلك ، لكنه تابع وخاضع ، الاولية للذكور . في الحالتين : المبـدأ السلالي في **خط** ، خط محدد واضح معلوم ، الهي ، منزل . لا الملوك **يفكـرون** بمخالفته ، ولا الاخوة والعموم وابناء العم والبلاط والحاشية . ومن يفكر مفكر كثيرا قبل ان يفعل ، ويضرس . هذا الخط السلالي في جوهر تاريخ اوروبا الخارجة من البربرية والفوضى والخواء ، وفي قوام استقرارها وتقدمها الصاعد . هنا في المونارشية المطلقة الالهية الحق ، قمة قانون ، قانون واحد على الاقل فوق الملك ، علياني متعال . هنا الملك ظل الله على الارض ، لكنه ليس الله . هنا ، المونارشية المطلقة والمبدأ السلالي (ثم المونارشية الليبرالية والمبدأ السلالي) مرحلة (مرحلتان) في البسط ـ التطور ـ التاريخ ، مرحلة سبقتها مرحلة تاريخيـة بالعكس (ديمقراطية بربرية ، ملكية انتخاب وشورى ومبايعة وتوزيع للملـك وسياسات ودماء) ، **وعليها** ، على هذا الاساس وحده الركيزة تنبني الثـورات المجدية التقدمية ، التي تنقل الى مرحلة ارقى في البسط ـ التطور ـ التاريخي . في الفكر الحقوقي : السيد صاحب **السيادة** souverain هـو الملك (بودان ، بوسويه ، الخ) ؛ « ثم » : الشعب هو السيد ، هو الملك ! « ثم » ليست تجريدة زمنية تعاقبية بل هي زمن مليء ، واقع حق ، اي تناقضي ـ صراعي ـ حامل امكانات .

٣ ـ **تيت ـ ليف** Tite - Live (٥٩ قم ـ ١٥ م) مؤرخ لاتيني شهير ، كتب تاريخ روما . معجب بالماضي ، بعظمة روما ، يبحث في التاريخ عن دروس وعبر ، رأوية من الطراز الاول ، لكن الوقائع كما يرويها ليست دوما صحيحة .

٤ ـ **raison** الفرنسية من ratio اللاتينية . و ratio اللاتينية هـي اولا وبالاصل : « حساب » بمعان مختلفة ، بجميع المعاني ، بدءا مـن المعنى

الرياضي الابسط ؛ وهي ايضا : حسابات ، تسويات اعمال ، دفاتر حساب ، مصالح) وأيضا (او منهـا مباشرة) : نسبة ، علاقـة ؛ ثم : مبادىء ، قواعـد ، احكام .

« لوغوس » (logos) اليونانية (عقل ـ ربط ـ كلام ـ الخ ...) اكبر وذات منحى آخر وان كان يصل الى حساب ورياضة . منها « logique » منطق ... لكن اللوغوس نزحت الى كلام او كلمة والى روح والى الله ، صارت دينية. العقل البرجوازي raison, ratio يعترض على هذا ويرمي اللوغوس اي « العقل» اليوناني ...

٥ ـ **فريدريك الثاني** ملك بروسيا من ١٧٤٠ الى ١٧٨٦ . قبله كان فريدريك الاول قد نال من الامبراطور لقب « ملك في بروسيا » (١٧٠٠) . فريدريك الثاني تابع عمل آبائه (تنظيم ، ادارة ، جيش ، انضباط ، استعمار الارض الخاوية الخ) ، كان ذكيا ، مثقفا ، وحالفه الحظ . كان في صف المنتصرين في حـرب السبعة اعوام (التي خسرت فيها فرنسا مستعمراتها لصالح انكلترة) ، ضـم سيليزيا ، حول بروسيا من مملكة صغيرة الى دولة عظمى ؛ كان بلا روادع ، تقاسم بولونيا المنخورة بالفوضى النبيلية مع كاترين الثانية امبراطورة روسيا ومـاري تيريز امبراطورة النمسا (١٧٧٢) . زمنه زمن « الاستبداد المستنير » الذي لعب في وسط وشرقي اوروبا ، دورا تقدميا ، برجوازيا ـ مقطوعا . ـ الف ردا على « الامير » ، طويلا (اطول من « الامير ») ، نقحه له صديقه فولتير Voltaire الذي خفف من سحباته « الاخلاقية » !

٦ ـ **ليسنغ** (ق ١٨) كاتب وناقد الماني . ـ لنذكر بأن بودان يكتب في زمن مجزرة السان بارتيلمي والحروب الاهلية .

٧ ـ الاول norma agendi هو اذا الشرع الذي يضع قواعد العمل والسلوك، والثاني « ... facultas » هو القدرة ، الحقوق .

٨ ـ خط بودان يواصله بوسويه (ق ١٧) كاثوليكيا (الملك فوق الكـل والجميع ، الله فوق الملك ، و ، واجب الملك ان يحارب الضلال : الغاء مرسـوم نانت !) . خط التوسيوس وغروتيوس (حق الشعب ، العقد) يواصله الفيلسوف الانكليزي **جون لوك** (١٦٩٠) منظر نظام الحريات الانكليزي مع اعلان حق الشعب في « الاستنجاد بالسماء » اي في الثورة ، ثم (ق ١٨) **مونتسكيو** الليبرالـي **وروسو** الديمقراطي . **هوبز** (ق ١٧) يحول « العقد لصالح الدولة المطلقة .

١٠ ــ توماس هوبز

١ ــ تاريخ الفلسفة هو نوعا ما تاريخ « **اللوغوس** » من هيراكليت وافلاطون الى الافلاطونية المحدثة والمسيحية والغنوص ... ، ثم تاريــخ الــ ratio البرجوازية عند افلاطون ، اللوغوس هو الله مصدر المثل ــ الفكر . عند فيلو ، هو وسيط بين الله والعالم . عند النيو افلاطونيين ، هو شكل للالوهية . في مطلع انجيل يوحنا « في البدء كان اللوغوس (بالعربية : الكلمة ، بالفرنسية : le verbe) ، واللوغوس كان عند الله ، واللوغوس هو الله » . انجيل يوحنا هو الانجيل الرابع ، المفصول بمسافة زمنية عن الاناجيل الثلاثة المتوافقة ، وهو الانجيل « الفلسفي» . الترجمة الفرنسية ليوحنا تقول : le verbe ، و verbe هي الكلمة والكلام ، وهي في علم قواعد اللغة الفرنسية توازي « فعل » في قواعد اللغة العربية . في « **فاوست** » غوته : « في البدء كانت الكلمة ؟ ــ لا !... في البدء كان الفكر ؟ ــ لا !... في البدء كان الفعل (العمل) ! » . هذه بمعنى ما « ترجمة » غوته لــ انجيل يوحنا . بول شوشار Chauchard ، العالم الكاثوليكي المهم ، يضع تحت عنوان كتابه الصغير « اللغة والفكر » (سلسلة ? que sais - je قول يوحنا الانجيلي « في البدء كان الكلمة » ، وقول كارل ماركس « اللغة مادة الفكر » ، ويعتمد في كتابه على ماركس وستالين وبافلوف (منظومــــة التأشير الثانية عن الواقع) عدا عن توما الاكويني وآخرين . ليته اضاف ايضا لينين قارئا تاريخ الفلسفة اليونانية عند هيغل ...

« لوغوس » نزحت نحو « روح » . الفلسفة اليونانية الاخيرة ركبت على « روح » او لوغوس ــ روح . العصر البرجوازي الصاعد يمضي الــى ratio عقل ــ حساب . raison, reason من ratio ومنها raisonnement محاكمة، استدلال. وهي ايضا علة ، ومنها فيالعربية تعليل. و «العقلانية» rationalisme هي نوعا ما هذا . هذا الانتقال الى ratio كان انتقالا الى الجدوى ، ضــد تصويف طويل ، ولكن كان تقليصا . المادية الميكانوية العظيمة ذروة وخاتمة هذه المسيرة المكونة من عقلانية ratio ، من خبروية وميكانية ــ رياضية ــ هندسية فاتحة للطبيعةوموازية لمجتمع واقتصاد * . عندئذ تبدأ مسيرة الفلسفة الكلاسيكية الالمانية المذهلة . هيغل يريد ان يسترجع المضيع ، يوحد الــ ratio مع « روح» فيلون ويوحنا ، يثمن الــ ratio البرجوازية ، الفلسفة الحديثة العقلانيــة والخبروية ، الرياضيات وعلم الطبيعة الرياضي ، **ويعود** الى الفلسفة اليونانية ، من هيراكليت الى النيو افلاطونية ، آخذا المحرز البرجوازي الحديث ، تحــت سلطة اللوغوس . هكذا المثالية المطلقة (او المثالية الموضوعية المطلقة) خاتمــة المسيرة الفلسفية كلها بما فيها مسيرة شيوخ اللوغوس (شيوخ العقل) في عصور مختلفة ، وعتبة المادية الجدلية التاريخية ومسيرتها .

---

* ــ وفي هذه المادية الميكانوية وفي «النجو» المادي، تميل روح الى «ذهن» esprit ، فرنسيا وانكليزيا .

هذه المادية الجدلية لا تستغني عن مصطلح « روح » esprit , geist بالعكس ، بالعكس تماما . ماركس يحمل الروح Geist ضد كل مادية مخلوطة لا تحب هذه الكلمة **روح وتملك وعمل** ، روح بأشكالها في التاريخ ؛ **وروح في** مقابل **طبيعة** ، في الثنائيات المقولاتية التي هي مبدأ المادية الفلسفية . **هيغل** ادخل العقل ـ ratio تحت العقل ـ لوغوس . الارتداد على هذا **ارتداد على** الجدل والغنوزيولوجيا المادية والمنطق بآن معا . المادية الكاملة هي مذهب الروح. المادية **الفلسفية** ليست مذهب « مادية الفكر » (التباس ، مادية مبتذلة) بل هي بالاحرى مذهب « فكرية المادة » اي المذهب الذي يبدأ بأن المادة مفهوم فلسفي ، بأن الاسماء اسماء ، والكلمات كلمات ، وان الاسماء قوانين الطبيعة » : فأما ان تكون جدية او ان تكون وهمية ...

٢ ــ **الحركة تناقض** . هذه القضية الاهم والابسط ، هذه البذرة لكل جدل ، يرفضها العقل البشري السليم وفي قضيتنا هذه المبتذل . ابرزها زينون الايلي (ق ٥ ق م) ، أهتم بها ارسطو الجدلي ، نفاها ريبي حديث أي سطحي ، أهتم بها هيغل ، انجلز ، لينين . هذه القضية حقيقة ، حقيقة بسيطة وجذرية : الحركة تناقض ؛ والحركة موجودة . وتبقى مسألة صياغتها مفهوميا : فالمنطق منطق هوية .

١١ ـ فيكو

١ ــ **هردر** Herder (١٧٤٤ ــ ١٨٠٣) احد بناة نهضة المانيا الفكرية والثقافية في عصر التنوير . ــ تلميذ كنط في كونيجسبرغ ، استاذ في ريغا ، التقى بـ غوته في ستراسبورغ ، تسيس في بكبورغ ثم مستشار سينودي في فايمار . ــ له مؤلفات في النقد والاستيطيقا (علم الجمال) ، وكتب فلسفية . درس منشأ اللغة ، بحث عن فلسفة التاريخ ، عن المخطط الذي يسود في تاريخ البشرية : العقل يعبر عن النشاط الانساني ويوجهه نحو الانسانية . ــ اثر تأثيرا كبيرا على آداب زمنه . ــ اشهر مؤلفاته : محاولة عن أصل اللغة (١٧٧٠) ، افكار عن فلسفة تاريخ البشرية (١٧٨٥ ــ ١٧٩٢) .

فيكو وهردر لهما اهمية كبيرة في المسيرة الى الجدل والى الماركسية ، ثبتها جورج لوكاكش وآخرون .

ابن خلدون (١٣٣٢ ــ ١٤٠٨) أعظم فيلسوف ــ مؤرخ انتجه الاسلام وواحد من اعظم الفلاسفة المؤرخين في جميع الازمنة » ، حسب فيليب حتي ، وتوينبي يتجاوزه في الثناء ؛ ابن خلدون يحظى بتقدير واهتمام ونقاش الفكر

الاوروبي منذ خمسين سنة بل ومنذ نيف ومئة سنة ؛ ان يذكره ارنست بلوخ في « فلسفة عصر النهضة » ، الى جانب فيكو المثالي الجدلي الذي عاش في زمن متراجع عن النهضة ، ليس امرا قليلا . يمكن القول أن ابن خلدون اكبر «فيلسوف للتاريخ » حتى القرن التاسع عشر ، رغم اهمية مونتسكيو وفولتير وآخرين ؛ وهو اهم فاتح عرفه العرب في مجال من مجالات المعرفة ؛ ولمن حسن الحظ — بالنسبة لـ « عرقنا » — أن يكون هذا المجال الذي فتحه احد عظماء العرب هو تاريخ الانسان ومصائر اجتماعه . — من عائلة عربية عريقة جاءت من حضرموت، عاشت وعملت وحاربت في اشبيليه ، ثم لجأت الى سبته ، واخيرا الى تونس ، حيث ولد ابن خلدون ؛ تتلمذ على يد شارح ومتابع لابن رشد وابن سينا والفارابي والرازي ، انخرط في العمل السياسي لزمنه ، ثم قرر الاعتزال (١٣٧٥) ليؤلف كتابه اي ليفكر التاريخ بعيدا عن المنفعة المباشرة ، بعيدا عن السياسة والسلطة ، عن الدنيا والدين ؛ تعرف على تيمورلنك في الشام رغما عنه ، توفي في القاهرة (١٤٠٨) — خبرته ومعرفته وعقله ، حياته في الغرب ومعرفته بالمشرق والشرق وبالشعوب ، وبالغرب في زمن تراجع العرب النهائي في الاندلس وحرب المئة عام بين فرنسا وانكلترة ، هذا كله جعله « يحس » بأن التاريخ العالمي قيد انقلاب كبير ، ويدرك ان المغرب (وربما المشرق ايضا) في ازمة مستعصية . وعلى هذا الاساس التاريخي ، ليس ابن خلدون بعيدا عن أن يكون بمنظورات اليوم مؤسس علم التاريخ ومدشن مسألية « العالم الثالث » بآن . هذا التلازم بحد ذاته امر بالغ الاهمية من وجهة نظر مصائر الانسان والبشرية . وللأثرة لـ **ايف لاكوست** ان درس ابن خلدون من هذه الحيثية الحديثة : « مولد التاريخ وماضي العالم الثالث » ، ولدار ابن خلدون ان نشرت ترجمة كتاب ايف لاكوست . نحيل القارىء على هذا الكتاب ونكتفي بتسجيل ما يلي :

١) ابن خلدون حاول ان يفهم التاريخ ، لم يكتف بسرد الوقائع ، فالف المقدمة التي خلدته ؛ تخطى الاحداث العسكرية والسياسية وسيرة العظماء الى الحياة الاجتماعية التي هي الاساس . كان مؤمنا ومحافظا في ميدان الدين والالهيات ، لكنه — بعكس اوغسطين مثلا — يدرس التاريخ كميدان مستقل مبدئيا، دنيوي وبشري ، كعلم وضعي موضوعه المجتمع الانساني وحركته الخاضعة لقوانين محايثة وعقلية ، ويدرسه كليا كونيا ، بعيدا عن روح الدفاع — التبرير — التمجيد ، عن روح الابولوجيستيفا الدينية او القومية او السياسية ، وفي القرن ١٤ ، اي في زمن لم يظهر فيه بعد تفوق اوروبا وكان زمن صراع ديني لا بداية له ولا نهاية .

٢) المقولة المركزية عنده هي فكرة **العمران** . اذن الحضارة المدنية ، الثقافة بمعنى شامل ، او لنقل ايضا الصناعة ، صناعة الانسان الصانع ابن خلدون يميز عمرانا بدويا وعمرانا حضريا هو العمران المتقدم والحقيقي . وهذا مفهوم جدلي مادي تاريخي ، بالطبع ، ليست البادية والعمران البدوي هي الصحراء بل هي كل « البر » خارج المدن . ولنقل ان القاع أو الخلفية لموقف ابن خلدون هي حالة

المغرب ، بل نوعا ما حالة العالم العربي والاسلامي ، وهي حالة تختلف عن حال اوروبا المغايرة مناخيا وطبيعيا ، واجتماعيا — تاريخيا . هذه نقطه جديرة بالإشارة . لكن ثمة في أوروبا موازاة ، رغم الاختلاف : من البربرية والبداوة والبدائية الى المنظومة الاقطاعية والمدن والممالك . في القرن ١٩ وبعده ، ركب الفكر الاوروبي البرجوازي على « الحضارة » و « تاريخ الحضارة » (وعلى التقدم الاوروبي مفهوما في خط تقدم ، أجل ، ولكن مع تراجع متفائل من وجهة نظر جدلية صحيحة) ، مديرا ظهره للاقتصاد والطبقات ؛ الماركسيون فعلوا العكس ، اهملوا الحضارة وتاريخ الحضارة ، جزئيا كرد فعل ، لكن خصوصا من منطلق اقتصادوي مخالف لماركس ، كثيرا ما يميل الى تجريد « علاقات الانتاج » عن الانتاج ونمط الانتاج ذاته . عند ابن خلدون ليس **العمران** « حضارة » بديلة عن الانتاج والاقتصاد ، بل اساسه يبدو احيانا هو الانتاج ونمط الانتاج .

٣) نظرية الاجيال الثلاثة في عمر الدولة صورة عن واقع تاريخ المغرب العربي الذي اخذ يدور على ذاته بلا دولة راسخة مديدة تؤمن اساسا مستقرا لتقدم العمران . ميز بين المغرب والمشرق حيث قامت وتقوم دول مديدة وكبيرة . اعطى **الدولة** اكثر مما تستحق (وظل جاهلا بعض العوامل الاقتصادية الفاعلة في زمنه) علما بأن الدولة لعبت دورا مهما في النمو البرجوازي الاوروبي الحديث . لو عاش بعد قرون لوصل الى منظور للتاريخ كنمط تقدم يفضي الى مجتمع برجوازي من طراز اوروبي .

٤) وجه نقدا لاذعا للفئتين الرئيسيتين : البدو واهل المدن . اولئك يخلقون دولة ، بالعصبية ، لكن الدولة تحتاج الى بنية تسندها ليست البدو ، واهل المدن دون المهمة . بمفردات حديثة : ليسوا برجوازية ولا مشروع برجوازية ؛ وهذا لا ينطبق فقط على المغرب العربي بل ايضا على المشرق ، على الشرق الاسلامي ، والشرق عموما ، بحكم ظروف تاريخية اكبر من التي كان متاحا لابن خلدون ان يقبض عليها بالفكر . في الشرق العربي الاسلامي نجد دولا راسخة وكبيرة بل كبيرة جدا ونجد بدوا وحضرا في تشارك حيوي او طفيلية متبادلة . المغرب يقع في مرتبة ادنى ، دون الدولة الاستبدادية الشرقية والمجتمع الآسيوي النمط . ان مفهوم « العصبية » له اذن حدوده كتعليل . لكنه بالطبع عند ابن خلدون مفهوم جدلي مرن . العصبية تقيم الدولة ، لكن الدولة تحتاج الى شيء آخر لكي تستمر بشكل مجد ومفتوح ، لنقل بمفردات عصر لاحق ، الى مجتمع مدني — برجوازي . اذا عند ابن خلدون ، العصبية تابعة لفكرة الدولة والدولة تابعة لفكرة العمران التي هي التاريخ الحق (التاريخ هو التقدم في العمران) . هذا هو « تسلسله للقيم » ، وهو تسلسل عصري . ابن خلدون « أوروبي » قبل ظهور « الاوروبية » . انه مارس نقد الامة نقدا لاذعا وعميقا ومبالغا . بدلا من ان تتعلم الامة منه هذا الدرس ، انشغل بعض مفكريها بمسألة من نوع : هل شتم العرب ؟ وماذا قصد بـ « العرب » ؟ — شتمهم ونيف. لم لا ؟ هذا اولا. وثانيا وخصوصا، انه بخلافكم لا يؤله ويحنط « العرب » ولا اي مصطلح آخر ، فهو يعرف جدلية

اللغة . أما مسعود الشابي في ١٩٦٥ فقد ركب على عصبية ابن خلدون (مواطنه التونسي !!) وبنى « استراتيجية الثورة العربية » على عصبيته الحزبية العقيدية القومية اللاقطرية واللاقبلية واللاطائفية الكفيلة بتحقيق الوحدة القومية والسعادة الاشتراكية للعرب ، ولا ندري الى اين حمل عصبيته واستراتيجيته بعد سنة من كلامه .

٢ — نفهم اذا ان **فيكو** احد منابع الجدل الحديث ، حلقة هامة ، في اوائل القرن الثامن عشر ، وشاذة عن التيار العريض السائد .

هذا التيار السائد في القرنين ١٧ و ١٨ والذي يبلغ ذروته وغايته في القرن ١٨ ، كان تقدما كبيرا وفي الوقت نفسه افقارا وتقليصا ، بالقياس الى فكر وفلسفة عصر النهضة . والامر مفهوم . فقد كانت المهمة المطروحة ايجابية تماما : تأسيس المعرفة العلمية الوضعية وبناؤها الموازي لصعود البرجوازية والمرتبط بهذا الصعود . وهذه المعرفة العلمية الوضعية تنشأ كعلوم طبيعة ، وعلوم الطبيعة تتأسس حكما كعلم طبيعي رياضي أولي ، بمقولة الكم ، كميكانيك ، بمقولات الحركة والكم والمكان والزمان . وتتأسس قبلها ومعها الاداة الرياضية الجبارة : جبر (فييت) ، هندسة تحليلية (ديكارت) ، تحليل اللامتناهيات (نيوتن ولايبنتس) . وهذا ينسحب على الفلسفة : عقلانية ، خبرية ، مع دفع هذين الموقفين الى اقصاهما ، بعيدا عن التوفيقية المبتذلة ، في مجابهة مكشوفة (« صحيفة بيضاء » ضد « فكر فطرية ») ، وتضافر وحب على هدف واحد (العقل ratio وخبرة — تجربة — تجريب ، عقلانية — رياضية — هندسية — آلية وخبرية — حسية — مادية — آلية ، مع تلسكوب نظر سبينوزا وميكروسكوب نظر لايبنتس ، وفي الموقف الاخير مادية ميكانيكية ميكانوية وميتافيزية مع مسائل عالقة : هيوم Hume اكل الماهية واكل السببية ، وبركلي اكل المادة والاشياء .

فكر الزمن الجديد مأخوذا ككل (ق ١٥ — ق ١٨) تقدم هائل على العصور الوسطى . ضد ستاتيكية العصور الوسطى برزت **الحركة** عند فلاسفة النهضة وعند التالين سواء بسواء . لكن عند التالين الذين يبسطون وينمون احد الوجوه ، الحركة ميكانيك ، كم ، حركة ميكانيكية ، انتقال جسم في المكان ، حركة ذرات واجسام وكواكب وبشر اقتصاديين . ليست تطورا وتاريخا . بوحي من ارنست بلوخ نقول : ديموقريط غلب ارسطو . الفكر الفلسفي الحديث يخسر الجدل ، جدل عصر النهضة وجدل الاقدمين ، الاغريق . « الفهم » entendement ينبسط ضد العقل ، او العقل — الـ ratio ضد العقل — اللوغوس (علما بأن هذا العرض فيه تبسيط وفيه بعض الاجحاف بحق المعلمين الكبار من الفلاسفة — العلماء : ديكارت ، بيكن ، سبينوزا ، الخ) .

فيكو ، هردر ، غوته ضد هذا التقليص . يعيدون الصلة المقطوعة مع عصر النهضة واهتماماته ومع تاريخ الانسان مأخوذا ككل . في هذه الاثناء ، كنط يوجه

اول ضربة للتصور الميتافيزي السكوني للكون الطبيعي الميكانيكي- الرياضي بنظريته القائلة بأصل ونشوء للمنظومة الشمسية ، اذن بتاريخ للطبيعة (١٧٥٥) ، يعيد طرح مسالة المعرفة ، يضع المعرفة في سؤال ، ويبدأ الجدل الحديث . لافوازيه يتابع خط تأسيس المعرفة العلمية الوضعية ، يطرد مادة الفلوجيستيك ، يؤسس علم الكيمياء ، صاعدا درجة في سلم العلم الطبيعي ، فوق درجة فيزياء - ميكانيك الاجسام . ديدرو وغوته يقولان بفكرة تطور الانواع . البيولوجيا تبدأ تتأسس كعلم وضعي : لينه يضع فكرة « النوع » ، لكن كأنواع ثابتة ومحدودة ، لامارك يطلق نظرية تطور الكائنات الحية (مهملا فكرة « النوع العام ») التي سوف تصير نظرية تطور الانواع ...

في هذه الاثناء ، الثورة الفرنسية والحروب النابوليونية والثورة الصناعية تعلن نهاية عصر وبداية عصر آخر في التاريخ الكوني .

التصور الميتافيزي للكون ، « الفهم » المكتفي والمستكفي ، الميكانوية الرياضية الماهوية ، الخبروية - الدوغمائية ، الخ ، هذا كله يدخل في ازمة ، ويغرق . يبدأ عصر الجدل . اما الجدل واما اللاعقلانية . العقلانية السابقة ، حين لا تتقدم وتنقلب الى جدل ، تنحل الى شبح ذاتها ، الى كاريكاتور لديكارت . ما كان نقصا صار رفضا وخصيا . تيار مناهضة العقل يزهر في المانيا بخاصة ، في مواجهة الجدل الذي صار مادية جدلية وتاريخية وحزبا سياسيا . والعقلانية الشبحية تزدهر خصوصا في فرنسا والبلاد الانجلو سكسونية ، في شكل وضعوية وتفاؤل وتسليم . بين الاثنين صلات ، وساطات ، تحولات ، ولا سيما تحول دائم من العقلانية الوهمية الى مناهضة العقل . البروليتاريا ترث الفلسفة، الفلسفة صارت حزبا . هذا الوريث الكوني يمسك بمسائل الانسان جميعا ، بالعالم والتاريخ . ويرد الاعتبار الى « الانسان الصانع » والى « الانسان العاقل»، وعلى هذا الاساس الى عصر النهضة و « فلسفة عصر النهضة » .

الفهرس

الشروح

(نقتصر هنا على ذكر أهم الشروح)

فلسفة عصر النهضة

عصر النهضة ، عصر جديد ، نقلة هامة ، ميلاد آخر ، على كل صعيد وهذا العصر هو « اهم انقلاب متدرج عرفه العالم حتى ذلك الحين » على حد وصف فريدريك انجلز .

وهو على حد قول هوتن : « العلم يزدهر ، الاذهان تتصادم وجهاً لوجه ، إنها لمتعة ان نحيا ! » .

والانقلاب يشمل كل شيء ـ العلم ، العمل ، الاقتصاد ، السياسة وكذلك الفلسفة .

ففلسفة عصر النهضة ، هي بداية الفلسفة البرجوازية ، هذه البداية التي جرت العادة على اهمالها .

ولقد شاب هذه البداية الكثير من الخلط والتشويش ، وشاع حيالها الخطأ . فديكارت كما هو شائع ليس البداية ، فله اسلاف . ومنولوج فاوست نفسه مثلا لا يمكن تصوره بدون حركة النهضة .

وكان هذا الكتاب ليلقي ضوءاً شاملاً على تلك الحقيقة ... الانقلاب ...

دار الحقيقة ـ بيروت

ص. ب. ٨١٤٧

الثمن : ١٢ ل.ل.